أسس علم اللغة

تأليف

ماريو باي

ترجمة وتعليق

الدكتور أحمد مختار عمر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

أسس علم اللغة

أسس علم اللغة

تأليف

ماريو باي

ترجمة وتعليق

الدكتور أحمد مختار عمر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ترجمه لكتاب

INVITATION TO LINGUISTICS

(A basic introduction to the science of language)

By

MARIO PEI

الطبعة الأولى جامعة طرابلس ١٩٧٣

الطبعة الثانية عالم الكتب ١٩٨٣

فهرس

القسم السابع
علم اللغة الجغرافى
منهج البحث

القسم الثامن
تاريخ موجز لعلم اللغة

ملاحق

مقدمة المترجم

يعد «ماريو باى» من أعلام اللغويين المعاصرين، كما أنه يعد من أشهر من نادوا بتبسيط علم اللغة، والبعد به عن التعقيدات، ونظريات الرياضة التى تضره أكثر مما تنفعه. ولم يكتف ماريو باى بالدعوة إلى هذه الفكرة والترويج لها، بل طبقها فى كثير من كتبه حتى صارت طابعاً مميزا له، وأصبح اسم ماريو باى يعنى البساطة والوضوح، وإن لم يكن ذلك على حساب الدقة أو العمق المطلوبين. وبذلك جذب ماريو باى إلى ميدان علم اللغة فئات من القراء كانت بعيدة عنه، ووفق فى تقريب هذه المادة إلى المتخصصين وغير المتخصصين على السواء.

والمؤلف فى مقدمة كتابه هذا يقول: «وغايتى من هذا العمل المختصر — إلى حد ما — أن أقدم الحقائق الأساسية لعلم اللغة فى لغة يمكن أن يفهمها كل الناس»، كما أنه يحمل فى أماكن متعددة من كتابه على أولئك الذين عقدوا من أبحاث علم اللغة، وطبقوا عليها مناهج لاتصلح لها، مما كان مثار شكوى وضجر من الدارسين والمتخصصين. يقول: «إن علماء اللغة الوصفيين يجب أن يدركوا أن التعقيدات غير الضرورية التى يخضعون لها علمهم لاتساعد على انتشار منهجهم أو جعله مرغوبا فيه. وكثيرا ما سمعنا شكاوى من دارسى علم اللغة أنهم لايفهمون أى شيء منه. ولايمكن نسبة كل هذه

الشكاوى إلى التقصير فى الإعداد ، أو إلى نقص الاستعداد » . ويقول فى أحد ملاحق الكتاب الذى يحمل عنوان « اقتراحات قليلة » — يقول : «وهنالك اتجاه ظهر لبعض الوقت فى علم اللغة الوصفى وهو الميل نحو الإبهام والغموض . وإن النزول بعلم اللغة الوصفى إلى مستوى القضايا والنظريات الرياضية ... فيما سمى بالتحليل شبه الرياضى للغة لايحقق أى منفعة لالعلم اللغة ولاللرياضة . إن موضوع علم اللغة هو اللغة ، وإذا عجز علم اللغة عن أن يجعل نفسه واضحاً ومفيداً فى أبحاثه وموضوعاته التى يتناولها من غير الاستعانة بعلم لاتوجد بينهما علاقة واضحة ، فقد فشل فى أداء مهمته » .

وعلى الرغم من أن المؤلف إيطالى الأصل والمولد فقد كانت لغته الإنجليزية التى كتب بها مؤلفاته واضحة معبرة دقيقة كما لاحظ ذلك جورج برنارد شو حينما أرسل له الناشر الأمريكى بعض فصول من أحد كتبه . وقد كان رأى برنارد شو : « بعد أن ألقيت نظرة على هذه الفصول أستطيع أن أحكم بأن الكتاب ممتع سهل القراءة . ومع أن المؤلف إيطالى فإن لغته وتعبيراته أدق وأعمق بكثير مما يستطيع أن يفعله معظم الكتاب الإنجليز أنفسهم . . . » .

وليست هذه هى مؤهلات ماريو باى فحسب ، فقارىء كتبه يصاحبه دائماً إحساس بالدهشة والعجب من كثرة اللغات التى يجيدها ويعرفها ، مما فتح أمامه طريق الدراسات المقارنة ، ومكنه من ضرب الأمثلة من شتى اللغات . ولهذا لم يخف برنارد شو إعجابه وتقديره لذاكرة المؤلف الفذة فى ذلك فى قوله : « إن ذاكرة ماريو باى الاستثنائية وغزارة معلوماته تذكرنى بإسحاق نيوتن » . وقد مكنت هذه الموهبة المؤلف من أن يطرق باب « علم اللغة الجغرافى » بشجاعة وثقة ، وأن يؤلف عدة كتب تتناول لغات العالم بالدرس والعرض والفحص والمقارنة . ومن أشهر هذه الكتب :

1 – The world's Chief Languages.

2 – The Story of Language.

3 – Ta king Your Way Around the World.

4 – The Story of English.

5 – The Families of Words.

6 – Language for Everybody.

والكتاب الذى اخترته للترجمة يحمل اسم « Invitation to Linguistics »
وقد اخترت له عنواناً عربياً هو « أسس علم اللغة » أخذا من وصف المؤلف
لهذا الكتاب بأنه «A basic intıoduction to the Science og Language»

وقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب مباحث علم اللغة تحت فروع ثلاثة هى : الوصفى ، والتاريخى ، والجغرافى . وأعطى الفرع الأخير مزيدا من العناية نظراً لجدته وحداثته ، وحتى يحتل مكانته اللائقة مع أخويه الكبيرين. ولم يعتبر المؤلف من بين فروع علم اللغة ما يعرف باسم علم اللغة المقارن ، بل وزع مباحثه إما فى القسم التمهيدى بالكتاب ، أو فى الأقسام الخاصة بعلم اللغة التاريخى .

والمؤلف ليس غريباً على القارىء العربى ، فقد ترجم له الدكتور صلاح العربى كتابه « لغات البشر » وعرّف به فى إيجاز على أنه واحد من أعظم الحجج المعاصرة فى اللغة ، ونوه بالمناصب التى شغلها وكان من أهمها اشتغاله مدرسا لمادة فقه اللغة فى جامعة كولومبيا (كان الأولى أن يقول أستاذاً لفقه اللغات الرومانسية بجامعة كولومبيا) .

وإلى جانب مؤلفات ماريو باى الغزيرة فى علم اللغة فقد أسهم فى تأصيل مصطلحات هذا العلم وتجلية غامضها عن طريق عملين شهيرين ، أحدهما بالاشتراك ، والآخر بالانفراد .

أما الأول فهو : Dictionary of Linguistics

وأما الثانى فهو : Glossary of Linguistic Terminology

* * *

وقد حاولتُ فى هذه الترجمة أن ألتزم — ما وسعنى الجهد — الدقة ، وألا أتدخل فى عبارة المؤلف أو أمثلته بالحذف أو التغيير ، وإن كنت قد أعطيت نفسى بعض الحرية فى حواشى الكتاب فتصرفت فى بعضها تصرفاً قليلا .

كما تصرفت — بالحذف فقط — فى ملاحق الكتاب فأبقيت بعضا وتركت بعضا . فقد اكتفيت منها بثلاثة ملاحق وتركت ما عداها لأسباب تخص كلاً منها . فمما تركته لأنه لايهم القارىء العربى جدول فونيمى صوتى لست لغات عظمى هى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية والروسية . ومما تركته لأنه أصبح متخلفاً إحصاءاته بعدد المتكلمين بكل لغة من اللغات الرئيسية الموجودة فى العالم ، فقد أقام إحصاءاته على تقديرات الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ ، وقد تغيرت التقديرات الآن بشكل ملحوظ .

وقد زودت الكتاب بقوائم المصطلحات التى وردت فى خلال معالجة المادة اللغوية فذكرت المصطلح الإنجليزى (أو الأجنبى) ومقابله العربى ، وذكرت أمام كل مصطلح مكان أو أماكن وروده فى مباحث الكتاب ؛ وبأخرى للهجات واللغات والعائلات اللغوية .

والله ولى التوفيق .

المترجم
احمد مختار عمر

مقدمة المؤلف

إن علم اللغة — الذي هو الدراسة العلمية للغة واللغات — قد أصبح علماً رائجاً ليس فقط في الكليات والجامعات ، وإنما كذلك في الدوائر الحكومية ، بل وحتى بين المتعلمين العاديين .

وهناك شعور — قد يكون خاطئاً أو مبالغاً فيه — بأننا الآن في عالمنا الممتد ، المتفتح الذهن ، لم يعد يكفينا الإلمام ببعض اللغات إلماماً منفصلاً ، وبخاصة في بعض الحرف والوظائف . إن ما هو مطلوب الآن لم يعد أقل من معرفة واسعة متناسقة بحركة سير اللغات وفاعليتها ، وكيفية أدائها لوظائفها ، وماذا يجب أن يُفعل أو لا يُفعل لأي لغة لإرساء دعائمها كوسيلة اتصال . والذي يمدك بهذه المعلومات هو عالم اللغة الوصفي .

كذلك مما يهم المرء أن يعرفه العلاقات بين اللغات المختلفة ، وكيفية تجمع اللغات في عائلات وفروع ، وتاريخ تطورها ، ومرورها بمراحل في الماضي حتى وصلت إلى حالتها الحاضرة . وهنا يأتي علم اللغة التاريخي ليشبع هذه الرغبة ، ويقدم للمرء ما يريد .

وهناك — أخيراً — تساؤلات كثيرة حول مراكز لغات العالم اليوم كم لغة تبلغ هذه اللغات ؟ أي نوع من البشر يتكلم كل لغة منها ؟ أين يُتكلم كل

منها ؟ في أي غرض ثقافي أو عملي يمكن استعمالها سواء من جانب الأفراد أو الجماعات ؟ وهنا يبرز دور المتخصص في علم اللغة الجغرافي ، ذلك الفرع الذي يعد أحدث فروع علم اللغة وأصغرها سناً .

ويجب أن يكون واضحا منذ البداية أنه لا واحد من هذه الفروع الثلاثة لعلم اللغة يتناول بالتحديد طريقة تعليم أو تعلم أي لغة على انفراد . فهذه المهمة — منذ أمد بعيد — يقوم بها معلم اللغة الذي يعطى اهتماما للغته المعينة ، ويتخصص في طرق تدريسها . ولكن معلم اللغة — شأنه في ذلك شأن الرجل العادي — يمكنه أن يستفيد من المعلومات اللغوية العامة التي يقدمها له علماء اللغة في الفروع الثلاثة السابق ذكرها . ويمكن أن نتصور لهذه الاستفادة واحدا أو أكثر من أشكال ثلاثة هي :

أ — وضع لغته المعينة تحت ضوء المبادىء العامة التي تتدخل وتتحكم في حركة اللغة .

ب — الكشف عن أطوارها التاريخية ، حتى يمكنه أن يجيب على الاستفسارات المتنوعة بكيف ومتى ولماذا .

ج — وأخيرا وضع لغته في مكانها بين لغات العالم ، والكشف عن دورها العملي الذي يمكن أن تقوم به .

ومن أجل هذا وذاك لم يعد مستغرباً أن يتزايد اهتمام مدرس اللغة المتخصص بأبحاث علم اللغة ، وأن يلقى هذا العلم اهتماما مطردا من كلياتنا وجامعاتنا ، بل وحتى من مدارسنا الثانوية . كذلك ليس مما يثير الدهشة الآن أن تكون أبحاث علم اللغة ونتائجه موضع اهتمام من عدة مصادر حكومية وغير حكومية ، وأن يتجه الجميع إلى البحث بمعدلات واسعة ، بعد أن كادت المسافات تطوى بين أجزاء العالم . وليس هذا فحسب ، بل إن هناك ميلاً من بعض الوكالات والأوساط الحكومية إلى أن تشترط في موظفيها — من الرجال

والنساء — ليس فقط أن يتقنوا بعض اللغات الأجنبية بل أن يلموا كـذلك بالمبادىء الأساسية لعلم اللغة . وأخيرا ، ليس مما يثير الدهشة أن يلقى علم اللغة اهتمام المثقفين والمتعلمين من غير المتخصصين في الدرس اللغوي بعد أن لفت نظرهم احتلال اللغة واللغات مكانا بارزا في الأخبار اليومية ، وتوقع أدائها دورا أكبر في عالم الغد ، حيث تتقدم وسائل الاتصال ، وتتوثق العلاقات الدولية ، سواء على مستوى الأعمال الحرة أو الدبلوماسية .

* * *

وغايتي من هذا العمل المختصر — إلى حد ما — أن أقدم الحقائق الأساسية لعلم اللغة في لغة يمكن أن يفهمها كل الناس . وأعني بالحقائق الأساسية تلك الأحكام التي يمكن إثباتها واقامة الدليل عليها بسهولة ، والتي تعد محل اتفاق بين جميع اللغويين . ولا تتضمن هذه الحقائق إلا ما يعد مقدمة للمبتدئين تفتح أمامهم نافذة لينطلقوا منها إلى مجالات هذا العلم الواسعة . أما التفصيلات ، ونقاط الخلاف الرئيسية فيمكن الاطلاع عليها في بعض المراجع المتقدمة .

وهناك معلومات إضافية أكثر ميلا إلى التخصص تحتوي عليها الملاحق التي ذيلت بها الكتاب . وسوف يستفيد بهذه الملاحق هذا النوع من القراء الذي يريد أن يستكشف آفاقا أكثر تعقيدا ، أو يقف على أنواع معينة من المعلومات ذات الصلة الوثيقة بأبحاث علم اللغة . أما القارىء الأكثر طموحا الذي يريد أن يغطي جوانب العلم المختلفة فقد أعددت له قائمة منتقاة من المراجع راعيت فيها أن تمثل الاتجاهات المختلفة وتعكس الآراء المتعارضة .

إن الجدل في مجالات العلوم ليس أمرا طبيعيا عاديا فحسب ، بل هو أمر مرغوب فيه . قد تكون الحقيقة الموضوعية شيئا واحدا ، ولكن جوانبهـا المختلفة تسمح بتفسيرات متنوعة تكون محل خلاف . وما جاء من وجوه نقد للمدارس والمناهج اللغوية في ملاحق الكتاب لا يمثل إلا رأياً شخصيا ، ونظرة

ذاتية للمؤلف . ولكنها نظرة مخلصة مبنية على خبرة طويلة في هذا الميدان . ولم أهدف من هذا النقد إلى الهدم بل البناء. وأهم من هذا أن أنبه إلى أن هذا النقد لا يصح فهمه على أنه تشكيك في قيمة المبادىء الأساسية لعلم اللغة التي سبق عرضها في صلب الكتاب ، فهي مبادىء مقبولة ومسلمة لدى الكثرة الكثيرة من علماء اللغـــة .

القسم الاول

قضايا أساسية

١ – علم اللغة وفقه اللغـــة

إن موضوع فقه اللغة Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط . ولكن يجمع إلى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبي للغـــات موضوع الدراسة . أما علم اللغة Linguistics فيركز على اللغة نفسها ولكن مع إشـــارات عابرة – أحيانا – إلى قيم ثقافية وتاريخية . ويولي علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة ، وإن كان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئا من الاهتمام .

إن علم اللغة هو دراسة اللغة ، والمعنى الاشتقاقي للغة هو أنها « تلك التي تتعلق باللسان الإنساني » . وهناك تعريفات أوسع للغة بأنها « تلك التي تحمل معنى » ، أو « كل شيء له معنى مفيد » ، أو « كل شيء ينقل المعنى من عقل إنساني لآخر » . وفي هذه التعريفات الواسعة لا تقتصر اللغة على صورتها المتكلمة فقط ، وإنما تحوي الى جانب ذلك الإشارات ، والإيماءات ، وتعبيرات الوجه ، والرموز من أي نوع ، مثل إشارات المرور ، والأسهم ، وحتى الصور والرسوم ، وكذلك دقات الطبول الخاصة في أدغال إفريقية ، وإطلاق الدخان بطريقة معينة بين الهنود الأمريكيين . كل هذه الأشكال للنواقل المعبرة تلقى اهتمام عالم المعنى الذي يهتم بكل رمز له معنى مفيد ، بغض النظر عن أصله وطبيعته ودلالته . ولكن اللغوي لا يلقي بالاً إليها إلا بدرجة محدودة .

وإن علم اللغة الحديث ليقسم الآن إلى قسمين رئيسيين هما : علم اللغة

الوصفي descriptive linguistics وعلم اللغة التاريخي historical linguistics. فعلم اللغة الوصفي – كما يدل الاسم – يصف اللغة، ويفحص ظواهرها ومظاهرها (على سبيل المثال الأصوات أو التركيب الخاص بلغة معينة في فترة تاريخية معينة). أما علم اللغة التاريخي فيتتبع تطور اللغة وتغيرها على مر الزمن (على سبيل المثال تطور اللغة اللاتينية إلى اللغات الرومانسية، أو الأنجلوسكسونية إلى الإنجليزية الحديثة). وهناك مصطلح يستعمل مرادفا لعلم اللغة التاريخي وهو diachronic linguistics (مكون من dia بمعنى «عبْر» و chronic بمعنى «زمن»)، ومصطلح آخر يرادف علم اللغة الوصفي وهو Synchronic linguistics (مكون من Syn بمعنى «في» و Chronic بمعنى «زمن»)، ويعني دراسة اللغة كما تبدو في نقطة معينة من الزمن.

ويوجد كذلك ما يعرف بعلم اللغة المقارن Comparative linguistics ويتعلق بمقارنة التركيبات الخاصة بلغتين أو أكثر (على سبيل المثال الإنجليزية والألمانية والهولندية والسويدية) غالبا بهدف التوصل إلى أصولها المشتركة. وهذا يعني أن علم اللغة المقارن – من هذه الزاوية – أقرب إلى علم اللغة التاريخي. ولكن من الممكن كذلك أن يقارن المرء بين لغتين حديثتين، من غير إشارة إلى تطوراتهما أو أصولهما التاريخية، وذلك بقصد الوصول إلى مواطن الشبه والاختلاف بينهما في صورتيهما الحاضرة.

وهناك اصطلاح يكثر استعماله مرادفا لعلم اللغة الوصفي، وهو علم اللغة التركيبي Structural linguistics، الذي هدفه الرئيسي وصف تركيب اللغة. وقد يستعمل هذا الاصطلاح في معنى أضيق ليشير إلى أعمال مدرسة لغوية معينة من مدارس علم اللغة الوصفي تؤمن بأن أي تغير في اللغة لا يحدث خبط عشواء، أو بصورة فردية، ولكن يؤثر في نظام اللغة وإطارها العام، مع وجود خيط معين يربط التغيرات بعضها ببعض.

وهناك كذلك ما يعرف بعلم اللغة الجغرافي Geolinguistics الذي

يعتبر حديث الوجود إلى حد ما ؛ وهو الآن يشق طريقه إلى الأمام نتيجة لاتساع دائرته العملية . إن وظيفته أن يصف بطريقة علمية وموضوعية توزيع اللغات في مناطق العالم المختلفة ليوضح أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والثقافية ، وأن يدرس طرق تفاعل اللغات بعضها مع بعض . وكيفية تأثير العامل اللغوي على تطور الثقافة والفكر الوطنيين . وكمثال واحد ، ربما يكفي أن نشير إلى توزيع اللغات السلافية وغير السلافية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي وأهميتها النسبية ، ودور اللغة الروسية باعتبارها اللغة المتسلطة ، أو اللغة المشتركة .

وإن علم اللغة الجغرافي ليتناول إلى جانب النتاج الحديث حاصل العوامل والأحداث التاريخية . ومن أجل هذا فهو وثيق الصلة بعلم اللغة التاريخي . ومظاهر تطبيقه الحديثة تبدو – إلى حد كبير – وصفية جغرافية اجتماعية . إن أي لغة تملك عددا معينا من المتكلمين قل أو كثر ، تتوزع في مناطق مختلفة من العالم ضاقت أو اتسعت . إنها تستعمل في مجال الإنتاج وتسويق البضائع وخلق القيم الثقافية ، وهي تحمل – إلى جانب ذلك – نفوذاً سياسياً وعسكريا في مناطق معينة . هذه العوامل تبرز القيمة العملية للغة ؛ وتجعل منها موضوعاً واسعاً للدراسة . وهناك مجالات أخرى ثانوية لهذا الفرع ، مثل دراسة استعمال اللغة في الطقوس . أو لأغراض دينية أخرى ؛ ودراسة حالات فرضها على البلاد المستعمَرة ، أو التي كانت مستعمرة ؛ وإمكان تغلبها على اللغات الأصلية ؛ أو إحلالها محلها في مناطق متاخمة .

حقا إن كل هذه العوامل متغير ومؤقت ولا يوصف بالدوام . ولكن اللغة نفسها ظاهرة متغيرة ومؤقتة ، وخاضعة لقوانين التطور . من الممكن إذن أن يوصف علم اللغة الجغرافي بأنه التطبيق العملي الحديث لعلم اللغة ، تماما كما تعتبر الهندسة تطبيقا عمليا لقوانين علم الطبيعة ، وكما يعتبر الطب والجراحة تطبيقا عمليا لعلم وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح .

وبينما نجد علمي اللغة التاريخي والوصفي لا يظفران بغير اهتمام اللغوي المتخصص ، يظفر علم اللغة الجغرافي باهتمام أي انسان تتاح له أي فرصة للذهاب إلى خارج بلده ، أو لإقامة اتصالات أجنبية ، أو تشغله الحالة الدولية بوجه عام .

٢ ـ اللغة ـ الكتابة ـ الإيماءات ـ الإشارات ـ الرموز

إذا نحن قبلنا التعريف الاشتقاقي الضيق للغة بأنها « تلك التي تتعلق باللسان الإنساني » فإننا يجب أن نظل دائما على ذكر بتعريفنا . إن جهاز النطق الإنساني (اللسان يعتبر فقط أهم عضو من أعضائه) قادر على إنتاج أصوات وأنواع من الضجيج تبعد عن اللغة بقدر ما تبعد عنها أصوات آلة متحركة . ليكون الصوت لغويا ـ بالمعنى العام ـ فإن الأصوات الصادرة عن الجهاز النطقي يجب أن تكون ذات معنى ، وتنقل رسالة محددة معينة من عقل إنسان إلى آخر. وربما ذهب المرء بشروطه أبعد من هذا وقال إنه لا بد في مثل هذه الأصوات أن تكون من النوع الذى يمكن كذلك أن يغطي المواقف غير الفورية . إن نباح كلب ربما حذرك من خطر محدق عاجل ، ولكن حينما أستعمل الكلام في إصدار تحذير من خطر يترقبك خلف تل أو ينتظرك في الغد فإنني أستعمل اللغة الإنسانية في مجالها الواسع العريض ، وأميزها عن مجرد الضجيج الذي يصدر عن حيوان كرد فعل لمثير مباشر .

لا أحد يعرف متى أو أين أو على أي صورة ابتدأ الكلام الإنساني ، على الرغم من وجود افتراضات كثيرة في الموضوع [1] . إننا نعرف جيدا أنه لا يوجد

---

(١) بعض هذه الافتراضات مشوبة بالخيال إن لم تكن محض خيال . فما يسمى بنظرية bow-wow مثلا يفترض أن اللغة نشأت أولا محاكاة لأصوات سمعت في الطبيعة (نباح كلب حوكي كـ bow-wow وسقوط شجرة حوكي كـ Crash) . أما نظرية Pooh-pooh فتزعم أن اللغة ترجع إلى صرخات دهشة أو صيحات انفعال ، أو غيرها مما يعبر عن التأثر المفاجىء من ألم أو خوف =

على سطح الأرض أي جماعة إنسانية – مهما قل حظها من الحضارة والمدنية – بدون لغة تتفاهم وتتبادل الأفكار بها .

إن الكلام يمكن أن يتم بينما يباشر الإنسان عملا آخر يدويا . ويمكن أن يحدث في الظلام ، ولست في حاجة إلى ضوء لتباشر عملية الحديث مع شخص آخر . ولعل هذا هو السبب الذي حدا بأجدادنا القدماء أن يفضلوا الحديث على غيره من طرق التفاهم ، مثل الإيماءات التي ربما كانت أسبق وجوداً من الكلام ، ومثل التعبير بالصور الذي ربما كان متأخراً في الوجود وأدى إلى اختراع الكتابة .

وحتى عصر قريب جداً كانت اللغة المكتوبة تتمتع بميزتين لا توجدان في اللغة المتكلمة . إنها كانت باقية بينما كانت المنطوقة زائلة . وكان من الممكن نقلها عبر مسافات بعيدة على عكس المنطوقة . أما الآن ، فإن التسجيلات والأشرطة وغيرها من أشكال « الأحاديث المحفوظة » تحقق للغة المنطوقة ميزة الاستمرار والانتقال إلى آماد بعيدة ، حتى إن من العلماء من يتساءل الآن ما إذا كان الوقت لم يحن بعد لأن تختفي لغة الكتابة وتحل محلها لغة الحديث . ولكن ليس هناك حتى الآن أي علامة على احتمال حدوث ذلك قريبا . وإن معرفة القراءة والكتابة لتنتشر الآن بين أبناء الدول المختلفة في نفس الوقت الذي تتضاعف فيه استعمالات اللغة المكتوبة .

أو فرح . وإذا كان هذا يسري على كلمة مثل Ouch فإنه لا يبين لماذا يفضل المتكلمون بلغات أخرى كلمات مثل ay أو au حينما يهاجمهم الألم فجأة . أما نظرية Yo-he-ho فتدعي أن اللغة بدأت كسلسلة من التقبضات العضلية أو الأزيز الداخلي نتيجة إجهاد عضلي (مثل كلمة ey ukhnem المستعملة بين مراكبية الـ Volga . أما نظرية Singsong فتدعي أن الكلام نشأ أولا تمثيلا لتعبيرات سارة بدائية غير لغوية ، كما يحدث من طفل صغير حينما ينطق ببعض ألحان ألفها بنفسه. وهناك نظريات أخرى كثيرة غير ذلك . (ولمزيد من التفصيلات ينصح بالرجوع إلى فصل « نشأة اللغة وطبيعتها » في كتاب « لغات البشر » المؤلف ص ١٧ وما بعدها) « المترجم » .

ولكن الحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني وأوسعها انتشارا . ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب وإيماءات وإشارات . ولهذا فإنه من السائغ للغوي Linguist — على عكس دارس فقه اللغة Philologist — أن يهتم أولاً باللغة المنطوقة ، ثم ثانياً باللغة المكتوبة (باعتبارها — إلى حد كبير أو صغير — تمثيلاً صادقا للغة المنطوقة) ، وأخيرا — وبدرجة ضئيلة إن وجد اهتمام ألبتة — بنظم الاتصال الأخرى .

٣ — خصائص اللغة المتكلمة

إن اللغة المتكلمة لتمتد إلى كل مجالات الحياة البشرية بدون استثناء أو تمييز . كل الناس تتفاهم أساساً عن طريق الأصوات الكلامية ، وهذا يعني أن اللغة جامعة ، بمعنى أنها توجه وتصاحب كل نشاط إنساني يشترك فيه اثنان أو أكثر .

واللغة — لكونها نظاماً من النواقل ذات المعنى وتستلزم اثنين فأكثر (حتى عندما تتكلم إلى نفسك فأنت تجرد من شخصك فردا متكلما وآخر سامعا) — تعتمد على الاصطلاح والاتفاق الجماعي السابق ، بين أعضاء الجماعة اللغوية ، على المعنى أو المعاني المعينة التي تستدعيها أصوات خاصة . وإذا تحدثنا موضوعيا ، فإن اللغة التي لاتفهمها لا تزال لغة في الواقع ، ولكن من وجهة النظر الذاتية (ولأسباب عملية) لا تعتبر لغة وإنما مجموعة من الأصوات العشوائية . فقط حينما يوجد اتفاق على هذه اللغة — بأصواتها وصيغها النحوية ومفرداتها وجملها — كعملة مشتركة قابلة للتداول بين اثنين على الأقل تصبح لغة بالمعنى الذاتي والنفعي لكلمة لغة .

وعلى الرغم من تعدد اللغات وتنوعها ، فكلها تحمل خصائص مشتركة .

أولاها وأهمها أن كل اللغات تتكون من أصوات تصدرها أعضاء النطق الإنسانية . هذه الأصوات – لتصبح ذات معنى – يجب أن توضع في شكل تتابعي محدد معين ، مكونة كلمات أو مجموعة من الكلمات . هذه الكلمات أو مجموعاتها يجب أن تكون محل اتفاق أعضاء المجموعة اللغوية باعتبارها قيماً رمزية تستحضر – ولو على وجه التقريب – في ذهنهم أفكاراً معينة .

وإنه لواضح بدرجة كافية أن القيمة التي يدل عليها الرمز تتم بطريق التحكم والفرض ، وأنه ليس هناك أي رابطة فطرية بين اللفظ ومدلوله . ولو صح الافتراض القائل بوجود علاقة فطرية بينهما لكان حتماً أن يتكلم الناس لغة واحدة .

ولكن الأمر على غير ذلك ، فكلمة dog في الإنجليزية يقابلها chien الفرنسية ، و Perro الأسبانية ، و inu اليابانية . اللغة المتكلمة إذن تعتمد على الاصطلاح والاتفاق الجماعي مهما قل عدد أفراد الجماعة اللغوية . وهذا يضع اللغة حتماً في قائمة الرموز مثل عملة النقد الورقية التي ترمز إلى قيمة شرائية معينة ، وتعتمد في قيمتها على العرف والاتفاق بين أفراد المجتمع ، لا على قيمتها الذاتية .

عملية الكلام – إذن – تتكون من جانبين عضوي ونفسي . وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الاتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها . ولكن سرعان ما تنتقل إلى العملية العضوية عن طريق إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقي لإنتاج الصوت المطلوب .

وفي الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقي الذي يصدر أصواتا متتابعة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية إلى أذن السامع . وأذن السامع بدورها توصل الرمز الصوتي الذي استقبلته إلى العقل ، الذي يعطي هذه الرموز قيمتها ، ويترجم الرسالة – على ضوء ما اختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتي

ومدلوله ، سواء أتفق الفهم تماما مع ما في ذهن المتكلم أم لا .

إن سر العملية الكلامية كلها يكمن في تلك الصلة القائمة في عقول اثنين بين الرمز والمدلول . وما عدا ذلك – من العملية الكلامية – عضوي طبيعي ميكانيكي . أما كيف تم في البداية عقد الارتباط بين الرمز ومدلوله – حتى في أبسط صوره حين تم في عقل إنسان فرد – فإنه ما يزال لغزاً من الألغاز . على الرغم مما سبق أن رأيناه من محاولات كثيرة . وسر آخر ، هو كيف امتد – في القديم – هذا الارتباط من عضو في الجماعة اللغوية إلى آخر . وكيف أصبح ملكاً عاما بين الناس ، وإن كان يمكننا الآن أن نرصد حركة العملية الكلامية .

٤ – امتداد آفاق اللغة

للغة ارتباط وثيق بعلوم الطبيعة ، فإن أصوات لغة الكلام تنتج وتُستقبل عن طريق أجهزة الجسم الإنساني ، وتركيب هذه الأجهزة ووظائفها (أجهزة مثل الرئتين والقصبة الهوائية والفم واللسان والأنف والأذنين . . الخ) جزء من علم وظائف الأعضاء . كذلك فإن انتقال الصوت على شكل موجات صوتية عبر الهواء يدخل في اختصاص علم الطبيعة ، وبخاصة ذلك الفرع المعروف بعلم الصوت . ولكن اللغة – من ناحية أخرى – لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان . وعلم الاجتماع ، باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية ، ووسيلة نقل الثقافة التي تعتبر من وجهة نظر علم الإنسان مجموعة تقاليد الشعب وأوجه استعمالاته للغته . وبالنظر إلى وظيفة اللغة كتعبير عن الفكر ، يمكن اعتبار اللغة جزءاً من علم النفس . كذلك تطرق اللغة كل أبواب النشاط الإنساني المشترك من عقيدة وحرب وسياسة وقانون وترفيه . واللغة – إلى جانب ذلك – تعمل كأداة للفكر الراقي ، فالخطابة والأدب والشعر والفلسفة والعلوم ، كل أولئك لابد أن تُتناول عن طريق اللغة .

ومن أجل هذا فإن علم اللغة يعتبر نوعا من الدراسة التي لايمكن بالضبط أن تعد من علوم الطبيعة ، أو الاجتماع ، أو فرعا من فروع العلوم الإنسانية . إنه يحتل مكاناً ملموساً بين هذه الأقسام الثلاثة للمعرفة الإنسانية . إن اللغـة أداة ذات أهمية بالغة في الحضارة الإنسانية . إنها شيء لا غنى عنه . وأيضا فاللغة ملك مشاع لكل طبقات المجتمع من أعلاها إلى أدناها . ليس كل الناس يكتبون ، وقليل منهم نسبيا من يهتمون بصناعة الأدب ، ولكن كل النـاس يتكلمون .

وهذا كله يجعل علم اللغة « الدراسة المقصودة للغة » موضوعا ذا أهمية كبيرة ، وإن كانت عملية استخدام اللغة نفسها تعتبر أساسيا عملية غير واعية ، وتأخذ في طبيعتها صورة الأفعال اللاإرادية أو المنعكسة منذ اللحظة التي يكتسب فيها الإنسان اللغة ، ويتمكن منها .

٥ ــ مستويات التحليل اللغوي

إن دراسة اللغة ــ على ما جرى عليه العرف ــ سواء كان المنهج وصفيا أو تاريخيا ، تتدرج في أربعة مستويات ، وإن كانت الحدود بينها غير واضحة تماما كما قد نحب أن يكون . هذه المستويات هي :

١ ــ مستوى الأصوات Phonology ، ويدرس أصوات اللغـة ، ويشمل كلا النوعين المعروفين باسم علم الأصوات العام Phonetics وعلم الفونيمات Phonemics . وسوف نحدد المراد بهذين المصطلحين فيما بعد .

٢ ــ مستوى الصرف Morphology ، أو مستوى دراسة الصيغ اللغوية وبخاصة تلك التغييرات التي تعتري صيغ الكلمات فتحدث معنى جديدا ، مثل اللواحق التصريفية inflectional endings « على سبيل المثال S التي تضاف الى cat فتصيرها جمعـا » ، والسوابق Prefixes « مثل re قبل

tell لتعطيها معنى:يخبر مرة ثانية » ، والتغييرات الداخلية internal changes « مثل تغيير حرف العلة في sing إلى sang لإفادة الماضي» .

٣) مستوى النحو Syntax ، الذى يختص بتنظيم الكلمات في جمل أو مجموعات كلامية (مثل نظام الجملة : ضرب موسى عيسى ، التي تفيد عن طريق وضع الكلمات في نظام معين أن موسى هو الضارب وعيسى هو المضروب .)(١)

٤) مستوى المفردات Vocabulary . الذي يختص بدراسة الكلمات المنفردة ، ومعرفة أصولها ، وتطورها التاريخي ، ومعناها الحاضر . وكيفية استعمالها.ويدخل تحت دراسة المفردات فرع يسمى بالاشتقاق Etymology وهو يختص بدراسة تاريخ الكلمات . وفرع آخر يسمى الدلالة Semantics ويختص بدراسة معاني الكلمات . وهناك فرع يسمى المعجم Lexicography وهو فن عمل المعجمات اللغوية ، ويستمد وجوده من علم دراسة تاريخ الكلمات وعلم الدلالة، يضاف إلى ذلك اهتمامه ببيان كيفية نطق الكلمة . ومكان النبر فيها ، وطريقة هجائها ، وكيفية استعمالها في لغة العصر الحديث .

وإن الحدود بين هذه المستويات الأربعة غير واضحة تماماً ومتشابكة . فأصوات اللغة مثلا تتأثر كثيراً بالصيغ ، والعكس كذلك صحيح . والصوت والصيغة كلاهما يتأثران — غالباً — بالمعنى . كذلك يوجد تبادل مطرد بين الصرف والنحو ، كما هو الحال بالنسبة لبعض اللغات حين تستعمل واحداً منهما وتستغني عن الآخر . (٢)

---

(١) المثال الذي ضربه المؤلف هو « John hit George » (المترجم) .

(٢) في اللاتينية والروسية — على سبيل المثال — تعد النهايات الصرفية على درجة كبيرة من الأهمية ويعد علم النحو قليل الأهمية . وفي اللغة الصينية لا وجود لعلم الصرف ، ويقوم علم النحو وحده بوظيفة إعطاء المعنى للجملة أو العبارة .

(وسيأتي تمثيل المؤلف بالجملة الصينية : « هو ضرب أنا » حيث لا يوجد اختلاف في شكل الضمير باختلاف موقعه الاعرابي) . (المترجم) .

ولهذا فإن الصرف والنحو كثيراً مايجمعان تحت اسم واحـــد هو التركيب القواعدي Grammatical Structure .

وإذا نظرنا من زاوية اكتساب اللغة نجد أن أولئك الذين يتعلمون لغتهم الأم يكتسبون النماذج الصوتية وقواعد اللغة الأساسية في وقت مبكر ، وهم من ثم يستعملونها بصورة مشتركة ، مع اختلافات بسيطة ترجع إلى المـــوقع الجغرافي (لهجات محلية) ، وطبقة المتكلم الاجتماعية ، ونوع تعليمه . ولكن نفس الشيء لايمكن أن يقال بالنسبة لمفردات اللغة التي تعكس اختلافات هائلة بين المتكلمين في مجتمع لغوي واحد . إلى جانب ذلك هناك قدر أساسي مشترك من المفردات يستعمله أبناء اللغة الواحدة بوجه عام .

وإن التعلم الطبيعي لعملية اللغة يأتي عن طريق التكرار والمحاكـــاة ، وخصوصاً فيما يمس الأصوات وصور التنغيم وقواعد اللغة الأساسية . وإن دراسة اللغة عن طريق قواعد النحو قد وصفت – ببراعة – بأنها حيلة لاستنقاذ الوقت ، حيث تستغل قدرة الشخص العقلية على التعميم والتجريد ، بدلا من اللجوء إلى التكرار والتقليد اللانهائيين ، كما هو الحال حين يكتسب الشخص لغته الأم في مرحلة الطفولة .

٦ – علم الأصوات – علم الأصوات العام – علم الفونيمات

إن عدد الأصوات التي يمكن لجهاز النطق الإنساني أن ينتجها لم يمكـــن حصرها أو تقديرها على وجه الدقة حتى الآن. وهذا يرجع إلى أن أقل انحراف في المخرج Point of articulation يمكن أن يعطي نتائـــج مختلفة تدركها الأجهزة الحساسة مثل السبكتروجراف أو مسجل تردد الموجات الصوتية ، إن لم تدركها الأذن . وأيضاً فإن كثيراً من الأصوات الإنسانية التي لا تعد أصواتاً كلامية في بعض اللغات تعد – بكل تأكيد – أصواتاً كلامية في بعضها الآخر.

وعلى سبيل المثال فإن الصوت الذي نحدثه حينما نريد إطفاء عود الكبريت ، أو صوت التقبيل ، أو صوت استدعاء فرس أو نحوها — كل أولئك يشكل جزءاً من معدات الأصوات الكلامية في لغات مثل اليابانية أو الهوتنتوتية Hottentot (في جنوب إفريقية) . وقد درج اللغويون على تقسيم أصوات الكلام — في شيء من التحكم — إلى أصوات علة Vowels وأشباه العلة Semivowels وسواكن Consonants [1] ، في أقسام وأوصاف أخرى مثل : انفجاري Plosive ، واحتكاكي Fricative وجانبي Lateral ، وأنفي Nasal ، ومجهور Voiced ، ومهموس Unvoiced ... الخ (انظر المبحث رقم ١٨ : علم الأصوات) .

وقد سبق تعريفنا لعلم الأصوات Phonology بأنه دراسة أصوات اللغة ، ولكن بعض اللغويين يطلقونه ويريدون به دراسة التغيرات والتحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها (ولكن هذه الدراسة للتغيرات التاريخية في الأصوات يمكن أن يطلق عليها كذلك اسم علم الأصوات التاريخي historical phonetics أو diachronic phonetics) . وهناك فريق ثالث يعتبر المصطلحين : phonology و phonetics مترادفين .

وإذا نحن قبلنا تعريف الفونولوجي phonology على أنه الدراسة التاريخية لأصوات اللغة فإن علم الأصوات العام phonetics ينبغي أن يعرّف على أنه العلم الذي يدرس ويحلل ويصنف الأصوات الكلامية من غير إشارة إلى تطورها التاريخي ، وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها وانتقالها واستقبالها . وعلم

---

(١) من آثار فوضى المصطلحات عدم اتفاق اللغويين العرب حتى الآن على مصطلحين محددين يقابلان المصطلحين consonant, vowel . وقد استعملوا في مقابل الأولى الكلمات (ولا أقول المصطلحات حيث لا اصطلاح) علة — لين — صائت — طليق ، كما استعملوا في مقابل الثاني الكلمات : صحيح — ساكن — صامت — حبيس . راجع : الوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي ط سنة ١٩٦٩ ص ١٤٦ . (المترجم) .

الأصوات العام بهذا المعنى الأخير فرع من فروع علم اللغة الوصفي ، وله أقسام عدة (مثل علم الأصوات النطقي articulatory phonetics . والفزيائي أو الأكوستيكي أو السمعي[(١)] acoustic phonetics . والتجريبي experimental phonetics وما بعد الإنتاجي[(٢)] genemmic phonetics والإنتاجي[(٣)] genetic phonetics والوظائفي Physiological phonetics ، وإن كان هناك نوعان فقط منها يمكن معالجتهما هنا .

وإننا في مجال الاصطلاح نختار هنا موقفا وسطا بين موقفين يقيد أحدهما الـ phonology بالدراسة التاريخية للتغيرات الصوتية ، والـ phonetics بوصف الأصوات عند نقطة معينة من الزمن ، أما الآخر فيستعمل المصطلحين مترادفين مع إتباعهما بكلمة التاريخي أو الوصفي على حسب الحالة .

وإن الوحدة الأساسية أو المادة الخام لعلم الأصوات العام phonetics هي الصوت المفرد phone الذي يعرّف بأنه أي صوت لغوي مفرد بسيط يمكن تسجيله بالآلات الحساسة في المعمل . وعلم الأصوات النطقي يقوم أساساً على تحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات الصوتية التي تشكل الصوت . إنــه يعطينا وصفاً موضوعيا لهذه الأصوات وكيفية إنتاجها ، ويصنفها تصنيفاً ضيقا أو واسعا (على سبيل المثال كيف ينتج الصوت p في pit الإنجليزية ، وكيف يختلف ذلك الصوت عن f في fit) . وهذا التصنيف قد تكفلت به الأبجدية الصوتية الدولية International Phonetic Alphabet التي تشتمل ــ من الوجهة النظرية

---

(١) المصطلحان الأولان اختيار الدكتور بشر في كتابه : علم اللغة العام — القسم الثاني : الأصوات ص ١٩ ، والثالث اختيار الدكتور السعران في كتابه : علم اللغة ص ٣٨١ . وقد شرحه بقوله : ما يتعلق بالصوت من حيث انتقال موجاته في الهواء إلى أذن السامع وأثره السمعي . وانظر ماريوباي في كتابه: Glossary of Linguistic Terminology ص٤ ، ٥ حيث أتى بتفسيرين لهذا المصطلح (المترجم) .

(٢) أي دراسة أصوات الكلام بعد إنتاجها . راجع ماريو باي المرجع السابق ص ١٠٢ (المترجم) .

(٣) أي دراسة إنتاج أصوات الكلام . المرجع السابق ص ١٠٣ . (المترجم)

على الأقل – على التنوعات الأساسية الممكنة لأصوات الكلام ، وتصنفها على حسب المخارج الصوتية المستعملة مع كل منها ، والأوضاع التي تتعرض لها هذه المخارج .

ولكن هناك طريقا آخر لتصنيف الأصوات الخاصة بلغة ما ، علاوة على التصنيف الموضوعي الميكانيكي للأصوات الكلامية لكل اللغات . وإن علم الأصوات الأكوستيكي يعالج أصوات الكلام كما تستقبلها اذن السامع ، أما علم الفونيمات فهو علم حديث بالنسبة لعلم الأصوات العام، ووظيفته وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من إحساس المتكلمين باللغة ،واعتبارهم عدداً من الأصوات صوتاً واحدا أو أصواتا متعددة منفصلة ، (على سبيل المثال ماذا يجعل الرجل الإنجليزي يقبل p في pit و spit و sip كصوت واحد على الرغم من اختلافها في السمع ، وماذا يجعله يرفض تطابق الصوتين p في pit و f في fit ؟) هنا يتدخل عامل المعنى . ودعنا الآن نفحص هذه الأمثلة المتقابلة في شيء من الدقة :

موضوعيا ، ومن وجهة نظر علم الأصوات النطقي ، الأصوات الثلاثة المسماة p في pit و spit و sip (الأخير كما ينطق عادة في أمريكا مع قفل نهائيللشفتين في عبارة مثل Take a sip)تعتبر أصواتا ثلاثة متميزة منفصلة يسمى كل منها فونا Phone (على الرغم من أنها متقاربة جدا). ولكن من الصعب أن تقنع الرجل الأمريكي العادي بذلك لسبب واحد ، هو أنها جميعا تمثل على الورق بشكل واحد p . ولكن ما هو أهم من ذلك أن تلك الأصوات الثلاثة لا تقع أبدا بعضها في مكان البعض الآخر . وفوق كل هذا إن أياً من هذه الأصوات الثلاثة لا يعار لموضع يؤدي فيه إلى معنى خاطىء . الصوت القوي نطقا p في pit الذي تتلوه نفخة هوائية مسموعة لا يقع إلا في أول كلمة ، أو مع مجموعة نَفَسية . والصوت الرقيق غير المتلو بدفعة هوائية في spit يقع باستمرار بعد s سواء كانت الـ s في أول الكلمة (وهو الغالب) ، أو في موقع آخر . أما الصوت المكتوم في sip الذي لا تنفتح الشفتان من أجله ، والذي لا يحدث معه

مطلقا أن تنفتح الشفتان ،فيقع عادة في آخر الكلمة أو مجموعة الكلمات . هذه الأصوات اللغوية الثلاثة – من وجهة نظر اللغة الإنجليزية – يقال إنها ذات توزيع تكاملي Complementary distribution . إنها تمثل ثلاثة تنوعات موضعية Positional variants لما يعد في عرف المتكلم الإنجليزي ووعيه شيئاً واحدا . إن الرجل الإنجليزي على الرغم من نطقه لها باستمرار لا يفطن للفرق بينها . ولكن – وهذا دليل قاطع – إذا حدث لأمر ما أن استعمل متكلم أحد الأصوات مكان الآخر (كما إذا كان المتكلم مريضا ونطق pit بقوة أقل من المعدل ، وكان في الحقيقة ناطقا لـ P الموجودة في spit ، أو كان قـوي الانفعال ونطق spit مستعملا الـ p القوية الموجودة في pit) لا سوء فهم ينجم عن ذلك بخلاف ما إذا أحل صوت k مثلاً محل واحد من هذه الأصوات الثلاثـة .

معنى هذا أنه يوجد – في فهم الأمريكي المتكلم بالإنجليزية – P واحدة ، أو كما يقال اصطلاحا « فونيم » واحد هو P بثلاثة أصوات منفصلة ، أو كما يقال في الاصطلاح ثلاثة « فونات » ، ذات مواقع متنوعة . « الفونيم » إذن يمكن أن يعرّف على أنه مجموعة أو تنوع أو ضرب يضم أصواتا وثيقة الصلة (فونات) ينظر إليها المتكلمون على أنها تمثل وحدة واحدة ، بغض النظر عن تنوعاتها الموضعية .

ولكن الصورة قد تتغير تماما إذا نحن حاولنا أن نستعمل p الموجودة في pit وفي spit بالتبادل في لغات أخرى مثل الصينية والهندية . هناك من الممكن أن يقع كل من الصوتين (الفونين) في موقع الآخر أو محيطه ، وقد يتغير معنى الكلمة إذا وضع أحدهما موضع الآخر . وبناء على هذا يمكن أن يقال إن p في spit و pit يمثلان (بالإضافة إلى الصوت المكتوم في sip) فونيماً واحدا في اللغة الإنجليزية وفونيمين في اللغة الصينية [1] . ومن وجهة نظر اللغة الإنجليزية الصوتان

---

(١) في الصينية p'u (المشتملة على الـ p في pit) معناها « متجر » ، ولكن pu (المشتملة على p في spit معناها « جزء » .

(أو الثلاثة) الداخلان تحت P يطلق عليها allophones (ومعناها الحرفي أصوات أخرى ، ومعناها الدقيق أصوات تقع في مواقع أخرى أو محيطات أخرى) أي أصوات ترتبط بالفونيم الأساسي الواحد .

ولنعكس الصورة دعنا نمثل بالكلمتين leave و live اللتين تشتملان على صوتي علة متماثلين ، ومع ذلك يعدان في الإنجليزية فونيمين مختلفين . إن سائر حروف الكلمتين متماثلة ، واختلاف حرفي العلة في كلتا الكلمتين هو السبب في هذا الفرق الجوهري بينهما في المعنى . ولكن المتكلم بالأسبانية من ناحية أخرى قد يستعمل كلا الصوتين بالتبادل في كلمة مثل vivo (أعيش) دون أن يتغير المعنى . الصوت الأول من الممكن أن يقع في الأسبانية حين تلقى الكلمة بمهل وضغط على الحروف ، والثاني حين تلقي الكلمة بسرعة وعدم اكتراث . وعليه ، فإن هذين الصوتين (أو الفونين) المختلفين موضوعياً يشكلان فونيمين مختلفين في الإنجليزية في حين أنهما في الأسبانية تنوعان (ليسا من التنوعات الموضعية وإنما التنوعات الحرة free variants)[1] .

موضوع علم الأصوات إذن هو أصوات اللغة المُدْرَكة (الفونات) التي هي حقائق عامة ويمكن قياسها بدقة بالآلات الميكانيكية . وموضوع علم الفونيمات هو الأصوات أو المجموعات الصوتية المتقاربة التي يدرك علاقتها شعور الجماعة التي تتكلم لغة معينة . والاختبار الموضوعي للفونيمات هو « المغايرة » ، أو الاختلاف في المعنى الذي يظهر أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر ، مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هي . استعمل الصوت P الموجود في pit في الكلمة spit ستجد المعنى هو هو . ولكن استعمل k لتصير الكلمة kit تجد المعنى قد تغير . ولهذا فالتنوعان الصوتيان لـ p يعدان في اللغة الإنجليزية فونيما واحدا ، ولكن p و k يعدان فيها فونيمين مختلفين .

---

(١) انظر المبحث رقم ٢٠ في القسم الثاني من هذا الكتاب .

٧ – الكتابة الصوتية والكتابة الفونيمية

حيث إن المادة اللغوية تظهر غالبا في شكل مكتوب ، وجد اللغويون أن من الأفضل استعمال طريقتين كتابيتين لتمثيل أصوات اللغة بشكل يخلصهم من العيوب والتناقضات الموجودة في طرق الكتابة الاصطلاحية . أحد النظامين الهجائيين صوتي ، ويستعمل الأبجدية الصوتية الدولية International phonetic alphabet التي توضع رموزها بين قوسين معقوفين هكذا [ ] ، وتعتبر – من الناحية النظرية على الأقل – ممثلة لأصوات الكلام الموضوعية . إنها يمكن أن تستعمل في كتابة أي لغة من اللغات ، وإن كانت بعض رموزها – بدون شك – تستعمل في كتابة بعض اللغات دون بعضها الآخر .

أما الأبجدية الثانية ففونيمية ، وهي – في جزئها الأكبر – تستعمل الأبجدية الاصطلاحية الرومانية ، وأحيانا تستعمل الأبجدية الصوتية الدولية حين يكون ذلك مطلوبا . والرموز الفونيمية توضع عادة بين خطين مائلين هكذا / / ،وكل لغة تفضل نظامها الكتابي الخاص الذي قد لا يصلح للغة أخرى .

ولنوضح الفرق بين الأبجديتين دعنا نأخذ مثالا من الفرنسية المنطوقة . في تلك اللغة يوجد تفريق واضح في كيفية النطق (مقدار الانفتاح) بين صوت العلة الذي يمثل في الهجاء الفرنسي بـ è ،وذلك الصوت الممثل بـ é . الكتابة الصوتية – بناء على الحقيقة الموضوعية لكلا الصوتين – تستعمل لهما رمزين مختلفين هما على التوالي[ɛ] و [e]ولكن الكتابة الفونيمية المؤسسة على أن كلا الصوتين يقع في اللغة الفرنسية في مواقع يكمل بعضها بعضا مثل (p في pit و spit ولا يقع أي منهما موقع الآخر ، وإنما يقعان في موقعين أو محيطين مختلفين) قد تمثلهما برمز واحد هو /e/ .القاعدة أن[ɛ]تقع عادة حينما يليها في نفس المقطع صوت ساكن consonant ، و[e] عندما يقع الصوت في آخر المقطع ، وإن كان لا يزال هناك شيء من الجدل حول هذه النقطة بين علماء الأصوات الفرنسيين . وعلى هذا فكلمتا mère و parlé تظهران في الكتابة الصوتية هكذا

على التوالي : [ˈmɛr] و[parˈle]، ولكن في الكتابة الفونيمية هكذا :

/ mer / و / parle / . وكذا الحال بالنسبة للكلمتين الإنجليزيتين pit و spit حيث تكتبان صوتيا [pʼit] و [spit] ، ولكنهما تستغنيان فونيميا عن الرمز الزائد وتكتبان / pit / و / spit / . ولكن ينبغي أن يكون معروفاً سلفاً أن الصوتين يقعان في توزيع تكاملي غير متضاد ، وتكون أسس ذلك التوزيع واضحة للكاتب والقارىء جميعا .

وإن الكتابة الفونيمية أكثر اقتصادا للوقت وعدد الرموز ، ولكنها من ناحية أخرى تختص بلغة واحدة ، وتقتضي معرفة كاملة بالتركيب الفونيمي لتلك اللغة . أما الكتابة الصوتية فأكثر تعقيدا ، ولكنها أدق ، وذات تطبيق عالمي .

٨ ــ التركيب القواعدي : صرف ونحو

الكلمة قواعد grammar اصطلاح تقليدي يستعمل ليشمل ما يمكن أن يوصف بأنه قوانين المرور ، أو نظام السلوك للغة . ومن الناحية الاشتقاقية ترجع الكلمة grammar إلى أصل يوناني قديم يدل على معنى الكتابة . وحيث إن الكتابة عند اللغوي مظهر ثانوي للغة ، والكلام مظهر أساسي ــ يفضل بعض اللغويين المحدثين استعمال كلمة « التركيب » structure التي يدل اشتقاقها التاريخي على طريقة بناء الشيء وإقامته .

وبينما يعد من المسلمات أن كل اللغات ــ بدون استثناء ــ تتكون أساساً من أصوات لغوية ، وأن هذه الأصوات ــ في معظم اللغات ــ تتجمع في شكل كلمات (في بعض اللغات من الصعب التفريق بين الكلمة والمجموعة الكلامية أو الجملة) ، فإنه من النادر جدا أن تجد الكلمات منفصلة في الاستعمال اللغوي . فمن ناحية تتجمع الكلمات عادة في شكل مجموعات ، وحينئذ فطريقة تنظيم هذه الكلمات تصبح مهمة ، وربما متحكمة في المعنى كله (ضرب موسى

عيسى ، وضرب عيسى موسى[1] على سبيل المثال يختلف معناهما إلى حد كبير على الرغم من اتحاد الكلمات الثلاث المستعملة) ، ومن ناحية أخرى غالبا ما تتعرض الكلمات نفسها لتغييرات معينة في الصيغة تؤدي إلى تغيير في المعنى (أرى الكلب — رأيت الكلب) فالتغييرات الحادثة هنا داخل الكلمات نفسها تشكل موضوع علم الصرف morphology الذي يختص بدراسة الصيغ . وتنظيم الكلمات في نسق معين يشكل موضوع علم النحو syntax . وإن الصرف والنحو ليكوّنان ما يسمى بعلم القواعد grammar أو التركيب structure ، أو قوانين المرور التي لا يمكن أن تنتهك تجنباً للوقوع في ورطة تعوق تيار المعاني المتدفق الذي يربط متكلما بآخر ، وتوقف التفاهم الذي هو الهدف الأساسي أو الوحيد للغــة .

والموضوع الأساسي ، أو موضوع الدراسة في علم الصرف هو دور السوابق واللواحق والتغييرات الداخلية التي تؤدي إلى تغيير المعنى الأساسي للكلمة (مثل tell و retell و foretell ، ومثل dog و dog's و dogs ، ومثل walk و walked و walking ، ومثل see و saw و seen ، ومثل write و wrote و written) .

وإن علم اللغة الوصفي الحديث ليفضل مصطلح « مورفيم morpheme » على المصطلحات التقليدية مثل النهايات التصريفية ، والجذر ، والأصل . ويعرّف المورفيم على أنه أصغر وحدة ذات معنى . فبينما النحو التقليدي قد يصف dogs أنها تشتمل على أصل هو dog ونهاية تصريفية تفيد الجمع هي s ، يصف علم اللغة التركيبي الحديث dog و s كليهما على أنهما مورفيمان ، أو وحدتان ذواتا معنى ، تحمل إحداهما المعنى الأساسي للكلمة ، وتحمل الثانية فكــرة الجمعية الإضافية . وعلى كل حال فالتفرقة بين اللفظين ربما تم عن طريق تسمية

---

(١) أمثلة المؤلف هي John hit George و George hit John (المترجم)

الأول باسم المورفيم الحر free morpheme (أي الذي يمكن أن يستعمل بمفرده) والثاني (S) باسم المورفيم المتصل bound morpheme (أي الذي لا يستعمل منفردا ، وإنما متصلاً بمورفيم آخر) .

أما علم النحو syntax الذي هو تنظيم الكلمات في شكل مجموعات أو جمل ، فقد يتسع مدلوله في بعض الأحيان على أيدي النحاة التقليديين ليشمل سمات وخصائص تتعلق بالأسلوب الأدبي ، وليس لها في الواقع أي اتصال ، أو لها اتصال بسيط بالنماذج الأساسية للغة المتكلمة . وفي لغات معينة (الصينية على سبيل المثال) يحتل علم النحو مكاناً هاماً نظراً لعدم وجود علم الصرف . وفي لغات أخرى (مثل اللاتينية) يلعب النحو دورا ثانويا بسيطا ، حيث إن المعدات الصرفية ، المتمثلة في النهايات التصريفية توجه اهتماما إلى معظم المشاكل المتعلقة بالتغيرات التي تؤثر في المعنى . وفي معظم اللغات الغربية الحديثة يوجد مزيج من كلا الفرعين ، وهو مزيج غير محتاج إليه في بعض الأحيان . وفي الجملة الإنجليزية John hit George ، إنه فقط النظام النحوي الذي يدل السامع على الضارب وعلى المضروب.وفي He hit me نجد دليلين اثنين؛« He »لم تأت فقط في موقع محجوز دائما للفاعل ، بل أيضا تدل بصيغتها (He وليس him) على الفاعلية . وفي نفس الوقت« me »جاءت في الوضع المعتاد المخصص للمفعول، ودلت على المفعولية كذلك بصيغتها(me وليست I). وإذا أدخلنا في الاعتبار لغات أخرى ، وأردنا المقارنة نجد أنه في الصينية ليس من الممكن إلا أن نقول (He hit I) بدون تغيير الضمير لاختلاف محله ، وحينئذ فموقعية الضمير وحدها هي التي تبين الفاعل من المفعول . وعلى خلاف ذلك نجد اللاتينية تستعمل تتابعا في الجملة مثل هذا (Me hit he) وحتى (Hit he me) أو (Hit me he) ، وكذلك في حالات تغيير الضمائر إلى أسماء ظاهرة اعتمادا على ما تحتويه الأسماء من نهايات معينة تشير إلى الفاعل والمفعول [1] .

---

(١) من الممكن التمثيل كذلك باللغة العربية التي يمكن فيها تقديم المفعول على الفعل أو الفاعل ، سواء كان المفعول ضميرا أو اسما ظاهرا . (المترجم)

٩ — المفردات : علما الدلالة وتاريخ الكلمات

ينكر بعض اللغويين أن تكون اللغة تكتسب في شكل كلمات مفردة ، أو أن يكون المتكلم على وعي بالكلمات مفردة حين يتكلم . إن هؤلاء يفضلون أن يتحدثوا عن العملية اللغوية على أنها تبنى على جمل أو مجموعات كلامية . وهناك شك حول صدق هذه النظرية . وعلى أي حال ، وسواء كانت صحيحة أو لا ، فإن الكلمة المفردة قد قبلها علماء اللغة على أنها موضوع من الموضوعات الرئيسية لعلم اللغة ، وعلى أنها محل اهتمام ما يعرف بعلم المفردات vocabulary .

وكما يتضح من معاجمنا الضخمة ، فإن أهم المشاكل المرتبطة بالمفردات هي ما يتصل بالدلالة المفردة لكل كلمة semantics ، وتاريخ الكلمات وتطورها etymology . وكلا الموضوعين، وخصوصا ثانيهما يمثل مكانة هامة لدى عالم اللغة التاريخي لا الوصفي . وعلى كل حال فإنه من الممكن تماما دراسة الدلالة بطريقة وصفية محضة تركز على المعنى أو المعاني التي تدل عليها الكلمة اليوم (أو عند أي لحظة زمنية معينة) من غير إشارة الى كيفية اكتساب الكلمة لمعناها هذا بمرور الوقت .

١٠ — تصنيف اللغات

حتى الآن ، ناقشنا موضوعات تمس اللغة بوجه عام ، وتتعلق باللغات جميعها قديمها وحديثها ، وهذه المناقشة قد خصصت لموضوعات من علم اللغة العام أو الوصفي أو التركيبي . ولكن حينما نأتي لتصنيف اللغات نكتشف أن هناك طريقتين رئيسيتين للتصنيف، هما : القرابة اللغوية أو الرجوع الى الأصل ، والطريقة التشكيلية أو التصنيف على أساس وسائل بناء الكلمات وتوليدها . أما الطريقة الأولى فتعتمد في معظمها تاريخية ، وأما الثانية فوصفية . وهناك طريقة ثالثة غير علمية تعتمد على المعيار الجغرافي (اللغات الأوربية — اللغات الإفريقية

الخ ...) . وهذه الطريقة ما تزال مستعملة في المجالات التي يصعب فيها تطبيق أحد المنهجين السابقين ، حينما تكون معلوماتنا (أو حينما كانت حتى عهد قريب جداً) غير كافية . ولهذا فنحن ما نزال نتكلم عن اللغات الأسترالية الوطنية أو غيرها ، واضعين تحت المنطقة الجغرافية ما قد يمكن تصنيفه إلى أنواع متعددة لو طبقنا أحد المنهجين الأولين . والتصنيف الجغرافي — على أي الحالات — ربما يكون جديراً بالاستعمال لأغراض لغوية جغرافية .

أما التصنيف على أساس القرابات اللغوية genetic classification ، فيتطلب ولا شك دراسة تاريخية لربط اللغات بأصل معروف أو تخميني . اللغات الرومانسية مثلا مصطلح يستعمل ليغطي كل اللغات التي ترجع إلى أصل لاتيني . ولكن اللاتينية نفسها تعتبر عضواً في عائلة أكبر تسمى اللغات الهندية الأوربية . وإن التقسيمات الواسعة إلى عائلات لغوية كبيرة مثل الهندية الأوربية ، والحامية السامية ، والطورانية لتتضمن لغات يبدو رجوعها في القديم إلى أصل واحد ، فهي لذلك — رغم بعد ذلك الأصل وعدم توافر وسائل الإثبات أحيانا — تقسيمات واضحة إلى حد كبير ، أو على الأقل محتملة الصحة .

وأما التصنيف التشكيلي typological classification — الذي ربما يكون أو لا يكون قد بني على عوامل تاريخية — فيهتم أولاً بالتركيب الحديث للغة ، ولذا فهو في جزئه الأعظم وصفي . أما الأنواع العامة للغات فهي كما يلي :

١ — اللغات التصريفية Inflectional ، وهي التي تدل على العلاقات النحوية عن طريق السوابق واللواحق والتغيرات الداخلية في بنية الكلمة . وإذا استعملنا مصطلحات أكثر تحديداً ، نقول عن طريق الجمع بين مورفيمات حرة ومتصلة . على سبيل المثال : الكلمات الإنجليزية walk و walk-s و walk-ing وفي لغات مثل اللاتينية أو الروسية يقل بشكل ملحوظ عدد المورفيمات الحرة ، حيث إن الأسماء والصفات والأفعال لا يمكن — بوجه عام —

استعمالها في صيغتها الأصلية ، وإنما متبوعة بلاحقة معينة . (الجذر اللاتيني mūr بمعنى حائط ، لا يمكن أن يستعمل بنفسه ، ولكن في صيغ تركيبية مثل mūrus و mūrō و mūrīs) .

٢ — اللغات اللاصقة agglutinative التي تضيف لواحق منفصلة تختلف عن النهايات التصريفية في أنها من الممكن أن تتمتع باستقلالها وانفصالها في بعض المواقف كمورفيم حر ، وذلك مثل العبارة المجرية hā z-ak-ban « haz معناها منزل ، و ak علامة الجمع و ban بمعنى في)التي معناها« في المنازل » : ولكن الحدود بين هذا النوع والنوع السابق ليست واضحة المعالم دائما .

٣ — اللغات المُفْرِدة isolating وهي التي تستعمل فقط المورفيمات الحرة وتدل على العلاقات النحوية بنظام الجملة المعين . ومثال ذلك الكلمة الصينية wō التي تحتمل — بناء على موقعها في الجملة — أن تعني ضمير المتكلم في حالاته الإعرابية المختلفة (I — me — my — to me) .

٤ — اللغات المركّبة polysynthetic (أو incorporating) ، وهي التي تركب أعدادا من المورفيمات المتصلة في شكل عبارة واحدة ، بحيث تكون الوحدة هي المجموعة الكلامية أو الجملة لا الكلمة . ومثال ذلك :

العبارة : s — zak — i — al — nagla — g التي تعني : أنا أبحث عن قرية. فالرمز «g» معناه «أنا» و «nagla» تفيد معنى «مقيم» و «al» أداة تعطي «nagla» صفة الاسمية ليصبح معناها معها « قرية » . أما «i» فهي سابقة فعلية تدل على أن «zak» فعل . أما «zak» فمعناها « أبحث عن » و «s» تدل على الاستمرار . ولا أحد من هذه الوحدات يمكن أن يعطي معنى محددا لو استعمل بمفرده .

وإن اللغات التي ينظر إليها باعتبارها تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة لتعيد توزيع نفسها إذا صنفت بالطريقة التشكيلية . فداخل اللغات التي تنتمي إلى العائلة

الهندية الأوربية ، والتي كانت في أصلها تصريفية إلى حد كبير ، نجد اللغتين الإنجليزية والأفريكانية تميلان إلى نوع اللغات المُفْرِدة نظرا لتوسعهما في إسقاط اللواحق ، واستعمالها للأصول المجردة — ذات المقطع الواحد غالبا — التي يدل على معناها عادة بنظام الجملة . وإلى جانب ذلك نجد في نفس العائلة ، اللغة الهندية التي تقرب من نوع اللغات اللاصقة ، تاركة نظام النهايات التصريفية الموجود في اللغة السنسكريتية.ونجد الفرنسية ، في بعض صيغها المتكلمة ، تميل إلى نوع اللغات المركَّبة .

أما توزيع اللغات ودراسة جغرافيتها فموضوع — في عمومه — وصفي ، حيث يعالج الجانب الجغرافي للغة . ولكنه مع ذلك يمكن أن يحوي ملامح تاريخية ، إذا ما أخذ في الاعتبار مقارنة امتداد اللغة وأهميتها في لحظة معينة من الزمن بها في لحظة متقدمة . ولقد كانت أمريكا الشمالية — على سبيل المثال — مغطاة تماما بلغات أمريكية هندية ولغات الإسكيمو خلال القرن الرابع عشر ، ولكنها الآن مغطاة بالإنجليزية والأسبانية والفرنسية ، إلى جانب اللغات الأصلية المحصورة بين بعض الأقليات والمجموعات المحلية المنعزلة .

١١ — علم اللغة المقارن — إعادة التركيب اللغوي

كان علم اللغة المقارن comparative linguistics بمفهوم القرن التاسع عشر يعني تماما علم اللغة التاريخي . إنه يحوي أساساً منهجاً للبحث بواسطته توضع مجموعة من اللغات — عادة في أشكالها المؤكدة القديمة — بعضها بجانب بعض بقصد الوصول إلى الروابط والعلاقات بينها . وبالوصول إلى ذلك يمكن فرض صورة اللغة الأم التي تفرعت منها هذه اللغات ، والتي لم تصلنا مادتها فعلا . والفضل كل الفضل يرجع إلى هذا المنهج الناجح في تقسيم اللغات إلى عائلات . إن المقارنة بين صيغ لغات قديمة مثل السنسكريتية واليونانية القديمة واللاتينية والأيرلندية القديمة والسلافية القديمة والقوطية — تؤكد بشيء لا يقبل الجدل أن

كل هذه اللغات قد انشعبت عن لغة واحدة غير مكتوبة امتدت فروعها من شمالي الهند إلى أيسلندة ، وشملت معظم أوربا وأقساما كبيرة من جنوب غربي آسيا . وقد أدى هذا إلى اختيار اسم اللغات الهندية الأوربية لهذه العائلة . وقد مكن هذا المنهج المقارن اللغويين — من جهة — من إعادة خلق تلك اللغة الأم ، على الأقل على سبيل المحاولة ، كما مكنهم — من جهة أخرى — من أن يقرروا مع شيء من الثقة أن اللغات الحديثة مثل الإنجليزية والألمانية والإسكندنافية والرومانسية والسلافية وكذلك اللتوانية واليونانية والألبانية والأرمينية والفارسية ومعظم اللغات الموجودة الآن في شمالي الهند وباكستان — كل أولئك ترجع إلى لغة أم واحدة .

ومقارنة اللغات — على كل حال — يمكن القيام بها الآن بطريقة وصفية بالنسبة للغات العالم الحديثة بقصد الوصول إلى مواطن الاتفاق والاختلاف في نماذجها الصوتية وتراكيبها النحوية ورصيدها اللغوي من المفردات . ولعله من الحق أن يقال إن علم اللغة المقارن في صورته المبسطة يدخل في دراسة كل اللغات الأجنبية وتدريسها ، ما لم تتجنب هذه المقارنة بطريقة مباشرة عمدية ، من غير أن يؤخذ في الاعتبار لغة المتكلم نفسه ، أو يشار إليها ألبتة . (وحتى هنا فمن المستحيل أن تمنع المتعلم من عقد هذه المقارنة في عقله بين صيغ اللغة التي يتكلمها ويعرفها ، وما يقابلها في اللغة التي يريد اكتسابها وتعلمها).

وإن منهج البحث التاريخي المقارن ربما امتزج بالمنهج الوصفي حين يأخذ الدارس لغة ما في فترتين زمنيتين معالجاً كلا منهما أولا معالجة وصفية (وذلك باستخلاص النماذج الصوتية والتراكيب النحوية والرصيد اللغوي لكل مرحلة من مراحل اللغة) ، وأخيراً يقارن الاثنتين ليصل من ذلك إلى التغيرات التي طرأت على الظواهر التي يهتم بدراستها .

١٢ — الكتابة

إن الصورة المكتوبة للغة ، التي كانت ، ولا تزال ، وستظل ذات أهمية ضخمة للجنس البشري في نقل المعاني من مكان إلى مكان عبر السنين (على الرغم من تضاؤل قيمتها نسبيا أمام وسائل القرن العشرين المختلفة في تسجيل أصوات الكلام المنطوق) — لتعد من وجهة نظر علم اللغة مفيدة ومضرة في وقت واحد .

إنها مفيدة بمقدار ما أمدتنا به من مادة لتلك اللغات التي اختفت من عالم الوجود ، وهي مضرة لأنها ليست دائما أمينة في إعطاء الصورة المنطوقة كما هي ، بل ربما كانت خادعة ومضللة . وليس هناك مثال في هذا المقام أدل على التعبير عما نعنيه من طريقة الهجاء الحديثة للغة الإنجليزية التي تعطي صورة جزئية ، وكثيرا ما تكون مضللة ، لطريقة النطق اليوم .

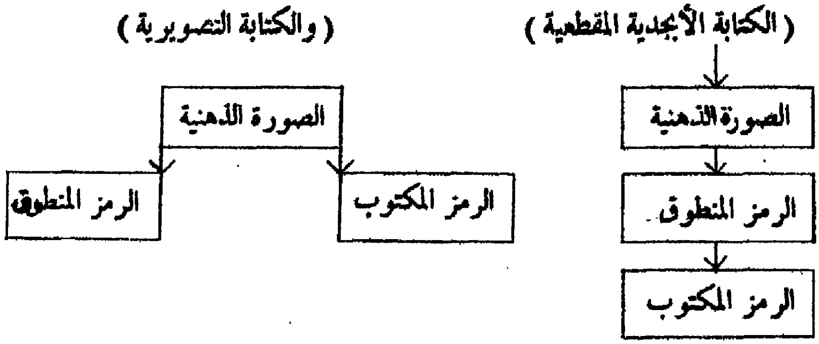
وللكتابة طريقتان رئيسيتان : الطريقة التي تعبر عن الفكرة بصورة أو رمز وتسمى pictographic-ideographic أو logographic (وذلك مثل اللغة الصينية) حيث لا توجد أي رابطة بين الأصوات المنطوقة والرموز المكتوبة ، لأن تلك الرموز تشير مباشرة إلى الصورة الذهنية [١] ، أما الطريقة الثانية فتعرف بالطريقة الأبجدية المقطعية Syllabic — alphabetic حيث تمثل الرموز المكتوبة أصوات اللغة المنطوقة . فكأن تلك الرموز يعد كل منها رمزا لرمز . (اللغة المتكلمة نفسها تعد سلسلة من الرموز التحكمية لصور ذهنية [٢]) .

---

(١) في اللغة الصينية ، الكلمة المنطوقة لتدل على الفرس ، تعبر عنها كتابيا برمز كان أصلا صورة حقيقية للفرس . وهذا يسمى pictogram والكلمة التي تدل على الشرق يعبر عنها كتابيا بواسطة صورة الشمس تشرق فوق شجرة . وهذا يسمى ideogram .

(٢) في نظام الكتابة للغة الأمهرية الحبشية يمثل كل رمز تركيبا مقطعيا يتكون عادة من ساكن + علة (مثل يا ، يي ، يو) . وهذا يعرف باسم الكتابة المقطعية Syllabic script أما النظام الأبجدي الصوتي ، فكل رمز فيه يمثل صوتا مفردا (في الإنجليزية مثلا ba = a + b و to = o + t) .

وهذا رسم يبين طريقتي الكتابة الرئيسيتين :



والحقيقة القائلة إن اللغة المتكلمة عرضة للتطور بسرعة في حين أن المكتوبة تميل إلى الجمود والتمسك بالتقاليد — تفسد العلاقة المثالية بين الرموز الكتابية والأصوات المنطوقة . وهذا يعني أننا في دراستنا اللغوية — سواء كانت وصفية أو تاريخية — يجب أن نأخذ الحيطة في قبول اللغة المكتوبة — انخداعا بقيمتها الظاهرية — على أنها أشرف وأرقى من اللغة المنطوقة . إن الثقة في النصوص المكتوبة يجب أن تقرر دائما في حذر ، وليس معنى هذا أنها يجب أن تستبعد أو تطرح جانبا من ميدان دراستنا ، فهذا غير مقبول وبخاصة في الدراسة التاريخية ، حيث لا يوجد لدينا من المادة الموثوق بها سوى هذه النصوص المكتوبة رغم نقصها . ولكن في مجال علم اللغة الوصفي أو التزامني فإن وجود متكلمين باللغة على قيد الحياة ، وسهولة تسجيل كلامهم قد قلل من الاعتماد على النصوص المكتوبة .

ولكن يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الصيغة المكتوبة للغة — وخصوصا إذا كانت اللغة واسعة الانتشار — تقوم بدور هام في تعطيل تيار التغير الذي يلحق لغة الكلام بسرعة . إن لغة الكلام إذا تركت وشأنها تكون عرضة لتغيرات طبيعية فطرية تبعدها عن المركز تعبر عن نفسها بسرعة خلال الزمن وتظهر في شكل

لهجات عبر الزمان [1] . وكلا العاملين (التطور الفطري والانقسام إلى لهجات) يعوق تحقق الغاية العملية للغات وهي الاتصال . وإن الصيغة المكتوبة بفرضها مستوى معيناً من الصواب — مهما كان تعسفياً — تعطل حركة هذين العاملين وتعوق فعاليتهما . إنها تحرك قوى مركزية جاذبة — ولو صناعية — تعادل القوى المركزية الطاردة الموجودة في اللغة . اللغة المكتوبة إذن تساعد على تحسين وسائل الاتصال — حتى في مجالات التفاهم الشفوي — بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة . إن فائدتها — على الأقل — تتمثل في إضفاء روح اللغة الأدبية المشتركة — التي تتمتع باهتمام الدارسين — على اللغة المتكلمة ليسهل التفاهم بها ، وإلا فإنه من المشكوك فيه أن يتمكن رجلان فرنسيان أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب من أن يتفاهما بسهولة . وفي الصين حيث تعد لغتها المكتوبة معقدة ، تنقطع الصلة بينها وبين لغة الكلام بشكل عاق تفاهم الصينيين من ذوي اللهجات المختلفة بعضهم مع بعض .

وإنه من المحتمل — في المستقبل القريب — أن يزيد نفوذ الاتجاه المحافظ المعياري الذي تمثله الصورة المكتوبة للغة ، والذي أخذ في الظهور منذ عهد قريب عن طريق الوسائل الفعالة المنتشرة للاتصال الشفوي ؛ مثل أجهزة الراديو والتليفزيون والأفلام الناطقة . ولهذا فإنه في معظم البلاد المتحضرة قد ظهرت للغة الكلام صورة أدبية إلى حد ما ، أو هي في طريق الظهور .

---

(١) اللغة اللاتينية التي كانت تتكلم أصلا في « روما » والأماكن المتاخمة لها تغيرت على أرض وطنها وتحولت أخيرا إلى لهجة روما الحديثة الإيطالية . وكذلك بعد انتشارها في معظم أجزاء الجنوب الغربي الأوربي انقسمت إلى الغالية والأيبيرية وغير ذلك من لهجات لاتينية عامية . هذه اللهجات تطورت فيما بعد وصارت لغات فرنسية وأسبانية وبرتغالية .. إلخ وهذه بدورها انقسمت إلى لهجات مختلفة . وإن إنجليزية القرن السابع عشر بلهجاتها المتعددة لم تتطور فقط إلى لهجات القرن العشرين المختلفة على أرضها وحدها ، وإنما أفسحت الطريق كذلك لأشكال من الإنجليزية الأمريكية انقسمت بدورها إلى لهجات إقليمية .

١٣ — توزيع اللغات وعلم اللغة الجغرافي

من أهم الدراسات التطبيقية العملية لعلم اللغة معرفة اللغات الإنسانية — ولو الرئيسي منها — وتوزيعها على أجزاء الكرة الأرضية ، والعلم بعدد المتكلمين بكل منها ، ونوع من يتكلمون بها ، وفي أي نمط من الحياة يمكن أن تستعمل ، وكيف — إذا تيسر ذلك — يمكن أن تتراجع لغة أمام لغات أخرى ، وبخاصة ما كان منها مشهورا . ووراء هذه المعلومات ذات الطابع العام — التي تجمع بين الدراسة الجغرافية واللغوية — يكمن السؤال الخاص بالتعرف اللغوي language identification ، وهذا يتطلب معرفة أولية بأشكال اللغات في صورتها المكتوبة ، وكذلك بمعالمها الصوتية الأساسية في صورتها المتكلمة ، حتى يمكن تمييز كل منها عن الأخرى بواسطة التعرف المسبق .

وإن معلومات تفصيلية — إلى حد ما — من هذا النوع تمثل جزءا من أسلحة المتخصصين اللغويين وخبراتهم . وعلاوة على ذلك فإن الحقائق المؤكدة الخاصة بتوزيع اللغات في العالم والأهمية النسبية للغات الرئيسية منها ، يجب ، بل ويمكن أن يجعل معروفا لكل الأفراد المثقفين أو المتعلمين حتى من لم يتخصص منهم في الدراسات اللغوية . وهذا القدر من المعلومات ، الذي يعد ذا أهمية عملية كبيرة لغير المتخصصين ، أكثر من أهميته للغويين الوصفيين أو التاريخيين ، يمكن أن ترد أبحاثه — ولو من الناحية الظاهرية على الأقل — إلى كلا النظامين الرئيسيين في الدراسة اللغوية (النظام الوصفي والنظام التاريخي) . علم اللغة الوصفي يهتم أساسا بالحقائق التركيبية المشتركة في مجموع اللغة أو اللغات . وفي إيضاحه للأسس اللغوية العامة ينزل في بعض الأحيان — وبقصد التمثيل — إلى اللغة المفردة . وحينما يصف لغة ما بشيء من التفصيل ، يعزل هذه اللغة عادة ليتمكن من التركيز على بعض الحقائق الخاصة بها ، ووضعها جنبا إلى جنب مع الأسس العامة للغة . أما الدراسة اللغوية التاريخية فتركز — من الناحية الأخرى — على تطور اللغة أو اللغات عبر السنين ، والصور العادية المقارنة التي تلجأ إليها ، تأخذ

شكل دراسة لمرحلتين أو أكثر من مراحل لغة واحدة ، أو لغتين كانتا في الأصل لغة واحدة ، ولا توجه اهتماما كبيرا لمقارنة لغات حديثة في صورتها الحالية .

وعلم اللغة الجغرافي Geolinguistics يغطي — بشيء من التفصيل — الوضع الحالي للغات العالم ، عاقدا المقارنة بينها على ضوء العوامل الموضوعية الحديثة مثل عدد المتكلمين ، والتوزيع الجغرافي ، واحتمالات الاستفادة منها ، وأهميتها التجارية والعلمية والسياسية والاستراتيجية والثقافية في إطار عالمنا الذي نعيش فيــه .

ومن بين أبحاثه دراسة عوامل مثل : اللغات المحلية area languages ومجالات النفوذ اللغوي ، واللغات الوطنية indigenous ، والاستعمارية colonial أو superimposed ، مع تتبع نفوذ الأخيرة على الأولى حتى بعد زوال الاستعمار . وكذلك دراسة موضوع اللغات الأولية primary والثانوية Secondary في منطقة معينة ، وما يترتب على ذلك من ثنائية اللغة bilingualism ، أو تعددها multilingualism . ويعطي اهتماما أيضا لموضوع إحلال لغة محل أخرى substitution ، وموضوع اللغات الناشئة عن الهجرة أو التجنس . ومن مباحثه كذلك موضوع انتشار اللغات التي تكونت بطريق الانتخاب المتعمد من مجموعة من اللهجات الإقليمية ثم حلت محلها koines ، وغير ذلك من اللغات ذات العلاقات المشتركة مع غيرها (مثل تلك اللغات التي توضع للتفاهم بين الأقاليم المتجاورة بنحو مبسط وكلمات مختلطة pidgins أو تلك اللغات التي تتولد عن لغة وتتميز ببساطة تركيبها creoles . أو تلك اللغة التي يتعمد تغييرها من ناحية الهجاء أو النطق أو القواعد النحوية بقصد تيسيرها على المتعلمين modified language . كذلك يعطي اهتماما للمركز الاجتماعي أو التربوي (لغة رسمية official language ، لغة وطنية national language ، لغة أدبية literary language لهجـــة dialect ، لهجة شائعة بين أفراد الطبقة الدنيا في المجتمع patois ، لغة طبقية class language ، مجموعة من الكلمات أو التعبيرات أو المصطلحات

الخاصة بمهنة أو جماعة معينة jargon ، لهجة عامية slang) . ويهتم إلى جانب هذا كله بمعامل معرفة القراءة والكتابة literacy coefficient ، الذي يوضح مجالات اللغة المكتوبة ، وبالمعاملين الوطني nationalistic coefficient والديني liturgical اللذين يؤثران في حياة لغة ما ، ومدى فاعليتها . وأخيرا يعطي اهتماما لمشكلة التعايش السلمي بين لغتين (أو أكثر) في مكان واحد ، symbiosis أو احتكاكهما وتبادل التأثير والتأثر بينهما (لإيضاح بعض هذه المصطلحات ارجع إلى المبحث رقم ٣٧ المعنون : وظيفة علم اللغة الجغرافي) .

١٤ ــ الموقع وعدد المتكلمين وتوزيع اللغات في الوقت الحاضر

يوجد في العالم الآن نحو ثلاثة آلاف لغة متكلمة ، بخلاف اللهجات ، وكل لغة من هذه اللغات لها جمهورها الخاص من المتكلمين الذين يتفاهمون بها ، ويتخذونها وسيلتهم العادية لاتصالاتهم الشفوية . وتعد كل لغة من هذه اللغات صاحبة السيادة في منطقتها الخاصة ، ولا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار .

وهناك تفاوت كبير بين هذه اللغات ، سواء في عدد المتكلمين أو في المساحات التي تسود فيها . فمعظم هذه الآلاف الثلاثة من اللغات يتكلم بها قلة قليلة من الناس يتراوحون ما بين بضع مئات إلى ما دون المليون . وتتراوح مناطق اللغات من قرية منعزلة إلى عدة مئات من الأميال المربعة .

أما عدد لغات العالم التي تملك جمهورا يبلغ المليون فصاعدا فلا تتجاوز المائة بكثير وحتى من بين هذه المائة التي تحتل مكان الصدارة من الناحية العددية يوجد تفاوت كبير ؛ فهناك فقط ١٣ لغة يتكلم بها أكثر من ٥٠ مليون نسمة . وبين اللغات الثلاث عشرة ، وحتى بين المائة ، تفاوت كبير في المساحات ومناطق التوزيع . فبعض هذه اللغات يمثل اللغة الرسمية في مساحات شاسعة من العالم ، وبعض آخر منحصر في منطقة جد صغيرة . وبعضها يتكلم في مناطق غير

متلاصقة ، وبعضها الآخر يتركز في منطقة واحدة . وبعض اللغات مثــل الإنجليزية والفرنسية والألمانية تتمتع بمعاملات عالية في مستوى الإنتاج والتجارة والنتاج العلمي والأدبي ، وبعض آخر يستعمل بين جماعة من الناس يمكن أن توصف بالتخلف حيث يهبط فيها مستوى الإنتاج ، ويقل حجم التجارة ، وينعدم — أو يكاد — إنتاجها العلمي والعقلي . هذه هي الحال مع معظم اللغات الهندية الأمريكية في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومع اللغات الوطنية في أستراليا . بعض هذه اللغات تستخدمها مجموعات بشرية ذات مكانة سياسية وعسكرية ممتازة (مثل الإنجليزية والروسية) ، وبعضها يعاني من تفاهة مركزه السياسي والعسكري (مثل لغة هاوايي وبعض لغات نيوزلندة) . ولكن بعضا من لغات القسم الثاني تستعمل في مناطق ذات مركز سياسي واستراتيجي هام ، على الرغم من ضآلة قيمة المتكلمين بها (مثل الفيتنامية ، والسواحيلية في شرقي إفريقية) .

وإن الدراسة التفصيلية الموضوعية العلمية لكل هذه العوامل لتشكل المجال الحقيقي لعلم اللغة الجغرافي . وعلى ضوء ما هو معروف عن مجالات علم اللغة بفرعيه الرئيسيين الوصفي والتاريخي ، وميادين بحث كل منهما ، فإنه من غير المتوقع أن يتمكن أي من هذين الفرعين من معالجة الموضوعات السابقة على وجهها الأكمل ، أو يدعي لنفسه المقدرة على فعل ذلك .

١٥ — لغات المناطق وأهميتها النسبية

بعض اللغات — لأسباب تاريخية سابقة — قد فرضت نفسها كلغات عامة للتفاهم في مناطق تتجاوز منطقتها الأساسية التي تعتبر فيها لغة وطنية ، وربما أصبحت مكانتها كبيرة في تلك المناطق الجديدة . ومثال ذلك الألمانية في وسط أوربا ، والفرنسية في الشمال الإفريقي والإنجليزية في الهند . وتتفاوت درجة أهمية تلك اللغات وفائدتها في أداء وظيفتها تفاوتاً كبيرا .

وفي القديم ، كانت اليونانية واللاتينية تستعملان كلغات مناطق على طول حوض البحر المتوسط وغربي أوربا ، وقد ثبتت اللغة اللاتينية في النهاية دعائمها كلغة متكلمة عامة في مناطق واسعة كان أصحابها يتكلمون في الأصل لغات أخرى . وفي العصور الوسطى كان استعمال اللاتينية لغة العلم والدين يشمل أوربا الغربية كلها . أما الآن فإن الإنجليزية تستعمل كلغة بديلة في مناطق واسعة مثل الهند وباكستان اللتين كانتا يوماً ما ضمن المستعمرات البريطانية ، وكذلك اللغة الفرنسية التي تستعمل بطريقة مماثلة في حوالي نصف إفريقية . كذلك فإن الروسية هي لغة التفاهم العامة في أقاليم الاتحاد السوفيتي في آسيا التي لا تعد الروسية لغتها الأساسية .

هذا الانتشار لبعض اللغات ليغطي — بصورة أو بأخرى — مناطق واسعة لم تكن تتكلمها من قبل.. يعطي أهمية لما سميناه بلغات المناطق area languages . وفي بعض الحالات من الممكن التكهن — على أساس دراسة العوامل والظواهر الموجودة — أن لغة معينة سوف تتمكن في النهاية من فرض نفسها في منطقة معينة ، وتحل محل لغات أخرى ما تزال مستعملة حتى الآن في هذه المناطق . وفي حالات أخرى من الممكن التنبؤ — على نفس الأساس — بأن لغة منطقة معينة سوف تتقهقر ، وفي النهاية تختفي من أجزاء معينة في المنطقة المستعملة فيها الآن ، وعلى هذا فإن السواحيلية من الممكن أن تحل محل الإنجليزية في شرقي إفريقية ، وإن الهولاندية آخذة في الاختفاء بالفعل من إندونيسيا .

ولكن هذه التقديرات اللغوية للاحتمالات المستقبلة ، مع تطبيقاتها الواسعة المدى تحتاج إلى دراسة متخصصة ولا شك .

١٦ — اللغة الأدبية — اللغة الوطنية — اللهجات — اللغة الدارجة — العامية

كل الدارسين لعلم اللغة دراسة وصفية أو تاريخية يجتهدون ليضعوا حداً فاصلا بين اللغات واللهجات ، وبين المستويات الاجتماعية والتعليمية المتنوعة

لغة الواحدة المعينة . ولكنهم نادراً ما يتبعون طريقا واقعيا في الإشارة إلى تلك الظواهر اللغوية ، أو محاولة تفسيرها في ضوء أهميتها العملية ، سواء للمجتمع أو للأفراد . وهذا راجع — في الأعم الأغلب — إلى سوء تقديرهم لما يشكل اتجاها علميا ، وانحرافهم في اختيار الحقائق التي يمكن أن تعتبر أحكاما ذات قيمة .

إنه ليس حكماً ذا قيمة أن تصف لغة ما بأنها تحتل مكانا عمليا عظيما أكثر من غيرها إذا أخذت في الاعتبار العوامل الموضوعية المحققة مثل عدد السكان ، ومنطقتهم السكنية وإنتاجيتهم . وليس حكما ذا قيمة كذلك أن تدعي أن لغة ما — في الوقت الحاضر — تفوق غيرها ثقافيا إذا كانت ثمرات الثقافة تتحقق بصورة واضحة في شكل نتاج عقلي وأدبي وعلمي . وأخيرا ، فليس حكما ذا قيمة أن تدعي أن شكلاً معينا من أشكال اللغة تستعمله الجماعة كلها ، ويجري على ألسنة الطبقة المثقفة — أن تدعي أنه أفضل من شكل آخر يتصف بالمحلية ، ويستعمل بين طائفة من الأميين أو أنصاف الأميين .

ومن الطبيعي تحت ظروف معينة أن يكون الأبلغ استعمال اللغة الأكثر محلية أو الأقل ثقافة . فبعثة تبشيرية إلى أدغال الأمازون تجد من الأفضل لها أن تستعمل لغة هندية قليلة الأهمية لا أن تستعمل لغة يستخدمها مئات الملايين من الأوروبيين . وضابط البوليس في تعقبه للمجرمين يجد لغتهم الخاصة أنفع له من لغة المحامين والأطباء والأساتذة . ولكن هذه حالات استثنائية ويجب أن تعرض كما هي .

وإن وجود دعائم التوحد بشكل واسع وقوي بين جماعة ما ليبرز ما يسمى باللغة الوطنية national language . وهذه اللغات الوطنية كانت في الأصل ظواهر صناعية تتكون في معظم الأحيان إما من لهجة معينة اختيرت لتقوم بوظيفة عامة ، وإما من مجموعة من اللهجات طفت على السطح ، أو حدث توفيق بينها كحل وسط . ويحدث هنا عادة استجابة لحاجة ملحة في التفاهم العام ، وخصوصا لتيسير التبادل التجاري بين الأقاليم المتعددة . إن اللغة

الوطنية هي الصورة الكلامية التي تحظى بتأييد الحكومة ، وتدرس — نظريا على الأقل — في مدارس الدولة .

وكثيرا — ولكن ليس دائما — ما تتطابق اللغة الوطنية مع اللغة الأدبية literary language التي تؤدى بها معظم الأعمال الكتابية . وقد كان هذا هو الحال مع اللغة الفلورنتية التوسكانية Florentine Tuscan في إيطاليا ، وإن تم ذلك بعد إدخال تعديلات كبيرة والاستفادة من اللهجات الأخرى . وغالبا ما يكون للهجة شكل أدبي ونتاج أدبي ، وربما — من أجل ذلك — وصفت بأنها لغة أدبية . هكذا كان الحال مع اللهجة البيكاردية Picard في العصور الوسطى بفرنسا ، ومع لهجة نابولي الحديثة modern Neapolitan ، ولكن ظهور اللغة الوطنية — على أي حال — يثبط الهمم في استعمال اللهجات للتعبير عن الإحساسات الأدبية .

اللهجات إذن تعتبر شكلاً محلياً للكلام يستعمل في محيط واسع . وإن كان من الممكن أن تصنف اللهجات إلى وحدات كبيرة على أساس من سماتها العامة : فإن البحث الدقيق قد أثبت أن مثل هذا التصنيف — على الرغم من فائدته — يعد من صنع الخيال إلى درجة كبيرة . لا يوجد — من الناحية الموضوعية — شيء كهذا في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ؛ فلا يوجد ما يمكن أن يسمى لهجة جنوبية ، أو لهجة غربية وسطى ، أو لهجة نيو إنجلاند ، ولكن توجد سلسلة من الخصائص المحلية غير المتناهية مع بعض ملامح مشتركة من ناحية وملامح متباينة — من إقليم إلى إقليم — من ناحية أخرى . وعلى أساس من الحقيقة المطلقة ، فإن كل مدينة أو بلدة أو قرية لها لهجتها الخاصة . وقد وضع الفرنسيون لهذه الصورة الكلامية المحلية غير المكتوبة اسم patois . ولو ذهبنا بالتحليل أبعد من ذلك لأمكننا أن نقول إن كل شخص على حدة له خصائصه النطقية المختلفة التي تميزه عن غيره ، حتى من بين أعضاء أسرته القريبين . والتي تسمح لأصدقائه ومعارفه بأن يميزوه في حالة عدم رؤيته عن طريق صوته . هذه الصورة

الفردية للكلام تسمى العادات الكلامية idiolects .

ومن ناحية أخرى فإن الحدود المميزة للصور الكلامية الفردية المتنوعة إنما تمثل بخطوط افتراضية تسمى الخطوط الفاصلة isoglosses . وهناك - على سبيل المثال - خط افتراضي واضح محدد يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي يخترق معظم الأراضي الألمانية ، وعلى أحد جانبي هذا الخط يقول المتكلمون dat وعلى الجانب الآخر يقولون das . وإذا كان هذا الخط الافتراضي لا يتطابق دائما مع الواقع فإنه غالبا ما ينظم الظواهر في شكل حزم أو مجموعات ، مع اختلافات بسيطة نسبيا . وإذا أخذ المرء المتوسط أو المعدل لهذه الخطوط الفاصلة فإنه يمكنه أن يحدد خطا مفردا يفصل منطقة لهجة رئيسية عن غيرها . وهذا هو أساس الطريقة العلمية لتصنيف اللهجات الرئيسية في لغة معينة .

ومن الناحية العملية ، لكل لغة مستويات مختلفة على أساس الطبقة الاجتماعية أو التعليمية . وناتج هذا يمكن أن يسمى اللغات الطبقية class languages . فحينما يستعمل المتعلمون في مجتمع ما طريقة كلامية خاصة نجد طبقة أنصاف المتعلمين يستعملون طريقة أخرى . وقد أدى هذا إلى ظهور المصطلح الإنجليزي المستخدم في بريطانيا وهو : لغة الجامعيين «U» language ولغة غير الجامعيين «non-U» language (فكلمات مثل lidy و bob يتجنبها الإنجليزي الجامعي عادة) . وإلى جانب ذلك فهناك بعض المهن والأعمال التي تستعمل نوعا معينا من المفردات والمصطلحات وهذا يختص باسم jargon . أما الصورة الدارجة للغة colloquial فهي التي تستعمل في مجالات الأحاديث غير الجادة ، حتى من رجال مثقفين . ونادرا ما تستعمل في الأحاديث أو الكتابات الرسمية (وذلك مثل : I've got five dollars) . وقد تهبط اللغة الدارجة إلى درجة أكبر فتدخل تحت ما تسميه المعاجم القديمة باللغة المبتذلة vulgarisms (مثل I ain't seen him) أو العامية slang (مثل

He pecks a gat) ، التي ربما كانت لها صفة المحلية ، ولكنها في الغالب تتصف بالعمومية. هذه الطبقات الاجتماعية أو الثقافية للغة هامة جدا من وجهة نظر علم اللغة الجغرافي ؛ لأنها تبلور الصورة العامة للتنوعات اللغوية المستعملة على ظهر الكرة الأرضية .

وإن الفروق الطبقية في اللغة – التي تحدثنا عنها سابقا – تعد أكثر فعالية في اللغات الثقافية الكبيرة الهامة ، منها في اللغات الأقل متكلمين وثقافة ، ومع ذلك ففي بعض الحالات يمكن للنوع الأخير من اللغات أن يمثل ما يعد من الناحية العملية طبقات اجتماعية ، عن طريق استعمال مجموعة من الناس لبعض الصيغ المنبوذة لدى مجموعة أخرى من المتكلمين بنفس اللغة . وفي بعض القبائل الهندية الأمريكية – على سبيل المثال – تتكلم المرأة لغة تختلف إلى حد كبير عن لغة الرجل .

وسترد معلومات أوفى عن بعض المصطلحات السابق الإشارة إليها ، من وجهة نظر علم اللغة التاريخي في المبحث رقم ٢٨ وعنوانه : نقاط اتصال مع علم اللغة الوصفي وعلم اللغة الجغرافي .

١٧ – الصورة اللغوية المتغيرة

إن الاتجاه الطبيعي للغة ، وبخاصة في صورتها الدارجة او المتكلمة ، هو اتجاه يبعدها عن المركز ، أو ما يمكن أن يسمى اتجاها طرد يمركزيا centrifugal . فاللغة تميل إلى التغير ، سواء خلال الزمان أو عبر المكان ، إلى الحد الذي لا توقف تياره العوامل الجاذبة نحو المركز أو التي يمكن أن تسمى بالجذيمركزية centripetal . هذه الخاصية العالمية للغة هامة لعالم اللغة التاريخي ، حيث إنها تشكل الأساس في كل تغير لغوي . وهي هامة لعالم اللغة الوصفي لأنها تكون الأساس للاختلافات اللهجية أو الطبقية التي يصادفها الباحث

في اللغة موضوع دراسته ووصفه وتحليله . وهي هامة لعالم اللغة الجغرافي ، ليس فقط بسبب أنها تعطيه صورة — أقرب إلى الدقة — للغات العالم ، وتبين له أهمية بعضها بالنسبة للبعض الآخر ، ولكن أيضا لأنها تمده بالأسس التي يبني عليها تنبؤاته فيما يتعلق بمستقبل اللغات في العالم .

ومن الحقائق العامة أنه وجدت — في الماضي — لغات معينة كانت يوما ما هامة ومنتشرة . ثم اختفت من الوجود نهائيا وبادت معالمها ، اللهم إلا من بعض نصوص كتابية وكلمات قليلة اقترضتها لغات كانت أكثر حظاً ، وهي تلك التي عاشت وازدهرت . وهناك لغات أخرى أظهرت قوة جبارة في التوسع والامتصاص واستمالة أعداد هائلة من المتكلمين الجدد الذين لم يسبق استعمالهم لها . وقد كانت اللغة اللاتينية من ذلك النوع الذي جذب عددا من المتكلمين بلغات مثل الإترورية Etruscan والأسكانية Oscan والأمبرية Umbrian والأيبيرية Iberian والغالية Gaulish وألسنة أخرى كثيرة ضاعت معالمها . وقد عاشت اللاتينية ونجحت ، وظلت تنبض فيها الحياة حتى عصرنا الحاضر في شكل اللغات الرومانسية التي هي في الواقع سليلة اللاتينية ، وهي هي مع بعض خلافات حدثت بمرور الزمن .

ولو انتقلنا إلى لغات حديثة زمنياً لشاهدنا ازديادا في قوة الشخصية وعدد المتكلمين بالنسبة للغات كالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية . فكل منها قد اكتسب متكلمين جددا عن طريق الامتصاص من ناحية ، والنمو الطبيعي من ناحية أخرى . ونحن في بعض الأحيان نصطدم بلغات مثل اللغة الصينية التي يرجع التزايد العددي لمتكلميها إلى سبب واحد ، وهو النمو السكاني الداخلي .

وإنه من بين وظائف عالم اللغة الجغرافي أن يدرس العوامل التي تؤدي إلى تقدم لغة أو تقهقرها ، وأن يعكس صورة اللغة المستقبلة من خلال حاضرها .

ولكن الوظيفة الأخيرة جد صعبة ، وذلك بسبب تعدد وتنوع العوامل التاريخية التي تدخل في تكوين تلك الصورة . وهذه العوامل قد تكون ذات طبيعة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية . فاللغة اللاتينية مثلا قد انتشرت نتيجة لغزو عسكري ، وحنكة سياسية ، ومهارة إدارية ، ولكن بقاءها مؤخرا في مساحات واسعة كان مرده—في الأعم الأغلب— إلى عوامل دينية، حيث كانت اللغة اللاتينية قد أصبحت اللغة الرسمية للكنيسة المسيحية الغربية . وامتداد اللغة العربية كان نتيجة لعامل الغزو العسكري المصحوب بالتوسع الديني . وقد أصبحت القشتالية Castilian هي اللهجة الغالبة في شبه الجزيرة الأسبانية نتيجة للدور العسكري الذي لعبه المتكلمون بها بعد إعادة فتحها على يد المور Moors . وإن التوسع اللاحق للقشتالية إلى مسافات بعيدة من العالم الجديد كان يرجع إلى الجهود الاستعمارية التي امتزجت بعوامل عسكرية ودينية واقتصادية . وقد حدث شيء مماثل بالنسبة للغة الإنجليزية ، بالإضافة إلى الفعالية الكبيرة لعامل الامتصاص لمجموعة ضخمة من المهاجرين وأعقابهم ، الذين كانوا يتكلمون عادة لغة أخرى غير الإنجليزية. وإن لهجة شمال فرنسا Francien بعد انتصارها في العصور الوسطى على لهجات أخرى أدبية مماثلة ، نظرا لما تصادف من أنها اللهجة المحلية لباريس حيث البلاط الملكي ، استطاعت مؤخراً أن تفرض نفسها على مساحات واسعة من الأرض نتيجة قوة عسكرية واستعمارية من ناحية ، وما تتمتع به من إغراء ثقافي من ناحية أخرى .

واستنتاجا من دروس الماضي ينبغي على عالم اللغة الجغرافي أن يقاوم أي زعم بأن المركز النسبي الحالي للغات العالم اليوم سوف يستمر . إن الصورة التي يجب أن تكون ماثلة أمامه هي أن اللغة سريعة التطور ، ولربما لم تكن هذه الصورة في أي يوم مضى أصدق منها الآن . وبينما يجب على اللغوي أن يصف موضوعيا

صورة لغات العالم كما تظهر الآن ، وربما يعطي تنبؤات متحفظة عن المستقبل ، يجب أن يكون مستعدا للتغيرات المفاجئة وربما المروعة . وقد شاهدنا فعلا تغيرات متعددة من هذا القبيل خلال القرن الحالي [1] .

(١) من بين هذه التغيرات تدهور منزلة اللغة الفرنسية والألمانية – ربما لفترة مؤقتة – خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وارتفاع منزلة اللغة الأسبانية بعد الحرب العالمية الأولى ، واللغات الصينية والعربية بعد الحرب العالمية الثانية . ومن الممكن كذلك الإشارة إلى ازدياد مكانة بعض اللغات الناشئة حديثا ، والتي تعتبر لغات اصطناعية إلى حد ما ، مثل اللغة الأندونيسية التي هي الآن اللغة الرسمية لدولة يبلغ تعدادها حوالي مائة مليون . ومثل هذا ينطبق على اللغات الهندية والأردية والتاغالوغية (Tagalog) التي صارت اللغات الرسمية للهند والباكستان والفليبين (على التوالي) ، ولكن ليس بدون مقاومة من متكلمين بلغات أخرى في هذه المناطق .

القسم الثاني

علم اللغة الوصفي

(اصطلاحات أساسية)

• • •

١٨ ـ علم الأصوات

يتم إنتاج الأصوات اللغوية المنفردة (تسمى أيضاً فونات phones) [انظر المبحث رقم ٦] بواسطة أعضاء النطق الإنسانية . فالرئتان lungs تقومان بوظيفة المنفاخ الذي يوفر التيار الهوائي الذي يعتبر المادة الخام لإنتاج الأصوات اللغوية . هذا التيار الهوائي يتجه إلى أعلى خلال القصبة الهوائية wind pipe ويواجه تضاريس مختلفة من التقبضات والانسدادات . وبمجرد أن يغادر الهواء الأوتار الصوتية vocal cords والحنجرة larynx يمكن له أن يتجه إما إلى الفم أو إلى الأنف اللذين يقومان بوظيفة حجرتي رنين resonating chamber . والأوتار الصوتية ـ التي يمكن تحسسها بلمس تفاحة آدم Adam's apple ـ يمكن أن تغلق نهائيا وأن تتذبذب وأن تفتح نهائيا . فإذا أغلقت الأوتار الصوتية تماما ثم أطلقت ينتج ما يسمى بالهمزة glottal stop ، أو بداية تيار النفس الذي يمكن سماعه في تجمع ألماني مثل die Eier (وأحيانا في اللغة الإنجليزية حين النطق بكلمة : «co-operate» حين الانتقال من «O» الأولى إلى الثانية . وقد توجد في نطق لهجي لكلمة مثل «bottle» حينما ينطق حرف الـ (t) كأنه همزة ، ويكون الناتج صوتا مثل : (bo'le) . فإذا توجه تيار الهواء إلى الفم تنتج الأصوات الفموية oral sounds ، وإذا توجه إلى الأنف نتجت الأصوات الأنفية nasal sounds . وحتى من قبل أن يصل تيار الهواء إلى الفم أو الأنف من الممكن إنتاج بعض الأصوات اللغوية داخل التجويف الحلقي . وإن مثل هذه

الأصوات مألوفة في عديد من اللغات وبخاصة اللغة العربية . وفي طريق تيار الهواء إلى الفم أو الأنف إن تذبذبت الأوتار الصوتية ينتج ما يسمى بالصوت المجهور voiced أو sonant مثل الباء والميم . أما اذا ظلت الأوتار مفتوحة بدون ذبذبة فان الناتج يكون صوتا مهموسا أو صامتا unvoiced أو surd مثل پ ، ف. وإن التمييز بين أصوات اللغة سواء منها الأنفي أو الفموي يعتمد على استمرار الصوت ودرجة إسماعه ، وقوة إنتاجه ، وفوق كل هذا على المخرج. وكلمة المخرج point of articulation تشير إلى النقطة المحددة في الجهاز النطقي التي يتم عندها تعديل وضعه . وهذا التعديل ربما يحدث عن طريق إغلاق مجرى الهواء في نقطة معينة ثم فتحه فجأة لينطلق الهواء (يحدث هذا مع أصوات مثل ت ــ د ــ پ ــ ب) ، كما أنه ربما يحدث عن طريق تضييق المجرى إلى درجة تسمح بمرور الهواء ولكن مع احتكاكه بجانبي المجرى محدثا صوتا مسموعا (يحدث هذا مع ف ــ ڤ ــ ث ــ ذ) . ويحدد اللسان ــ الذي هو أكثر أعضاء النطق قدرة على الحركة ــ في العادة مخرج الصوت وطبيعته . وربما تقوم الشفتان بهذه المهمة وحدهما أو مع الأسنان (كما في پ ــ ب ــ ف ــ ڤ) .

وأصوات العلة vowel sounds تنتج بحد أقصى من الاستمرار والإسماع ، وبحد أدنى من التوتر والاحتكاك . (لاحظ احتمال مد الصوت لانهائياً ، وتردد الجرس الصوتي ، والانفتاح النسبي لمجرى الصوت في مثل آه ــ أوه) أمـــــا الأصوات الساكنة consonant sounds فيصاحبها قدر كبير من التوتر والاحتكاك ، وفي بعض الحالات غلق كامل لمجرى الهواء ثم فتحه الفجائي (لاحظ الغلق التام للشفتين ثم فتحهما أثناء النطق بالصوت ب) . وتتمثل ذبذبة الأوتار الصوتية عادة في إنتاج أصوات العلة ، ولكنها ربما تكون ممثلة أو غائبة في إنتاج الأصوات الساكنة (ضع أصابعك على جانبي الحنجرة ، وتبين وجود ذبذبة في أصوات مثل آ ــ ب ــ گ ، وعدمها في أصوات مثل پ ــ ت ــ ك) ويقابل الجزء الخلفي المتحرك من اللسان الجزء المسمى بالطبق ، أو أقصى الحنك الأعلى ، أو الحنك اللين soft palate أو velum . أما جزؤه

الأوسط فيقابل نقطة الالتقاء بين الطبق وما يسمى بالغار أو وسط الحنك الصلب hard palate . أما مقدمه فيقابل الغار . وأما طرفه فعادة ما يقابل الأسنان السفلى أو العليا . والشفتان تليان اللسان في القدرة على التحرك من بين أعضاء النطق . ويوجد كذلك اللهاة uvula التي يمكن أن تتذبذب بجريان النفس وينتج مايعرف بالراء اللهوية الفرنسية (يمكن توضيح حركة اللهاة أيضاً بحركتها عند النحنحة الخفيفة) . أما الأسنان ، وسقف الحلق ، والتجويف الأنفي فغير قابلة للحركة .

وإنها لحقيقة هامة تلك التي يقررها علم وظائف الأعضاء من أن تلك الأجزاء المسماة بأعضاء النطق ليست وظيفتها الأولى النطق ، وأنها تؤدي وظائف أخرى أساسية في بقاء الكائن الحي مثل التنفس والأكل .

وعند إنتاج أصوات العلة ينفتح الفراغ الفموي بوجه عام ، ويكون حراً من العقبات بالقياس إليه عند إنتاج الأصوات الساكنة . ولكن — مع ذلك — يوجد شيء من الانقباض نتيجة وضع اللسان والشفتين . إن اللسان يمكن أن يرتفع من مقدمه ، أو وسطه ، أو جزئه الخلفي ؛ والشفتين يمكن أن تنفتحا إلى أقصى أو أقل حد ، وكذلك يمكن أن تستديرا (كما في وضع القبلة) أو تمتدا إلى الأمام . ومعنى هذا أن صوت العلة ربما وصف بأنه أمامي front ، أو وسطي middle ، أو central ، أو خلفي back ، تبعاً للجزء المرتفع من اللسان (الكسرة أمامية ، والحركة في hat وسطية ، والضمة خلفية) . وصوت العلة كذلك يمكن أن يوصف بأنه عال high أو متوسط mid أو منخفض low على أساس مدى ارتفاع اللسان إلى أعلى ؛ أو يوصف بأنه مفتوح open ، أو نصف مفتوح half open ، أو ضيق close — على أساس درجة انفتاح الشفتين [1] .

---

(١) من الممكن — إلى حد كبير — أن يقال إن المصطلحات : مقفول وعال ، ونصف مفتوح ومتوسط ، ومفتوح ومنخفض من الممكن استعمال كل زوجين منها كترادفين في هذا المقام . إن ارتفاع اللسان يصاحب غالبا — وبطريقة أوتوماتيكية — بقفل الشفتين — وانخفاض اللسان

وصوت العلة أخيراً يمكن أن يوصف بأنه مستدير rounded ، أو نصف مستدير half rounded ، أو منبسط spread — على حسب وضع الشفتين (حرف الـ U في rule مستدير ، و aw في awful نصف مستدير و a في hat غير مستدير ، أو منبسط) .

وعلى هذا يمكننا الآن أن نصف صوت العلة في machine كصوت أمامي منبسط عال (ضيق) ، والصوت الفرنسي u في lune بأنه أمامي عال (ضيق) ولكنه مستدير ليس منبسطاً . أما u الإنجليزية في rule فهي خلفية مستديرة عالية (ضيقة) .وأما a في father فهي متوسطة منبسطة منخفضة (مفتوحة). ولعل مما ينبغي ملاحظته أن بعضاً من هذه الإمكانيات الناتجة عن اجتماع ثلاث صفات متعددة لصوت العلة توجد في بعض اللغات دون بعض (لايوجد في الإنجليزية مثلا u أمامية عالية مستديرة مثل الفرنسية) ، ولكن من المهم أن نشير إلى أن النطق الصحيح لأي صوت غير مألوف لدى المتكلم يمكن إلى حد ما أن يتوصل إليه عن طريق وصفه الدقيق بثلاث كلمات موضحة من مثل تلك التي استعملناها فيما سبق بقصد توجيه المتكلم إلى مخرجه الدقيق حين إنتاجه . وهذه إحدى فوائد المصطلحات اللغوية العلمية الدقيقة .

ومن الناحية الصوتية فإن حرف العلة يتكون من صوت مفرد لايصحبه تغير في وضع الأعضاء النطقية . ولكن إذا تغير وضع الأعضاء النطقية خلال إنتاج الصوت ، كما يحدث في الكلمات الإنجليزية sigh أو bone فإن الناتج يكون صوت علة مزدوجاً diphthong . ومن الممكن تعريفه بأنه تتابع مباشر لصوتي علة يوجدان في مقطع واحد فقط (من الممكن أن يعرف بأنه صوتا علة ينطقان في فترة زمنية لا تكفي إلا لنطق صوت واحد . وهذا التعريف وإن كان أقل علمية فهو أكثر وضوحاً وتفهماً) وهناك إلى جانب ذلك احتمال

بفتح الشفتين . ولهذا فان (i) في machine عالية ومقفولة ، و (e) في met متوسطة ونصف مفتوحة ، و (a) في father منخفضة ومفتوحة .

توالي ثلاثة أصوات علة في مقطع واحد مكونة ما يعرف بصوت العلة المثلث tripthong . كما في الكلمة الإنجليزية way أو waw والأسبانية buey والإيطالية soui حيث توجد ثلاثة أصوات علة مجتمعة في مقطع واحد .

وفي صوت العلة المزدوج أو المثلث لابد أن يحتل واحد من الاثنين أو الثلاثة مكاناً بارزاً فيكون أطول زمنياً ، وأكثر وضوحاً ، ويتحمل النبر ، ولهذا فإن الأصوات الأخرى في المجموعة يسمى كل منها نصف علة semivowel ، أو نصف ساكن semiconsonant ، أو انحداري glide . وإن الصوتين الإنجليزيين المرموز إليهما ب w و y – وبخاصة الأول منهما – يعاملان بوجه عام على أنهما نصفا علة . وإذا كان صوت العلة الأكثر بروزاً تالياً لنصف العلة نتج صوت علة مزدوج صاعد rising diphthong (وذلك كما في « wa » الموجودة في was أو «ye» في yes) وإذا كان العكس نتج ما يعرف بعلة مزدوج هابط falling diphthong (مثل «ow» في blow أو now ومثل «oy» في boy) .

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى ضرورة اليقظة وعدم الخلط بين ما سميناه علة مزدوجة diphthong (الذي هو وحدة نطقية) وبين تمثيل صوت واحـــد برمزين كتابيين (هو وحدة كتابية) وهو مايعرف بإسم digraph وذلك مثل th في اللغة الإنجليزية في نحو this ، أو ph في نحو philadelphia . أو sh في نحو shirt ، أو ea في نحو beat [1] . وإن طريقة الهجـــاء الإنجليزية التقليدية غير المرضية أدت إلى تمثيل كثير من الأصوات المفـــردة monophthongs برمزين كتابيين ، وكذلك إلى العكس ، ونعني به تمثيل كثير من الأصوات المزدوجة برموز مفردة (الكلمتان bone و fate مثالان

---

(١) ea في beat فسرها بعض الأصواتيين الأمريكيين على أنها صوت علة مزدوج مكون من I التي في it متلوة بـ Y الانحدارية . ولكن بعضا آخر يتفق مع الأصواتيين الإنجليز في أنهـــا صوت علة طويل .

توضيحيان ؛ فإن (o) في bone تتكون صوتياً من o + w ، و (a) في fate تتكون من e + y . هذا التحليل يعترف به معظم الأصواتيين الإنجليز ، ولكن الأمريكيين — بوجه عام — ينكرون هذه الازدواجية . وهم — فيما يبدو — قد وقعوا تحت تأثير الهجاء التقليدي للكلمتين).

أما الصوت الساكن فهو ذلك الصوت الذي ينطق مع صوت آخر (عادة صوت علة) وهو غالباً ما يحتل في المقطع قمة الرنين peak of sonority) ، ويتطلب الصوت الساكن إما إغلاقاً كاملا للمخرج (إيقاف تيار النفس ثم إطلاقه). أو درجة كبيرة من الشدة أو الاحتكاكية أكثر مما يحدث مع صوت العلة .

وفي حالة الأصوات پ — ب — ك — گ — ت — د يقف تيار النفس خلف حاجز ربما يكون هو الشفتين (پ و ب) أو مؤخر اللسان والطبق (ك و گ) أو مقدم اللسان ، أو طرفه مع الأسنان ، أو طرف اللثة العليا (ت و د[1]) . وحينما يرفع الحاجز يخرج الصوت مع انفجار . وإن أصواتاً كهذه من الممكن أن تسمى — بناء على هذا — انسدادية occlusives . أو انفجارية plosives ، أو وقفية stops . وربما كانت مجهورة voiced (إذا صاحبتها ذبذبة الأوتار الصوتية كما في ب — گ — د) . أو مهموسة unvoiced (لا تصحبها ذبذبة كهذه مثل پ — ك — ت) (وبالنظر إلى مخرج الصوت point of articulation من الممكن وصف الصوت بأنه شفوي labial ، (يحدث الانحباس في الشفتين كما في پ و ب) ، أو طبقي velar (الانحباس بين مؤخر اللسان مع الطبق) ، وقد يسمى guttural كذلك ، ولكنه اصطلاح لا يستعمل كثيرا الآن ، أو أسناني dental (الانحباس بين طرف اللسان مع مؤخر الأسنان) .وبينما

---

(١) مقدم اللسان مع طرف اللثة العليا في الإنجليزية عادة ، وطرف اللسان مع مؤخر الأسنان العليا أو السفلى في لغات أخرى كالفرنسية والإيطالية .

الأصوات الأسنانية الخالصة توجد في لغات كثيرة فقد استعيض عنهـا في الإنجليزية بأصوات مخرجها من منابت الأسنان alveolars (الانحباس بين مقدم اللسان وحافة اللثة العليا أو منبت الأسنان alveoli) ويعد هـذا الانتقال البسيط في المخرج هو المسبب للفرق الصوتي بين t و d في كل من الإنجليزية والفرنسية .

وعند هـذه النقطة يستحسن ان نعرض الأسـاس الذي نختاره في تصنيف السواكن . الأصوات الستة التي سبق وصفها (پ — ب — ك — گ — ت — د » كلهـا انفجارية ، ولكن منهـا الأصوات پ — ك — ت مهموسة (لا ذبذبة في الأوتار الصوتية مع النطق بهـا) بينما ب — گ — د مجهورة (تتذبذب الأوتار الصوتية مع النطق بها » . بالإضافة إلى هذا فان"پ"و"ب"شفويتان"وك"و"گ"طبقيتان . و"ت"و"د"أسنانيتان ، أو في حالة الإنجليزية لثويتان . فمن الناحية الصوتية العلمية إذن يمكننا أن نصف الباء بأنها مجهورة شفوية انفجارية ، والكاف بأنها مهموسة طبقية انفجارية .

أما الصنف الثاني من السواكن فيشمل الأصوات الاحتكاكية fricatives أو spirants (الأول معناه أنها تقترن باحتكاك بجانبي المخرج ، أما الثاني فمعناه أنها تلفظ مع النَفَس وليست انفجارية). وهنا ليس عندنا انحباس للهواء وغلق كلي للمخرج ، وإنما تضييق ، أو غلق جزئي يسمح بمرور الهواء .

وفي اللغة الإنجليزية يمكننا أن ننتج الأصوات الاحتكاكية ف — ڤ (الأول مهموس والثاني مجهور) بتلامس الشفة السفلى مع الأسنان العليا . وهذا يعني أن عندنا أصواتا احتكاكية أسنانية شفوية dento — labial (أو شفوية أسنانية labio — dental) وليست شفوية . .

وينطق اليابانيون صوت الفاء بطريقة تجعلها شفوية صرفة مهموسة احتكاكية عن طريق إرسال الهواء من بين الشفتين شبه المفتوحتين ، كما يحدث حينمـا

تحاول إطفاء عود كبريت . أما الأسبانيون فينطقون الـ ڤ بنفس الطريقة مع تذبذب الوترين الصوتيين ليحدث الجهر .

أما الصوت الطبقي الاحتكاكي فينتج عن طريق رفع مؤخر اللسان حتى يكاد يلمس الطبق . وهذا الصوت غير موجود في الإنجليزية ، ولكن نوعه المهموس موجود في الكلمة الإسكتلندية loch وفي الألمانية ach وفي نطق اسم الملحن الموسيقي bach .

أما نوعه المجهور فيستعمل في الأسبانية كلما وقعت گـ بين صوتي علة ثانيهما a أو o أو u (كما في كلمة pagar)[1] . ويعد المخرج الصوتي لهذين الصوتين مماثلا تماما لمخرج كـ و گـ ، ولكن المجرى لا ينسد معهما تماما ، وتيار النفس ينفذ ببطء بدلا من انحباسه ثم انطلاقه .

وبالنسبة للأصوات الأسنانية الاحتكاكية تملك الإنجليزية الصوتين الممثلين في الكتابة بالرمزين th (مثل thing و this حيث يعد أولهما مهموساً وثانيهما مجهورا ، ولكن الهجاء الإنجليزي لا يلقي بالاً إلى هذا الفرق) . وهنا نضع طرف اللسان على حافة مؤخر الأسنان ، أو بين الأسنان ، السفلى والعليا ، ونسمح لتيار الهواء أن يمر ببطء .

ولدينا زوجان آخران من المجموعة الاحتكاكية يخرجان من الغار palatal وينتجان برفع وسط اللسان أو مقدمه حتى ليكاد يلمس الغار ، فينتج الصوتان الممثلان في الإنجليزية بـ sh « مهموس » كما في shoot و s « مجهور » كما في measure .

أما الأصوات المركبة affricates فهي أصوات لا تنتج عن طريق تغيير

---

(١) من المفيد في هذا المقام أن يستمع الشخص إلى النطق الأسباني لكلمة pagar ويقارنه بالنطق الإيطالي لكلمة pagare . الصوت الأسباني في هذه الكلمة احتكاكي ، أما الإيطالي فانفجاري .

المخرج وإنما تعديل طريقة النطق . فإذا حدث أن كان الانغلاق المتلو بانطلاق ، الموجود في نطق الـ (t) – حدث أن كان متبوعا بالصوت الاستمراري الاحتكاكي فإن النتيجة ستكون ch الموجودة في church . ونفس الشيء يحدث مع الـ d إذا اتبعت بالصوت الاحتكاكي المجهور (s) في measure حيث يكون الناتج صوت الـ (J) الموجود في jet . ومن الممكن بنفس الطريقة إنتاج أصوات مركبة مثل ts و dz ، اللذين تمثلهما بعض الأبجديات (وبخاصة الألمانية والإيطالية) برمز واحد هو z [1] – وذلك عن طريق الجمع بين أسناني انفجاري ، وصفيري sibilant ضيق (احتكاكي) spirant من غير تعديل في مخرج الصوت . ولعل من المهم هنا أن نشير إلى أن عددا كبيرا من علماء الأصوات يرفضون الاعتراف بالطبيعة المركبة للأصوات المرموز إليها في الإنجليزية بـ ch أو j ويفضلون أن ينظروا إليها باعتبارها المتابل الانفجاري للغاري الاحتكاكي المرموز اليه في الإنجليزية بـ sh و s في measure .

ويوصف الصوتان س – ز غالبا بأنهما صفيريان sibilants (لما يصحبهما من صفير أو أزيز) وهما في الحقيقة صوتان من النوع الاحتكاكي . وطريقة إنتاجهما تكون بوضع طرف اللسان قريبا من مقدم اللثة ، والسماح للهواء بالمرور خلال الفتحة المتكونة بينه وبين الأسنان العليا . وتتوقف على قدر ارتداد طرف اللسان إلى الوراء إمكانية إنتاج هذا النوع من الـ s الذي يظهر في شكل صفير قوي apical والذي يوجد في بعض اللهجات الأسبانية وفي اليونانية ، وكذلك إنتاج الـ s الإنجليزية اللثوية alveolar أو الـ s الفرنسية الأسنانية . وتذبذب الأوتار الصوتية – بالإضافة الى ما سبق – ينتج لنا الصوت z الإنجليزي .

وإذا نحن وضعنا أعضاء النطق في شكل مماثل لوضعها مع پ أو ت أو ك أو ch الموجودة في church ولكن أغلقنا طريق الهواء الطبيعي وسحبنا

---

(١) في الإيطالية يكتب الحرف مكررا غالبا .

للهواء بالصعود إلى الأنف فإن الناتج يكون ما يسمى بالأصوات الأنفية nasal الممثلة في م ــ ن ــ ny — ng- الموجودة في[1] canyon . هذه الأصوات يمكن أن توصف بأنها شفوية أنفية ، وأسنانية (أو لثوية) أنفية ، وغارية أنفية . وفي كل الأحوال تتذبذب الأوتار الصوتية ، ولذا فإن كل الأصوات الأنفية تعد مجهورة .

أما اللام والراء فيوصفان بأنهما صوتان مائعان liquids ، ولكن على ضوء ما بينهما من اختلاف ربما كان من الأحسن أن توصف اللام بأنها جانبية lateral (يغلق اللسان مقدم الفم ، ولكنه يهبط من الجانبين ليسمح للهواء بالمرور بينهما وبين سقف الحنك) .

وإذا كانت نقطة الانغلاق (الناتجة عن رفع اللسان) متقدمة جدا في الفم نتج ما يمكن أن يسمى اللام المائعة الموجودة في[2] million . وإذا تأخرت إلى وسط الفم نتجت اللام في love, lamb . وإذا تأخرت أكثر نحو الخلف نتجت اللام في milk . وعلى هذا يمكن أن ننتج صوتاً جانبياً أمامياً أو متوسطاً أو خلفيا . وكل هذه الاصوات تصحبها ذبذبة في الأوتار الصوتية فهي مجهورة في الإنجليزية وكثير من اللغات[3] .

أما الراء فهي في معظم اللغات مكررة أو ترددية trill أو flap يتم نطقها في مقدمة اللسان ، مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية (يطلق عليها أحيانا اسم المهتزة vibrant لأن إنتاجها يصاحبه دائما ذبذبة في الأوتار الصوتية أو اللسان أو اللهاة) .

والصوت الممثل كتابة في الفرنسية بـ r مجهور نتيجة ذبذبة اللهاة معه .

---

(١) أو gn الفرنسية أو الإيطالية أو ñ الأسبانية .

(٢) في الأسبانية ll وفي الإيطالية gl .

(٣) في لغة ويلز يوجد لام مهموسة تمثل في الكتابة بـ ll كما في : Llanfair, Lloyd وغيرها .

وفي الإنجليزية الأمريكية يتم إنتاجه غالبا بتقعير اللسان ، والسماح لتيار الهواء بالمرور على امتداد حوافه .

هذه التنوعات الثلاثة لصوت تمثله الأبجديات الإملائية في كل اللغات برمز واحد أوضح مثال على وجوب عدم الثقة في نظام الكتابة العادي لتمثيل الصوت المنطوق . وتعبر عن هذا إحدى الحكم المشهورة التي تقول : « العين عدوة الأذن » . ولو أن أمريكيا أراد أن يتعلم الفرنسية عن طريق الصورة المكتوبة . فإنه — ولا شك — سينطق ما يراه ممثلا على شكل r تماما بنفس قيمتـــه في الإنجليزية الأمريكية .

أما الصوت الممثل في الإنجليزية على شكل h فهو ببساطة يتكون عن طريق اندفاع مهموس لتيار الهواء من الفم بدون حواجز أو احتكاكات (يوجد — على كل حال — احتكاك خفيف في فتحة المزمار glottis . ولذا يمكـــن أن يسمى مزماريا glottal) . وإذا صاحبته ذبذبة في الأوتار الصوتيـــة فإننا نحصل على الصوت العربي غ gh .

هذا البيان الموجز والأولي لكيفية إنتاج الأصوات اللغوية بعيد كل البعد عن محاولة استقصاء الاحتمالات الممكنة التي تبدو في الأبجدية الصوتيـــة العالمية ، التي هي نفسها بعيدة عن التمام . ولا توجد لغة في العالم تستعمل أكثر من ٦٠ صوتا من مئات الإمكانيات الصوتية التي يمكن للجهاز النطقي للإنسان أن ينتجها . بل إن بعض اللغات مثل الهاوايينية تستعمل فقط حوالي اثني عشر .

١٩ — علم الفونيم

إن كل ما ناقشناه في الفصل السابق يختص بميدان الأصوات المنطوقة : articulatory phonetics أو علم الأصوات البسيط الخـــالص (انظر المبحث رقم ٦) . فإذا انتقلنـــا إلى الجوانب الفونيمية للأصوات اللغوية

فإننا ربما نعرف علم الفونيم phonemics مرة أخرى على أنه العلم الـذي يعالج الخصائص الصوتية الوثيقة الصلة بلغة معينة من وجهة نظر إحساس المتكلمين . وهنا نجد أمامنا غالبا مجاميع من الأصوات المتشابهة (فونيمات) . وإذا كان من الممكن أن يشتمل الفونيم على صوت واحد : فـون phone « أو صوت موضوعي » فهو في الكثير الأعم يشتمل على مجموعة من الفونات المتشـابهة ، أو التنوعـات الصوتية phonetic variants ، التي يتوقف استعمال كل منهـا أسـاساً على موقعه في الكلمة (أولا — وسطاً — آخراً .. إلخ) وعلى الأصوات المجاورة له (قبل علة — قبل سـاكن — بين علتين — مـلاصق لصوت مجهور أو مهموس ... إلخ) . وقـد سبق أن رأينا أن مايمثل في الكتابة بالرمز P كما في pit و spit و sip إنما يحوي في الحقيقة ثلاثة فونات مختلفة وإن كانت متشابهة ومتقاربة . ولكننا رأينا كذلك أن هذه التشكيلات تصدر عن المتكلم بلغته بدون وعي ، ودون أن يفطن إلى الفروق بينها في العادة ، اللهم إلا إذا نُبه إليها . وعلى الرغم من أن P في pit و spit و sip تمثل ثلاثة أصوات موضوعية متخالفة أو ثلاثة فونات فهي تمثل فونيماً واحدا في الوعي العادي للمتكلم الأمريكي . هذه الفونـات الثلاثة حينئذ تسمى تنوعات موقعية positional variants ، أو ألوفونات allophones لنفس الفونيم . وهذا بـدوره يعني أن الفونيم لا يمكن أن يحدد بالنسبة لفونات أو لأصوات لغة على سبيل الإطلاق . إنه أقرب إلى أن يكون شيئاً تجريدياً أو نظرياً لايتحقق وجوده الموضوعي في الخارج ، وإنما يوجد في شكل واحد من ألوفوناته . وعدم تحقق الفونيم موضوعياً إلا في فرد من أفراده يطلق عليه فنيـاً مصطلح تحقق الفونيم actualization أو realization . وإن الفونيم أو الوحدة الذهنية P في الإنجليزية الأمريكية يمكن أن يتحقق وجودها الموضوعي فقط عن طريق الفونات في pit و spit و sip ، ولكن هذه تسمى فونات لافونيمات .

ومن الأمور الواضحة المسلم بها أن فونات الفونيم الواحد يجب أن تتقاسم

بعض الشبه الصوتي مثل المخرج وكيفية النطق . وعلى هذا فإنه من المستبعد جداً — وإن لم يكن مستحيلا في الجملة — أن لغة بعينها يمكن أن تستعمل p في pit وَ t في tit وَ k في kit كفونات لفونيم واحد .[1]

وإن نظرية التشابه الصوتي العام للألوفونات allophones المتفرعة عن فونيم واحد لها — في العادة — اعتبار كبير في الأنظمة الهجائية للغات . ففي الإنجليزية الأمريكية الفونات الثلاثة لـ p الموجودة في sip, spit, pit تمثل كلها برمز كتابي واحد، ولكننا لايمكننا دائماً أن نستمد العون من النظام الهجائي ، وبخاصة للغتين الإنجليزية والفرنسية .

وموضوع ما إذا كان صوتان معينان يمثلان فونيمين مختلفين أو فونين لفونيم واحد يعتمد على ما رأينا من قبل (المبحث رقم ٦) على نظام كل لغة على حدة . والاختبار المتبع في حالة كهذه أن يجرب الصوتان بأن يوضع كل منهما مكان الآخر في كلمة ما ، مع الاحتفاظ بباقي حروفها ، فإذا حدث ووجد اختلاف في المعنى فهما فونيمان ، وإذا لم يحدث أي اختلاف في المعنى نتيجة

---

(١) لاحظ مع هذا أنه من الممكن أن يغزو فونيم منطقة فونيم آخر فيتكلم فيها . في الألمانية — على سبيل المثال — ما يعتبر تاريخيا وهجائيا d يحاكي — إذا وقع آخرا — الصوت t في كلمات مثل bad (=bath) . هذه الظاهرة تدعى التحييد أو التعادلية neutralization بين فونين مختلفين في العادة . ولكن تعادلا كهذا لا يحدث إلا في موقع معين ، ولهذا فإن الألمانية تفرق — بحرص — في الموقع الأمامي والتوسطي بين t, d مدمجة إياهما ، أو معادلة بينهما في الآخر فقط . ولقد صيغ مصطلح خاص ليشمل هذه الظاهرة وهو الفونيم الرئيسي archiphoneme . والفونيم الرئيسي يتضمن كأعضاء فونيمين (أو أكثر) يتداخلان في موقع معين ليصيرا صوتا واحدا بالإضافة إلى فوناتهما العادية . وعلى هذا ففي الحالة الخاصة التي سبقت الإشارة إليها من الممكن أن يقال إن اللغة الألمانية تحتوي على فونيم رئيسي t-d يحتوي على الفونيمين المنفصلين t, d اللذين يظلان متميزين في العادة حتى ليقع لبس في المعنى لو استعمل أحدهما مكان الآخر ، ولكنهما يتعادلان أو يندمجان في الموقعية المتطرفة .

هذا التغيير فهما فونان لفونيم واحد .[1] وعلى هذا ، فإذا نحن غيرنا p الموجودة في pit إلى b وقلنا bit فسينتج معنى آخر مغاير . ولذا فهما في الإنجليزية فونيمان لا فونان لفونيم واحد .[2] ولكن إذا حدث تبادل بين الـ p في pit والأخرى في spit فسنجد الكلمة — على الرغم من ذلك — ما تزال محتفظة بمعناها لدى السامع ، ولذا فهما فونان لفونيم واحد .

ولكن في الكلام العادي — الذي لايتعمد هذا التبادل لغرض تجريبي — لايمكن للمرء أن يبادل بين هذين الفونين على الإطلاق . إنه سيستعمل كلاً منهما — بدون شعور — في موضعه الصحيح . إنهما يعتبران داخل توزيع تكاملي complementary distribution لايعتدي فيه أي منهما — في العادة — على اختصاصات الآخر . وبالنظرة الشاملة يتبين أن الفونات تغطي كل الاحتمالات الموقعية الممكنة ، وبعبارة أخرى كل أشكال الفونيم المتحققة في الواقع . وفي هذا يقول R. Fowkes في تعبيره المشهور : « إن الفونيم صورة ذهنية يكد المتكلم في الوصول إليها . أما الصوت allophon فهو الإنجاز الذي يحققه » تحت أي ظرف معين ، وفي أي محيط محدد .

وإن المتكلمين ليفطنون بسرعة إلى كل الاختلافات الفونيمية ، ولكنهم ربما لايكونون على علم بالاختلافات الصوتية . وذلك سببه أن تغيير الفونيم يصحبه تغيير المعنى مما يثير انتباه السامع ، في حين أن تغيير الصوت لايصحبه ذلك . وعلى هذا فإذا نطق الرجل الأسباني الـ p في pit كما ينطقها في spit تأثراً بنطقه الخاص في لغته ، فلا أحد سيلقي بالاً إليه . ولكنه إذا استعمل live

---

(١) يستخدم في هذا المقام مصطلح minimal pair وهو مصطلح يطلق على كل كلمتين تتفقان في جميع الأصوات ما عدا واحداً . فإذا اختلف معنى الكلمتين وأمكن حلول أحد الصوتين محل الآخر كان الصوتان فونيمين وإلا كانا فونين .. (المترجم) .

(٢) ليس هذا في اللغة العربية . فإذا نطقنا كلمة ابتسام بهمس الباء أو بجهرها فإن المعنى لن يتغير ، ولذا فالصوتان فونان لفونيم واحد .. (المترجم) .

بدلا من leave أو العكس فهو ولا شك سيخلق موقفاً يوقع السامع في لبس .

وباستثناء الحالات التي سبقت الإشارة إليها عن التحييد ، فإن كل فونيم يظل عادة بمنأى عن منطقة الآخر . وإذا لم يتبع ذلك فإن النتيجة الحتمية أعداد لانهاية لها من الخلط وغموض المعنى ، مما يؤدي إلى فشل اللغة في هدفها الأساسي وغايتها الأولية وهي التفاهم والاتصال .

ومن الناحية التاريخية يوجد — على أي حال — عديد من الحالات التي تم فيها اندماج صوتين ، مما أدى إلى إعادة التوزيع الفونيمي . وحتى من الناحية الوصفية ، وبالنظر إلى فترة زمنية واحدة يتم هذا ، ففي أمريكا يميل بعض المتكلمين إلى نطق ال t وال d الواقعين بين علتين في wetting و wedding بين بين ، فيلتقيان في نقطة يصعب على السامع أن يميز بينهما إذا نطقتا معزولتين . وهنا يأتي في العادة دور السياق لينقذ السامع من الاضطراب ، ويساعد على توصيل الرسالة بصورة صحيحة ليمكن ترجمتها على الرغم من صورتها الصوتية المبهمة ، والانحراف العارض على نطقها . ومثل هذا يحدث كثيراً خلال المكالمات التليفونية لأن ما يحدث في الغالب هو وصول ٥٠٪ فقط من المحتوى الصوتي . ولكن يحدث تعويض عن طريق معرفة السامع بالمحتوى الدلالي ، وعن طريق استنتاجه شبه الطبيعي المؤسس على خبراته وعاداته السابقة . ويلاحظ في مثل هذه الحالة أنه إذا ورد ذكر كلمة غير مشهورة كاسم أسرة مثلا ، فإن الحديث يتوقف طلباً لنطق الاسم بوضوح أو تهجيه .

وإن السامع — على ضوء معرفته العامة بالسياق ، وسابق خبرته بموضوع الحديث — لايحتاج لاستمرار المحادثة إلى تمييز كل الأصوات المعروضة المقدمة فيها الرسالة ، وإنما ربما يحتاج فقط إلى نصفها . وقد وضع خبراء الاتصال مصطلحاً هو الحشو redundancy ليطلق على حالة الاتصال حينما تظهر وحدات فونيمية في الرسالة أكثر من القدر الفعلي المحتاج إليه للفهم . ومحصل قوة هذا العامل تقل بدرجة ملحوظة إذا كان السامع حديث عهد باللغة التي

يتحدث بها ، أو على غير سابق خبرة بموضوع الحديث. وهو تحت هذه العوامل يرهف أذنيه ليلتقط كل وحدة صوتية ممكنة ، ويحاول على قدر مهارته أن يستفيد من الإشارات واللمحات التي تصاحب الحديث .

٢٠ — الفونيمات الثانوية

النبر — التنغيم — المفصل

إن الملامح التي تدخل تحت الجانب الأكوستيكي [١] لا الجانب الإنتاجي للأصوات هي : درجة الصوت pitch وعلوه loudness وكيفية تنغيمه timbre . أما الأول فيعتمد على نسبة تردد الموجات الصوتية frequency of sound waves ، وأما الثاني فعلى سعتها amplitude وأمـــا الثالث فعلى تركيب النغمة الأساسية fundamental tone مـــع النغمات التوافقية overtones المرتبطة بها .

(إن كيفية تنغيم الصوت هي التي تعيننا على تمييز أصوات الأشخاص) .

إن أصوات العلة ، والأصوات الساكنة تكوّن مايسمى بجزيئات الكلام Speech segments ولهذا توصف بالتالي بأنها فونيمات جزيئية أو تركيبية[٢] segmental phonemes . يوجد إلى جانب ذلك ملامح صوتية إضافيـــة تؤثر على الأصوات الكلامية أو مجموعاتها ، وهذه يطلق عليها أسماء الفونيمات الإضافية أو الثانوية secondery أو supra segmental . ومن أهـــم أنواعها النبر accent (stress) ، والتنغيم intonation ، والمفصل juncture .

---

(١) شرح المؤلف في كتابه Glossary of Linguistic Terminology هذا المصطلح بقوله : إنه دراسة الجانب الصوتي للكلام كما تستقبله أذن السامع ، والموجات الصوتية التي تصحبه (مادة acoustic phonetics) [المترجم] .

(٢) الكلام عبارة عن سلسلة كلامية ، أو مجرى مستمر خلال زمن معين . وبناء على هذا يمكن أن يجزأ المجرى إلى فونيمات أو ألوفونات منفصلة .

والنبر معناه أن مقطعاً من بين مقاطع متتابعة يعطي مزيداً من الضغط أو العلو (نبر علوي stress accent) أو يعطي زيادة أو نقصا في نسبة التردد (نبر يقوم على درجة للصوت pitch accent) . أما التنغيم فهو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين . وأما المفصل فهو عبارة عن نقطة الاتصال أوعدم الاتصال (سكتة كلامية pause of silence) بين مقاطع الحدث الكلامي الواحد . هذه الوحدات الفونيمية الثلاثة قد تكون في بعض الأحيان مهمة للمعنى تماماً كأهمية الوحدات الصوتية (العلل والسواكن) في الحدث الكلامي .

وبالنظر إلى النبر على سبيل المثال نجده غير مؤثر ألبتة في تغيير المعنى في بعض الحالات ، كما إذا نطقت كلمة police بوضع النبر على المقطع الثاني كالمعتاد ، أو بوضعه على المقطع الأول كما ينطقها بعضهم . ولكن الفرق الدلالي يبدو في كلمات مثل presént, présent وكذلك مثل permít, pérmit وكذلك مثل bláck bírd, bláckbird .

وفي الإنجليزية — كما هو معروف — أربع درجات من النبر هي أولي primary ، وثانوي secondary ، وثالثي tertiary ، وضعيف weak . ولتوضيح هذه الأنواع نمثل بالكلمات merger, given, weather التي تتحمل نبراً أولياً على المقطع الأول ، وضعيفاً على الأخير . والكلمات windfall, Baseball التي تتحمل نبراً أوليا على المقطع الأول ، وثالثيا على المقطع الأخير . والكلمات Artifact و generate التي تتحمل نبراً أولياً على المقطع الأول ، وثالثياً على الأخير ، وضعيفاً — أو لايوجد نبر بالمرة — على المقطع المتوسط . ويظهر النبر الثانوي عادة في مجموعات الكلمات مثل fine man, red house ، حيث يقع النبر الأولي على الكلمة الثانية والنبر الثانوي على الكلمة الأولى . وفي الكتابة الفونيمية الضيقة تمثل هذه الدرجات إما

بأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، أو بوضع علامة فوق الحرف المنبور هكذا : (١)
é, ê, è, ē (اقرأ من اليمين إلى اليسار) .

وبينما يعتبر موضوع النبر في معظم الأحيان مرتبطاً بقوة الصوت أو علوه ترتبط درجة الصوت بالنغمات الموسيقية . في الصينية مثلا تعد درجة الصوت أو نغمته جزءاً متأصلا من الكلمة ، وقيمته الفونيمية تعادل تماماً قيمة أصوات العلل ، أو الأصوات السواكن . في هذه اللغة يمكن أن تنطق Kan shu بألحان متعددة فتعني مرة « اقرأ كتاباً » ومرة « اقطع خشباً » . وكذلك Fu تنطق بأربعة ألحان مختلفة فتعني مرة « رجل » ومرة « حظاً سعيداً » ومرة « مقر الوالي » ومرة « غني » . وفي اللغة السويدية تستعمل نغمة نازلة إلى جانب نغمة مركبة . فكلمة مثل anden مع النغمة البسيطة النازلة تعني « البط » ومع النغمة المركبة تعني « النفس » أو « الروح » . ومن الدارسين من يدعي أن توقيعات الطبول المعينة عند الإفريقيين إنما هي محاكاة لنغمات الكلمات في اللغات المحلية .

وفي اللغة الإنجليزية نادرا ما تعد درجة الصوت أو التنغيم وحدات فونيمية ، وغالبا ما يظهر أثرهما في العبارة أو الجملة ، لا في الكلمة المنفردة . ولكن بمساعدة الموقف ربما سبب التنغيم اختلافا في المعنى يمكن أن يوصف بأنه فونيمي . وهناك مثال بين لاقى رواجا بين اللغويين ، وهو يمثل هذه الظاهرة خير تمثيل وذلك قولك : what are we having for dinner,mother ? مع نطق الكلمة الأخيرة وتنغيمها إما كصيغة خطاب ، أو كاحتمال فرضي كما لو كان يسأل عما سوف يحتويه طعام الغداء . وهناك نماذج أخرى بقصد المزاح مثل : waht is coming up the street ? what are you reading, Shakespeare ? بتنغيمها كما لو كان الشاعر هو المخاطب .

وإنه ليقال إن في الإنجليزية أربع درجات للصوت : منخفض low ، ومتوسط mid ، وعال high ، وعال جدا extra high . وتمثيل درجات

---

(١) لاحظ الفرق بين greên hoûse, greénhoûse.

الصوت معقد نوعاً بسبب اختلاف المتكلمين في استعمالهم لهذه الدرجات .

وحتى الكلمات ذات المقطع الواحد تتعرض لتغيرات في درجة الصوت من بدايتها إلى نهايتها . ومن الممكن استعمال كلمة «go» مرة في جملة محايدة غير انفعالية مثـــل : I am going to go there tomorrow واستعمالها مرة ثانية في سؤال عادي من نوع : ? Go there . ويمكـــن استعمالها في مقام الإنكار وعدم التصديق ! Go there . وأخيرا تستعمل كفعل أمر ! Go . إن go الأولى من الممكن أن يقال عنها إنها تستعمل نغمة متوسطة عادية على امتداد طولها ، أما الثانية فتستعمل نغمة عالية ، وأما الثالثة فتبدأ منخفضة وتنتهي عالية ، أما الرابعة فتبدأ عالية وتنتهي منخفضة .

ولكن – كما قلنا – يوجد تنوع كبير بين الأفراد في ذلك ، ومن الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحدد طريقة النطق . ومن ناحية أخرى ، فإن كل لغة لها – بالنسبة لكل مجموعة من الكلمات أو الجمل – نماذج للتنغيم intonation متميزة تماما إلى الحد الذي يمكّن الشخص من أن يتعرف على اللغة المتكلمة أمامه حتى إذا لم يميز فعلا واحدة من كلماتها .

أما المفصل juncture – ويسمى أيضا الانتقال transition – فهو عبارة عن سكتة خفيفة بين كلمات أو مقاطع في حدث كلامي بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ ما أو مقطع ما وبداية آخر . ولكن بعض الكتاب يدعي أن اختلاف الدلالة لا يتكون من الوقفة ، بقدر ما يتكون من إعطاء قيم مختلفة للسواكن والعلل ؛ وكذلك مخالفة التنغيم . إن الانتقال الحاد بين night و rate في night rate (يسمى عادة مفصل مفتوح open juncture ، ويوضح في الكتابة عن طريق علامة زائد)يقابل الانتقال الخفي muddy transition بين r, t في nitrate (يسمى كذلك مفصل ضيق close juncture ويعبر عنه في الكتابة عن طريق علامة ناقص).

وقد أدى الخلط في الماضي في أماكن الفصل إلى تغيرات تـاريخية مثل

التي تطورت إلى a newt ، ومثـل a napron التي تطورت إلى an ewt
an apron . وحتى في عصرنا الحاضر نجد المفصل هو الذي يساعدنا على أن نميز بين an icebox و a nice box وبين light housekeeper و lighthouse keeper . بالإضافة إلى التنغيم والسياق . وحتى في الحالات التي لا يلعب فيها المفصل (وكذلك النبر والتنغيم) دورا فونيميا ، فإنه يؤدي دورا ملحوظا في التفريق بين نطق الأجانب ، ونطق أبناء اللغة .

والمقطـع syllable عبارة عـن قمة إسماع peak of sonority ، غالبا ما تكون صوت علة [1] ، مضافا إليها أصوات أخرى عادة — ولكن ليس حتما — تسبق القمة ، أو تلحقها ، أو تسبقها وتلحقها . ففي ah قمة الإسماع — كما هو واضح — هي a ، وفي it هي i ، وفي do هي o ، وفي get هي e .

وإن التقسيم المقطعي syllabic division ليرتبط ارتباطاً وثيقـاً بالمفصل ، حيث إنه توجد عادة وقفة غير محسوسة غالبا بين المقطعين . وهذه الوقفة قد تعادل أحيانا المفصل المفتوح (الانتقال الحاد) .

وتميل اللغات إلى اتخاذ نماذج مقطعية معينة توصف أحيانا بأنها نماذج مقبولة canonical forms (على الرغم من أن النماذج المقبولة تتضمن أحيانا عوامل أخرى غير التقسيم المقطعي) . وفي اللغة الإنجليزية يشيع المقطع س ع س أو ع س « مثل al — er — gen والمقطع يسمى مقفولا closed حينما ينتهي بساكن ، ومفتوحا open حينما ينتهي بعلة » . وفي لغات أخرى مثل الأسبانية والإيطالية واليابانية والإندونيسية يفضل النموذج س ع « كما في

---

(1) بينما تكون قمة الإسماع عادة صوت علة ، توجد لغات كثيرة يمكن فيها للام والراء والميم والنون ، وحتى السين والزاي ، أن تقطع قمة إسماع مكان العلة ، وتكون محور المقطع . ففي التشيكية كلمات مثل : pln, krst ، حيث تقوم الراء واللام بدور قمة الإسماع مؤدية وظيفة العلـل .

ge-ne-ra-le بدلا من ge-ne-ral) ، وهذا يؤدي الى اختلاف أساسي في المفصل ، واختــلاف في تلوين صوت العــلة ، حيث إن العلة في مركزها الحر free position في نهاية المقطع تنال حظاً أكبر من البروز والرنين الصوتي والاستمرار ، مما لو كانت في موضع مقيد checked position (أي متبوعة بصوت ساكن في نفس المقطع) . وهذا الاختلاف في النظام المقطعي للغات – على الرغم من النظرة إليه على أنه نادرا ما يكون فونيميا ، بمعنى أن يؤدي إلى تغيير المعنى – أساسي لاكتساب طريقه النطق المطابقة لنطق أصحاب اللغة [١] . وأحسن طريقة للتعود على النطق الصحيح للنغمات الصوتية وللوقفات الموجودة في لغة أجنبية هي نطق الكلمات أو مجموعة الكلمات ببطء مقطعا مقطعا ، مع الوقفات الصحيحة بين كل مقطع ومقطع . وبالتدريج يزيد المرء من سرعة نطقه للحدث الكلامي حتى يصل إلى السرعة العادية .

وهناك سمتان إضافيتان في اللغات تتقاسمان طبيعة صوتية وفونيمية وهما التنوعات الحرة free variations ، والتجمعات الصوتية sound combinations المسموح بتكوينها في لغة معينة .

أما التنوعات الحرة فتعني السماح – على قدم المساواة – بنطقين اثنين ، كما يحدث في كلمات مثل either التي تنطق كأنها تشتمل على العلة ee في feet أو العلة i في sigh . وكلمة tomato التي تنطق كأنها تشتمل على العلة a في fate أو في father . وكلمة with التي تنطق وكأنها تشتمل على الساكن th في thing أو this . وهناك احتمال قوي أن كل كلمة حينما تنطق بنطقين فكل نطق يمثل طبقة اجتماعية أو لهجة محلية ربما يكون أصلها التاريخي قد نسي بمرور الزمن . ولكن محاولة الرجوع إلى الوراء لاكتشاف أصول الكلمات إنما هو في الحقيقة من عمل علم اللغة التاريخي لا الوصفي ،

---

(١) إذا نطق ناطق مثلا الكلمة الأسبانية ge-ne-ral تبعا للتقسيم المقطعي الإنجليزي الكلمة gen-er-al فإنه سوف يفهم ، ولكنه سينظر إليه على أنه أجنبي .

فإن الأخير يسجل ببساطة الحقيقة المتعلقة بتعايش نطقين ، ويمضي قدماً لوصف كل منهما ولا يتعدى ذلك .

أما التجمعات الصوتية وبخاصة تجمعات السواكن consonant clusters ، والمواقع التي يمكن أن تقع فيها ، فتختلف من لغة إلى أخرى. اللغة الإنجليزية مثلاً تسمح بتجمع نهائي للسواكن مثل ذلك الموجود في pests, desks ، في حين أن لغات أخرى كثيرة ربما لا تتسامح في مثل ذلك. ولكن الإنجليزية ترفض تجمعات أولية مثل nr التي توجد في الروسية ، أو sdr (تنطق zdr) التي تقع في الإيطالية . وحيث إن هذه التجمعات مسموح بها في الإنجليزية في موقعيات غير تلك في الكلمة ، أو في الكلمات المتتابعة (مثل unravel و hisdrawl) فإن المتعلم الإنجليزي يتصح بأن ينطق الكلمة الإنجليزية أو الكلمات المتتابعة مسقطاً الصوت أو الأصوات التي تسبق التجمع الصوتي المطلوب نطقه .

ولعل مما يجب ملاحظته أن النظام الفونيمي لأي لغة ، والتجمعات الصوتية المسموح بها فيها ، رغم أنها أشياء قد تكونت بالفعل ، ليس هنالك ما يمنع من اقتراض لغة (ربما كانت كلمة استخدام أنسب هنا) فونيمات لغة أخرى ، أو تجمعاتها الصوتية المسموح بها حين اقتراضها بعض كلمات منها ، وحينئذ تحدث عملية تجنيس naturalization لهذه الأصوات أو التجمعات الأجنبية . اللغة الإنجليزية مثلا لا تملك الصوت الطبقي المهموس الاحتكاكي ach الموجود في اللغة الألمانية ، ولكن ذلك لم يمنع كثيرا من الناس من نطق اسم Bach نطقاً صحيحاً .

وهناك تجمعان صوتيان ممنوعان في الإنجليزية في الموقع الأولي بالنسبة للكلمات الأصلية وهي ts و shm ، ومع ذلك فاسم الذباب المعروف tsetse ، وكذلك الكلمة schmo المقترضة من اليدية Yiddish ، والعالم الألماني Schmidt — كل هذه الكلمات ينطقها المثقفون الإنجليز ، وحتى غير المثقفين منهم ، نطقاً صحيحا .

هذه النماذج التي قدمناها لا تخرج عن أن تكون نظرة عامة للقضايا التي عرضناها والتي يسلم بها على المستوى العالمي ، وليس هناك أي صوت أو تجمع صوتي في أي لغة لا يمكن أن يكتسب المتكلم الأجنبي نطقه الصحيح ، بشرط توفير القدر الضروري من الوقت ، ووجود الانتباه الكافي ، وبــذل الجهد المطلوب .

٢١ ــ علم المورفيم

إن التصورات التقليدية لعلم القواعد النحوية قد أقيمت ــ أساسا ــ على ذلك النظام الذي يدعه النحاة اليونان حين وصفوا لغتهم الخاصة التي تعتبر من اللغات الإعرابية إلى حد كبير . وتتضمن الأقسام التي وضعها النحاة اليونان لأنواع الكلمة أشياء مثل العدد ، والجنس (التذكير والتأنيث) والحالات التي تتعاور على الكلمة سواء كانت اسماً أو صفة أو ضميرا . كذلك تتضمن الفعل من حيث الزمن والصيغة والبناء للمعلوم أو المجهول، ومن حيث إسناده إلى عدد ما من الأفراد أو شخص من الأشخاص . وإن تركيب كثير من اللغات الهندية الأوربية القديمة مثل السنسكريتية واليونانية واللاتينية ، وعدد لا بأس به من اللغات الحديثة مثل السلافية Slavic واللتوانية Lithuanian - الى حد كبير ــ ومثل الألمانية ــ إلى درجة أقل ــ يسمح بتصنيف أقسام الكلام parts of speech تصنيفاً علميا خالصا إلى : أسماء ــ صفات ــ ضمائر ــ أفعال ــ ظروف ــ أدوات ــ حروف جر ــ روابط ــ حروف نداء . وهو تقسيم لا يتبع معنى الكلمة ، ولكن وظيفتها وسلوكها وصيغتها . إن الاسم له صيغه الخاصة ووظيفته المعينة التي تميزه بوضوح عن الصفة ، وكلاهما بدوره متميز عن الفعل . هذه الحدود الحاسمة بين أنواع الكلام ترجع ــ لدرجة كبيرة ــ إلى قابلية أواخر الكلمات لأنواع معينة من التصريفات ، وللتغيرات الداخلية التي يتميز كل قسم من أقسام الكلام بنوع خاص منها .

ولم يكتشف أن نظام التقعيد للغات الهندية الأوربية القديمة ليس عالميا ، وأنه لايسري على كل اللغات بلا تمييز ، إلا بعد أن طبق على لغات من عائلات مختلفة ، مثل الصينية ، واللغات الهندية الأمريكية ، أو حتّى على لغات من نفس العائلة الهندية الأوربية ولكنها ابتعدت عن أصلها الأول مثل اللغة الإنجليزية . وقد حــاول علم اللغة الوصفي ، وما زال يحاول ، (وإن لم تكن كل محاولاته تتم بنجاح حتّى الآن) وضع نظام جديد لتقعيد القواعد ، وتصنيف الأنواع النحوية التي ربما تشمل اللغات جميعها ، أو على الأقل تعطي نتائج مرضية في وصف معظم اللغات التي تدخل تحت كل نوع من الأنواع الأربعة التي سبق الحديث عنها (المبحث رقم ١٠) ، وهي اللغات التصريفية واللاصقة والمُفْرِدة والمركّبة .

وإن مصطلح المورفيم كما عرّف سابقا بأنه أصغر وحدة ذات معنى (المبحث رقم ٨) وكما قسم إلى مورفيم حر ومورفيم متصل بناء على استعماله منفرداً أو متصلا — يعتبر واحدا من ملامح النظام الجديد للتقعيد .

ولكن قبل الدخول في تفصيلات عن المورفيم يستحسن أن ننبه إلى أنه في مقابل ما يسمى بالفون بالنسبة للفونيم توجد وحدة أساسية أو مادة خام هي المورف بالنسبة للمورفيم . وقد عرف المورف بأنه سلسلة من الفونيمات الممكن النطق بها ، والتي ربما أدت وظيفة مورفيم في نظام لغة معينة . وهذا يعني أنه بالنظر إلى اللغة الإنجليزية مثلا ، فإن سلسلة الفونيمات sab أو lund ربمــا كانت مورفات ، وإن لم تكن مورفيمات في الواقع لأنها لا تحمل معنى في اللغة الإنجليزية . ولكن هذه السلاسل الفونيمية في نفس الوقت تصلح أن تكون مورفيما إنجليزيا ، لأنها تناسب النظام الفونيمي للغة الإنجليزية ، وتبدو إنجليزية في شكلها . ولكن تتابعاً صوتياً مثل ahmorpt من ناحية أخرى لا يمكن أن يقوم بدور المورفيم في الإنجليزية ، اللهم إلا إذا وقع ضمن الكلمات المقترضة [1] .

---

(١) هذا التعريف له مزية إضافية حيث يكشف عن أن اللغات ما تزال بعيدة عن استخدام كل إمكانياتها في التجمعات الصوتية للفونيمات ، وما زال هناك فراغ كبير متروك للغات لتتسع وتنمو .

وقد سبق تعريفنا للمورفيم بأنه أصغر وحدة ذات معنى ، وربما كان من الممكن كذلك ، أن يوصف بأنه سلسلة من الفونيمات ذات المعنى التي لا يمكن تقسيمها بدون تضييع المعنى أو تغييره. إذا نحن أخذنا تتابعا مثل posts نجد من الممكن تقسيمه إلى مورفيمين هما : s + post (s هنا تؤدي معنى الجمعية الإضافي) . ومن الواضح أنه من غير الممكن بعد ذلك القيام بعمل أي تقسيمات أخرى لأحدهما: إذا حاولنا st + po فإننا يمكن أن نعطي الجزء الأول معنى لأنه يحمل اسم نهر في إيطاليا ، ولكنه معنى مغاير . ومع ذلك فلا يمكن أن نجد معنى للجزء الثاني . وإذا نحن حاولنا أن نقسم الكلمة إلى ost + p لا نجد للجزء الأول نظيرا في الاستعمال ، ونجد الثاني يمكن أن يستخدم جزءا من صيغة مركبة كبادئة بمعنى عظم bone . ولكن مرة أخرى ، لقد تغير المعنى . أما التقسمان t + pos فيعطيان صيغتين غير مستعملتين. وعلى هذا فكلمة post يجب أن يحتفظ بها سليمة . إنها تحمل معنى معينا ، وينطبق عليها تعريف المورفيم .

والمورفيم ليس دائماً مقطعاً واحداً . أو حتى مقطعاً كاملا . فإن مورفيم الـ S الدال على الجمعية يعد فونيماً ، ولكنه ليس مقطعاً . ولكن في كلمات مثل Monongahela ، أو crocodile نجد عندنا مورفيمات يتكون كل منها من عدة مقاطع . وإن التتابع الفونيمي الواحد ربما شكل مورفيمات متعددة ، فالكلمة post – على سبيل المثال – لها كثير من القيم المورفيمية كما في to post a notice و to establish a post و post office . وبينما لا يُتعرف على الفونيمات إلا من خلال فوناتها ، نجد المورفيمات عادة ثابتة ودائمة .

وبالنظر إلى المورفيمات الحرة free morphemes أو المتصلة bound morphemes نجد بعض اللغويين المحدثين يفضلون استعمال المصطلح formant للمورفيم الحر ، مخصصين المصطلح مورفيم للنوع المتصل فقط ، أو الذي يمكن أن يوصف بأنه يدل على فكرة إضافية . وإذا نحن نظرنا إلى المصطلحات النحوية التقليدية

نجد المورفيم الحر يعادل — على وجه التقريب — ما يعرف بالأصل أو الجذر root أو stem ، بينما يقابل المورفيم المتصل ما يعرف بالنهاية التصريفية أو التغيير الداخلي .

والسبب في تفضيل المصطلحين : formant و morpheme على مورفيم حر ومورفيم متصل ، أنه بينما يناسب المصطلحان الأخيران ذلك النوع من اللغات الذي يستعمل الجذور المجردة ككلمات منفصلة (مثل الكلمة الإنجليزية mail التي يمكن استعمالها منفصلة ، وأن يوصل بها مورفيم متصل مثل ing, s, ed) فإنهما لا يناسبان كثيراً لغات مثل اللاتينية واليونسانية والروسية التي لا تستعمل الجذر مجرداً إلا نادراً . في التصنيف القديم أو البلومفيلدي يمكن أن توصف الكلمة الإنجليزية mail بأنها مورفيم حر ، حيث إنها يمكن أن تستخدم بنفسها ، في حين توصف ing بأنها مورفيم متصل . ولكن كلمات لاتينية مثل [1] (mūr-) و (us-) من الضروري اعتبارها من نوع المورفيم المتصل مادامت كل منها لايمكن استعمالها مستقلة . ومن ناحية أخرى إذا نحن استعملنا formant في كلتا الكلمتين mail الإنجليزية و mūr اللاتينية ، وخصصنا المصطلح مورفيم لمثل ing الإنجليزية و us اللاتينية فإننا نكسب فائدة أخرى ، وهي شمـــول المصطلحين الجديدين للفكرة القديمة عن «جذر» يشكل المعنى الأساسي و«لاحقة» تعطي المعنى الثانوي (مورفيم في معناه المقيد) وتعدل من المعنى الأساسي للكلمة ، أو تبين كيفية استعمالها .

وفيما يخص أنواع الكلام — كما ذكرها علماء اللغة التقليديون — ما يزال علماء اللغة المحدثون يعترفون بها ، ولكنهم يقيمون تقسيمهم للكلمات على أساس مجموع الوظيفة والصيغة ، لا على أساس المعنى أو التاريخ الاشتقاقي . وهذا يعني أنهم واصفون أكثر منهم معرِّفين . الاسم noun في اللغة الإنجليزية

---

(١) في اللاتينية (– mūr) تعتبر الجذر لكلمة حائط. ولكنها لا يمكن استعمالها مستقلة ، ويجب استعمالها مع لواحق مثل (us —) أو (i —) أو (ō –) أو (um —) إلخ . . . . .

ـ على سبيل المثال ـ قد يعرّف على الطريقة التقليدية على أنه « اسم name الشخص أو المكان أو الشيء » ، ولكن بالطريقة التقعيدية الوصفية يوصف بأنه كلمة يمكن أن تستعمل في وظائف أو مواقع محددة خاصة ، وتتخذ صيغاً معينة. فالاسم من الممكن أن يقع فاعلاً أومفعولا لفعل ، أو يقع بعد حرف جر (الـ... يذهب إلى البيت ـ أرى الـ ... ـ سأذهب بـ ....). كذلك الاسم يتحمل إضافات معينة لإفادة الجمعية مثل s أو es ويفيد معنى الملكية بإضافة S إليه (this is the...' S book — the... S go — the... goes) والفعل الإنجليزي من ملامحه الخاصة أنه يبنى بإضافة S إذا كان للغائب المفرد ، ويضاف إليه ing لتكوين اسم الفاعل present participle . أما بناء ماضيه واسم مفعوله past participle فيكون بإضافة d أو ed أو t أو بتغيير داخلي . أما الصفة adjective فتقع دائماً قبـل الاسم أو بعد فعـل الكينونة (the man is..., the... man) وكذلك تفيد التفضيـل بدرجتيه بإضافة er أو est أو بسبقها بكلمة more أو most . ولكن لاتتصرف غير ذلك .

وإذا كانت الأمثلة السابقة قد وُضعت في شكل مبسط إلى أقصى حد فإنها ـ ولا شك ـ قادرة على أن تعطينا فكرة لابأس بها عن الأسس الوصفية الجديدة لتصنيف أنواع الكلام . هذه الطريقة التركيبية الجديدة لتصنيف الكلام قـد أقيمت أساساً على الصيغة والوظيفة ، ولا تلقي بالاً إلى المعنى الخاص بكل كلمة على حدة . ولكنه ما يزال محلّ جدل ونقاش اعتبار أو عدم اعتبار هذه الطريقة الحديثة تحسيناً للطريقة القديمة التي تقوم أساساً على المعنى ، وخصوصاً في تطبيقها على اللغات الغربية ، وإن كان الظاهر أن الطريقة الحديثة أكثر طواعية للتطبيق من القديمة . مع قبولها للتعديلات الملائمة لتناسب لغات أخرى غير هنديـة أوربية .

وتماماً كما وجدنا في علم الأصوات phonalogy أن للفونيم عدة فونات أو ألوفونات (أصوات موضوعية يقع كل منها في مواقع مختلفة يكمل بعضها

بعضاً ، ومقبولة من جمهور المتكلمين كأشكال مسموح بها) كذلك في المورفيمات يوجد ما يسمى ألومورفات allomorphs أو الصيغ المتنوعة variant forms التي تستعمل في ظروف مختلفة لتعطي المعنى المعين .

وإذا اتبعنا الطريقة التقليدية ونظرنا إلى ظواهر اللغة المكتوبة أمكننا أن نقول إن الأسماء الإنجليزية تشكل جموعها عادة عن طريق إضافة s وأحياناً قليلة عن طريق إضافة en (ox — oxen) ، أو بتغيير نوع العلة في المفرد (man — men) ، أو بدون تغيير ظاهر أو مسموع (sheep — sheep) . ولكننا لو استعملنا التقسيم المورفيمي الاصطلاحي وأخذنا في الاعتبار فقط اللغة المتكلمة أمكن للمرء أن يقول إن (s —) و (z —) , و (—iz) عبارة عن التنوعات المنطوقة لمعظم نهايات الجمع (boys — sizes — books — legs) وهي كلها ألومورفات allomorphs تقع في مواقع مختلفة ، ولا تتعاور على الموقع الواحد (S حينما ينتهي الاسم بصوت ساكن مهموس مثل books و z حينما ينتهي الاسم بصوت ساكن مجهور . أو علة . أو نصف علة ، كما في boys, ladies, legs . أما iz فحينما ينتهي الاسم بـ S أو z كما في sizes, glasses) . أما en في oxen ، وتغيير صوت العلة في goose و geese ، وكذلك في foot و feet ، والتغيير الصفري[1] zero change الموجود في sheep و deer فتعتبر كلها ألومورفات استثنائية لمورفيم واحد عام يدل على الجمعية . وهذه الصور الاستثنائية تقع فقط في حالات تخص أسماء معينة من السهل حصرها وتصنيفها . وحيث إن منهج البحث ، والمصطلحات الحديثة المستعملة في الوصف المورفيمي كلها وصفية محضة ، فإنه يجب تجنب كل الإشارات التاريخية المتعلقة بسبب اختلاف

(١) المصطلح zero change يستعمل عندما لا يكون هناك تغيير مرئي في الصيغة من المفرد للجمع مثل : two sheep, one sheep ، أو من المضارع للماضي مثل put مع ضمير المتكلم .

بعض الأسماء في سلوكها عن الأخرى . الوصفيون عادة يقصرون أنفسهم على وصف الظاهرة اللغوية على ما هي عليه في مرحلتها الحديثة .

والفعل الإنجليزي مقسم بالطريقة التقليدية إلى نوعين : ضعيف weak وقوي strong . في الصيغة المكتوبة يشكل ماضي الأفعال الضعيفة وتصريفها الثالث عن طريق إضافة d أو ed (كما في work و worked وكذلك love و loved).

أما الفعل القوي فيشكل ماضيه وتصريفه الثالث عـادة عن طريق تغيير حرف العلة (كما في sing — sang — sung) أو عن طريق بعض إضافات ربما كانت في الآخر أو في غيره (مثل speak — spoke — spoken ومثل bring — brought — brought) .

فإذا أردنا أن نطبق على الفعل تصورنا للمورفيم والألومورف أمكننا أن نقول إن النهايات المكتوبة d أو ed المضافة إلى الأفعال الضعيفة (والتي تنطق عادة كما لو كانت t أو d أو id كما في wrapped التي تنطق wrapt و lighted و loved) هذه النهايات تنحل إلى ألومورفات للمورفيم السابق الإشارة إليه الدال على الماضوية ، مع تنوعات موقعية هي (t) بعد الساكن المهموس و (d) بعد الساكن المجهور أو العلة ، و (id) بعد ما ينطق t أو d . أما صيغ الماضي التي تشكل عن طريق التغيير الداخلي للعلة (sing — sang و write — wrote) فتوصف حينئذ وتصنف على أنها ألومورفات إضافية للمورفيم الماضوي السابق ذكره . ولاحظ كذلك الألومورف الصفري zero allomorph في أفعال مثل hurt و put و bet .

٢٢ ـ المورفوفونيم

إن الألومورفات قد تكون صرفية أو نحوية محضة كما في (en) الموجودة في oxen والتي لا تعتمد على أي عامل صوتي[١] phonological . ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ ربما تكون مشروطة بشروط صوتية تشكيلية . كما لو استعملنا (S) بعد ساكن مهموس ، و (Z)بعد ساكن مجهور أو علة .

وتحت ظروف كهذه يوصف التغير بأنه مورفوفونيمي morphophonemic بمعنى أنه يتضمن عاملا صرفيا morphological مشروطا بعامل صوتي تشكيلي phonological . وإن التغيير المورفوفونيمي يؤثر أحيانا على المورفيم الحر ،كما يؤثر على المورفيم المتصل (كما يحدث في كلمة knife التي تجمع على knives و Path التي تجمع على paths و house التي تجمع على houses بتغيير الساكن المهموس الأخير إلى مقابله المجهور بينما اللاحقة نفسها تأخذ شكل الصورة المجهورة Z- أو iz-) .وليس هناك أدنى شك في أن (kniv-) الموجودة في knives تعتبر ألومورفا للكلمة knife يقع في محيط معين فقط وهو ـ في هذه الحالة ـ صيغة الجمع (لاحظ أن هذا الألومورف لا يظهر في حالة الملكية المفردة مثل the knife's edge) .

وفي نفس الوقت يجب النظر الى الصورة (kniv-) على أنها مورفيم متصل لامورفيم حر على قدم المساواة مع الكلمة اللاتينية mūr حيث إنها لا يمكن ان تستعمل قائمة بنفسها .

---

(١) التغيير في صوت العلة من foot إلى feet ومن man إلى men يعتبر كذلك من التغيير الصرفي المحض ، ولكنه يندرج تحت المصطلح الإبدال replacement ، ومعناه تغيير أحد فونيمات الكلمة للحصول على صيغة نحوية مختلفة . وعلى هذا فالكلمة feet تمثل صيغة إبدالية حلت محل اللاحقة العادية (S) أما التغيير الشامل suppletion فهو تغيير في شكل الأصل كما في went ماضي go و was ماضي to be و worse التي هي صيغة التفضيل لكلمة bad .

وإذا أخذنا مثالا آخر فإننا نجد الكلمات (-duke) من dukedom و (-duch) من duchy ، و (-duc) من ducal يمكن اعتبارها ألومورفات لمورفيم واحد Formant . ولكن إذا فضلنا المصطلحين مورفيم حر ومورفيم متصل فحينئذ نجد كلمة duke مورفيما حرا ، و (-duc), (-duch) ألومورفيمات متصلة .

وفي كل الحالات التي توجد فيها ألومورفات سواء كانت صرفية محضة أو صرفية فونيمية morpho phonemic من المستحسن أن نختار واحدة منها وتعتبر الصيغة الأساسية base form وتعد الأخريات صورا نوعية لها . فإذا نحن وصفنا السابقة الدالة على النفي (-in) الموجودة في indecent على أنها الصيغة الأساسية للمورفيم النافي ، فحينئذ ينظر إلى الصورة (-im) الموجودة في impossible على أنها صورة تنوعية ، وكذلك (-ing) المسموعة غالبا في incapable أو ingratitude .

وإن الظواهر الصرفية الفونيمية لا تقع فقط في الكلمات المنفردة ، ولكن كذلك في مجموعات الكلمات ذات المدلول النحوي . ومثل هذه الظواهر يطلق عليه في العرف الاصطلاحي اسم مشتق من علمي الأصوات التشكيلي والنحو وهو (١) syntactic phonology . وهناك مصطلح آخر هو sandhi المستعار من قواعد اللغة السنسكريتية والذي يستعمل بدلا منه في بعض الأحيان (٢) .

---

(١) هذه الظاهرة تؤثر على النطق ولذا فهي صوتية تشكيلية ، ولكن من ناحية أخرى فهي لا تقع إلا في تتابع معين من الكلمات ، ولذا فهي نحوية .

(٢) من بين الأنواع المشهورة للظاهرة النحوية التشكيلية ما يسمى بالتسهيل liaison أو الاتصال linking في النحو الفرنسي . ففي الفرنسية مثلا لا تنطق الـ (S) في les livres فهي صامتة لوقوعها قبل ساكن ، بخلافها في les oncles التي لا توصل فيها الـ (S) فقط بالعلة التالية ، بل تنطق على أنها (z) لوقوعها بين علتين : أما مثال الإنجليزية فيمكن أن يؤخذ من الصيغ المختصرة مثل : we're, it's, و I'm التي صيغها المورفيمية المستقلة أو الأساسية هي is, are, am .
وفي الأسبانية توجد كلمة vaca حيث تنطق الـ (v) كالباء (شفوية ثنائية انفجارية) في مقابل la vaca ، التي بتأثير الوقوع بين علتين تنطق فيها الـ (v) على أنها شفوية ثنائية احتكاكية.

٢٣ ـ التركيب النحوي : علم القواعد

إن المصطلحات النحوية التي يستخدمها اللغويون الوصفيون ما تــزال مشوشة وغير موحدة في الاستعمال حتى الآن . ثم إنها تكشف عن اتجاه لجعل تطبيقها عالميا (صالحة لكل أنواع اللغات) ، وعن ميل إلى استعمال مصطلحات تقليدية (مثل subject و predicate) إلى جانب مصطلحات جديدة مثل . immediate constituents (المكونات المباشرة) و endocentric (الجملة الناقصة) أو exocentric structure (الجملــة التامة) .

والمصطــلح exocentric structure يعني ما كــان يسمى عادة في المصطلح القديم بالجمل التامة مثل : أنا هنــا ـ ضربته ، بينمــا يختصُّ endocentric structure بمجموعة الكلمات التي تقوم بوظيفة الاسم (مثل : the big red book) ، أو الفعل مثل : should have been seen) ، أو الصفة (مثل : up-to-date) ، أو الظرف (مثل : in a moment or two) .

أما المصطلح construction فيستعمل تارة ليدل على مجمــوعــة من الكلمات أو المورفيمات تجمعها رابطة مباشرة مثل : الرجل العجوز الذي يعيش هنالك ، وتارة ليدل على نموذج لبناء أشكال مركبة من وحدات بنائية معينة مأخوذ بدوره من مكونات مباشرة immediate constituents لأنواع معينة من الصيغ form-classes .

وهذا يستدعي أن نعرّف المراد بالمصطلح form-class (أو constituent class) وكذلك المراد بالمصطلح immediate constituents .

نريــد بـ form — class أو constituent class الكلمــات أو مجموعات الكلمات التي لها نفس الحق في الاستعمال . ويعني ذلك أنها يمكن أن تقع في نفس الشكل التركيبي ، وربما حصل التبادل بينها ، ولكن بشرط استمرار دلالتها على معنى . إن مجموعة من الكلمات مثل : « الرجل الذي يعيش هنالك » ، والكلمة المفردة « الساكن » يمكن اعتبارهما منتسبتين

لوحدة بنائية معينة ، حيث من الممكن تجاورهما في نفس المكان داخل تركيب معين . وكذلك يمكن أن يقال بالنسبة لمجموعة الكلمات : « في منزل ابنه » بالنظر إلى كلمة « هناك » .[1]

أما الكلمة [2] constituent فتعرف بأنها أي كلمة تأخذ مكانا لها في تركيب أكبر . والمصطلح immediate constituent يطلق على واحدة من كلمتين أو أكثر يتكون منها جميعا تركيب ما . في جملة مثل : منازل هذا الرجل لونها أبيض ، المكونات المباشرة immediate constituent هي : منازل هذا الرجل + لونها أبيض (يمكن أن يقال بشيء من التجاوز إن الأول يقابل ما يسمى تقليديا بالمسند إليه subject وتوابعه ، والثاني ما يسمى بالمسند predicate وتوابعه) . وإذا حاولت أن تفصل « هذا الرجل لونها » من العبارة السابقة وتعتبرها مكونا مباشرا كان خطأ رغم « ورود الكلمات في نفس التتابع السابق .

وفي تركيب مثل : hothouse flowers ترتبط كلمة house بكلمة hot .

ولكن في مثل : hot housewarming ترتبط الكلمة house بكلمة : warming .

والمكون المباشر قد يكون مركبا من وحدات متصلة أو منفصلة . ففي مثل « the man did come » تعد الكلمتان did come مكونا مباشرا متصلا للتعبير الفعلي ، ولكن في : ? did the man come هما ما يزالان مكونا مباشرا للتعبير الفعلي ولكنهما منفصلان .

وهناك مصطلح آخر وهو التحويل transformation ويعني

---

(١) المصطلحات التقليدية تصف المثال الأول بأنه اسم noun أو أي شيء يمكن أن يقوم بدور الاسم وتوابعه ، في حين أن المثال الثاني ربما وصف بأنه ظرف adverb .

(٢) تسمى كذلك : component .

من الناحية التركيبية تغيير إحدى جملتين داخل مجموع واحد إلى الأخرى . وربما شمل التحويل كذلك تغيير الجملة من الإثبات إلى نفي أو استفهام ، مثل : الرجل قادم ـ الرجل ليس قادما ـ هل الرجل قادم ؟ وواحدة من هذه الأنواع التركيبية « عادة الجملة المثبتة » تعد الأصل أو الأساس input وبتحويلها يتم إنتاج أنواع أخرى « نفي أو استفهام » يطلق عليها اسم الفرع أو النتاج output. وهناك قوانين تحكم أخذ أنواع النتاج من الأصل . وهذه القوانين غالبا ما تتنوع بحسب نوع اللغة والظروف المحيطة ، ففي الإنجليزية مثلا لكي تأخذ النتاج المنفي من مصدر الطاقة أو الأصل the man is coming : input لابد أن تضيف not إلى is . ولكن لتأخذه من : The man walked away يجب أن تأتي بـ did وتضيف not ، ثم تغير walked إلى : (The man did not walk away) . وفي الفرنسية لكي تنفي : L'homme est ici الرجل هنا « لنا طريقان . فإما أن نضع قبلها est-ce que فتصير Est-ce que l'homme est ici ? ، أو نكرر المسند إليه بعد الفعل في صورة ضمير فتصير L'homme, est-il ici ? . وإذا نحن في النهاية حصلنا على القوانين التي تحكم أي تغيير من الإثبات إلى النفي أو الاستفهام أو أي نوع نريده من الجمل فقد حصلنا على تحويل كامل .

أما المصطلح الأساس head أو الكلمة الأساسية head word فيستعمل غالبا في علم اللغة الوصفي ليعني أهم كلمة في التركيب . ففي جملة مثل : « البيوت الجديدة التي تبنى الآن . . » ، الكلمة « بيوت » هي الأساس ، وسائر الكلمات صفات attributes .

وهناك اصطلاح آخر هـــو الكلمات الوظيفية function words ، ويستعمل بكثرة ليشير إلى الكلمات الصغيرة مثل « ال » و « بعض » وعلامـــة

التنكير « a » في الإنجليزية [١] ، والتي تقوم بدور العلامات المميزة في الجملة ، وكثيرا ما تحذف من العناوين ، ولكن إسقاطها من ناحية أخرى قد يسبب خلطا. فلو قلنا مثلا the water is pure فوجود علامة التعريف يحدد أن المراد قدر معين من الماء بعينه ، وحذفها يدل على أن المراد التعميم .

ومن الواضح الذي لايحتاج الى دليل أن اللغات تختلف فيما بينها في استعمال أو عدم استعمال تلك الكلمات الوظيفية . فلا يوجد في الروسية واللاتينية مثلا علامة تعريف أو علامة تنكير ، ولذا فمن المستحيل أن توجد تفريقاً كهذا الذي سبقت الإشارة إليه في الإنجليزية ، اللهم إلا بالإسهاب ، أو تغيير التركيب . وفي اللغة الإنجليزية نظام ثنائي يميز بين ما هو قريب ، وما هو بعيد ، فيستعمل للأول this وللثاني that ولكن الأسبانية تشتمل على نظام ذي ثلاث شعب . فهناك لفظ لما هو قريب للمتكلم . وهناك لفظ لما هو قريب للمخاطب ، وهناك لفظ لما هو بعيد عنهما . وما يقال من أن الإنجليزية في فترة سابقة كانت تحوي نفس النظام الثلاثي متمثلا في this — that — yon ، فإنما يخص علم اللغة التاريخي لا الوصفي . أما اللغة الفرنسية فعلى العكس من ذلك لا تفرق عادة بين ما هو قريب وما هو بعيد فتستعمل لهما صيغة واحدة [٢] .

وبعض اللغات الهندية الأميركية لها نظام ذو خمس أو ست شعب ، للتفريق بين ما هو غير مرئي ، وما هو في الماضي ولا أثر له . . . إلخ .

وإن ميزات التقسيمات الاصطلاحية الحديثة على أختها التقليدية ليست

---

(١) زاد المؤلف الأمر وضوحا في معجمه Glossary of Linguistic Terminology فذكر أن هذا المصطلح يطلق على الكلمة غير المتبورة في الجملة ، والتي تؤدي أساساً معنى نحوياً لا معجميا ، وذلك مثل حروف الإضافة ، والأفعال المساعدة ، والروابط ، والظروف ، والأدوات ، وبعض الضمائر (انظر مادة : Function word) [المترجم] .

(٢) اللفظ ce livre قد يعني هذا الكتاب أو ذلك الكتاب . ولذلك يلجأ المتكلم الفرنسي إلى نوع من التفريق حين يرى حاجة إلى ذلك عن طريق إضافة (-ci) أو (-là) إلى livre ولكن استعمال ذلك في المجال العملي قليل جدا .

جميعا واضحة ، ولكن من الممكن أن يقال إنها أكثر قابلية للتطبيق على لغات ذات أنماط مختلفة .

٢٤ ـــ المفردات

إن عالم اللغة الوصفي يهتم بمفردات اللغة من جانبها الوظيفي ، لا من جانبها الاشتقاقي التاريخي ، ولا من جانبها الدلالي . فكلا النوعين الأخيرين يقع في منطقة اهتمام عالم اللغة التاريخي . ومن ثم فإننا نجد أن تصور معنى الكلمة ـــ من وجهة نظر علم اللغة الوصفي ـــ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما سميناه من قبـــل بالمورفيم . فمفردات أي لغة lexicology تعرف إذن بأنها « مجموع رصيد المورفيمات وتجمعاتها [1] » .

ومن وجهة نظر علم اللغة التركيبي تعرف الكلمة word بأنها « وحدة في جملة تحدد معالم كل منها بإمكانية الوقوف عندها » (ليس من الضروري أن يتم الوقوف فعلا) ففي جملة مثل The houses are being built من الممكن نظرياً الوقوف بعد built — being — are — houses — the ولكن وقوفاً بين (-hous) و (-es) ، أو بين (-be) و (-ing) ربما يعطي الحدث الكلامي شيئاً من اللامنطقية .

والجملة نفسها تعرف بأنها « تتابع من الكلمات والمورفيمات التنغيمية »[2] .

---

(١) من المستحيل أن يتجنب عالم اللغة التركيبي علم المعنى كلية في دراسته للمفردات ، لأن مفهوم المورفيم يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع المعنى . ولكن أي اشارة إلى معنى تاريخي ، أو تحول في الدلالة ، وبيان أسباب ذلك ـــ كل أولئك يبعد عن مجال علم اللغة الوصفي الخالص .

(٢) شرح المؤلف مصطلح المورفيمات التنغيمية intonation morphemes بأنه نموذج تنغيمي معين يمكن أن يحول الجملة إلى سؤال أو تعجب ، دون تغييرات تركيبية . انظر : معجمه السابق الإشارة إليه ، مادة : intonation formant (المترجم) .

وهذا يجعل التعريفين دوريين إلى حد ما، لأن الجملة تدخل في تعريف الكلمة، والكلمة تدخل في تعريف الجملة . ولنضرب مثلا لكلا التعريفين. دعنا نأخذ الجملة : هل تريد هذاالكتاب؟ من الممكن نظرياً أن نقف عقب كل كلمة على الرغم من عدم حدوث ذلك غالباً في الحديث العادي . ويشكّل الجملة مجموعُ الوحدات التي يصح أن نقف بينها (الكلمات) بالإضافة إلى درجة الصوت ، والتنغيم والمفصل ، ونحو ذلك مما يدخل في إيضاح المعنى .

وبينما يختلف مفهوم الكلمة في علم اللغة التركيبي عنه في المصطلح التقليدي نجده يمتاز كذلك بصلاحيته للتطبيق على لغات أكثر من المفهوم القديم . ونحب — من غير الدخول في تفصيلات تخص اللغات المركّبة أو التصريفية — أن نلفت النظر إلى الاختلاف بين العبارة الإنجليزية **by giving him two of them** ومرادفتها الإيطالية **dandogliene due** حيث نجد خمس كلمات إنجليزية عبر عنها بكلمة واحدة في الإيطالية . من وجهة نظر الدراسات اللغوية التقليدية ربما كان صعباً إلى حد ما أن نحكم ما إذا كانت **dandogliene** كلمة واحدة(كما قد يدل الهجاء) أو مركبة من ثلاث كلمات منفصلة هي **ne + glie + dando** (كما قد يدل المعنى) ولكن من وجهة نظر علم اللغة التركيبي تعتبر الصيغة الإيطالية كلمة واحدة ما دام من غير الممكن إيجاد سكتات طبيعية بين أجزائها الثلاثة .

وقد عمل تمييز بين الكلمة التي تعد صيغة نحوية كاملة **lexeme** والكلمة التي ليست كذلك . كلمة **want** في **I want some water** تعتبر صيغة نحوية كاملة ، وكذلك **wants** في **He wants...** ولكن كلمة **(want-)** التي هي جزء من **wants** ليست صيغة نحوية كاملة بنفسها حتى ولو أنها تتطابق في شكلها مع **want** الأولى . ولنضع العبارة في صورة أخرى فنقول إن **want** الأولى مورفيم حر وصيغة نحوية كاملة ، أما الثانية **(want-)** فهي مورفيم حر (حيث من الممكن استعمالها منفصلة في مواقف مختلفة) ولكنها ليست

صيغة نحوية كاملة في ذلك المثال بعينه . ومعنى هذا أن مركز الصيغة النحوية الكاملة يعتمد على استعمال الكلمة المعين في الجملة المعينة ، بينما مركز المورفيم الحر يتوقف على وضع الكلمة مستقلة ، ولا يتأثر بوضعها في تعبير معين . أما حرف الـ S في wants فهو – بالطبع – مورفيم متصل ، ولا يمكن تحت أي ظرف أن يصبح صيغة نحوية كاملة .

وقد سمح لعلم المعنى أن يتدخل في دراسات علم اللغة الوصفية فيما يسمى بالمصطلح أو التعبير idiom الذي يعرّف بأنه كلمة أو مجموعة من الكلمات تأخذ معنى معيناً ليس طبيعياً ، ولا مدلولاً عليه من أجزاء التركيب نفسها . إذا قلت مثلا : white paper تجد لها معنى سياسياً معيناً لايظهـــر في إحدى الكلمتين منفردة: وهي لهذا تعد مصطلحاً إذا استعملت في هذا المعنى السياسي . ولكن إذا استعملتهما في معناهما العادي مثل : Let me have a sheet of white paper فليس هناك شيء اصطلاحي في ذلك . والتعبير look out قـــد يستعمل في معنى اصطلاحي حـــين يعني كن حريصاً ، ولكنه قد يعني مدلوله العادي حين يكون : Look out of the window وحينئذ لايكون اصطلاحياً . والتعبير الاصطلاحي عادة يجب أن يعالج ككل حيث إنه ليس في مورفيماته المنفصلة ما يدل على المعنى الجديد الذي يدل عليه التعبير ككل . والتعبيرات الاصطلاحية عادة تختلف من لغة إلى لغة كما يتضح من المثال الآتي : يحكى أن رجلا فرنسياً كان يركب قطاراً وبجانبه رجل أمريكي وقد حدث أن كان الفرنسي مطلاً برأسه من النافذة وكان القطار مقدماً على نفق ، فأراد الأمريكي تنبيه رفيقه فقال : look out ولكن الفرنسي لم يفهم فجذبه الأمريكي إلى الداخل من ياقة معطفه ، وحينئذ أدرك مراده فشكره ثم قال متعجباً : ولكن لماذا قلت لي : look out بينما أنت تريد أن تقول لي : look in ؟

وكثير من اللواحق العـــادية التي تدل على معنى معين ، حين توضع في تركيبها المستعملة فيه (مثل ish– الموجودة في كلمات Spanish — Yellowish)

تعطي معنى اصطلاحياً حينما توضع في تركيب جديد غير مألوف (مثل قول الشبان المراهقين : I'll meet you five — thirty ish) .

وقريب في طبيعته من التعبير الاصطلاحي هذه الاستعمالات أو الصيغ الموجودة في لغة ما ، ولا يوجد لها مقابل دقيق في لغة أخرى . ومثال ذلك كلمة Geschwister الألمانية التي تشمل الأخ والأخت ، وكذلك كلمة Parent الإنجليزية التي تعني أحد الوالدين بينما الكلمة الألمانية المقابلة وهي Eltern لا تستعمل إلا مع الجمع فقط . والكلمة الأسبانية Padre يمكن أن تعني وهي مفردة « أب » ، ولكن وهي جمع قد تعني « آباء » ، وقد تعني الوالدين .

وأخيراً يجدر الإشارة إلى مصطلحين اثنين ذاعا على يد دي سوسير De Saussure ويستحسن ألا يترجما ، وأن يتركا في صيغتهما الفرنسية وهما Parole, Langue : وإن كانا أحياناً يترجمان إلى لغة Language وكلام speech .

اللغة langue هي ذلك المظهر الرسمي الموروث للتراث اللغوي ، ذو النظام النحوي المتجانس المستعمل بين كل أفراد المجتمع . أما الكلام parole فهو الاستعمال الفردي للغة بقصد توصيل رسالة ما . فاللغة إذن مستقلة عن الأفراد المتكلمين ، وتحيا كشيء مجرد صالح للاستعمال بين الأفراد . وهذا ما نعنيه بقولنا إننا نتكلم لغة ما ، ولتكن اللغة الفرنسية ، أما الكلام فهو شيء خاص بالمتكلم ؛ ويطلق على ما يمكن أن يسمى استعمال ديجول الشخصي للغة الفرنسية . ومن الواضح بقدر كاف أن اللغة — باعتبارها شيئاً مجرداً — لا يتحقق وجودها الفعلي إلا عن طريق الكلام . ومن الممكن أن يعقد الشخص شبهاً بين اللغة والفونيم (كلاهما صورة مجردة) وبين الكلام والألوفون (كلاهما شيء حقيقي واقعي) .

القسم الثالث

علم اللغة الوصفي

(منهج البحث)

٢٥ ــ التحليل الفونيمي والمورفيمي [١]

إن الاهتمام الأول لعالم اللغة الوصفي ينصبّ على الأصوات وعلى الصيغ النحوية للغة المتكلمة . ولذا فإن منهج بحثه يتجنب عادة الاعتماد على المادة المكتوبة من ناحية، واقتفاء أثر القواعد النحوية التقليدية القديمة من ناحية أخرى، وذلك لأن الدراسة الأخيرة قد أسست جزئياً على لغات قديمة بطل استعمالها ، كما أن أصحاب هذه الدراسة يأخذون الصورة المكتوبة للغة على أنها أساس البحث ويردون إليها كل ظواهر اللغة المتكلمة . ويندر أن تجد أياً منهم في تناوله للجزئيات يؤسس نتائجه على الملاحظة العلمية أو الاستقراء .

أما منهج البحث التحليلي لعلماء اللغة الوصفيين فقد تطور على وجه الأخص نتيجة ارتباطه بدراسة ما يسمى بلغات الشعوب المتخلفة التي لم تعرف الكتابة بعد، حيث لاتوجد أي صيغة مكتوبة للغة ، وليس هناك محاولات مسبقة لوصف نحوي، ولا وسيلة للحصول على اللغة في أي صورة أخرى غير صورتها المنطوقة.

وقد بدأ المنهج الوصفي بدراسة ساذجة قام بها رجال غير متخصصين في

---

(١) هناك تفصيلات مفيدة لهذا الموضوع في كتاب Hockett المسمى : A Course in Modern Linguistics صفحات ١٠٢ - ١١١ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ . كذلك في كتاب Gleason المسمى Introduction to Descriptive Linguistics صفحات ٢٧١ - ٣١١، ٦٥ - ٩١ . ولذا ينصح القارىء بالرجوع إليها .

دراسة اللغات كان كل همهم اكتساب اللغات الأجنبية عن طريق الأذن بسماعها من أصحابها .

وهناك محاولات أخرى في هذا الاتجاه الوصفي تمت على يد بعض المبشرين الأولين حين وضعوا قوانين للغات تلك الشعوب التي اتصلوا بها ، ولكن تقنينهم كان أشبه بالتقعيد البدائي .واهتمامهم بالمفردات كان منصباً على الجزء الذي يخدم الأغراض الدينية ، ويساعد على ترجمة الكتاب المقدس . ولكن هذه المحاولات المبكرة – مع الأسف – قد فقدت قيمتها نظراً لسيطرة الاتجاه الفلسفي عليها ، وهو اتجاه كان شائعاً حينئذ ، بالإضافة إلى ما كان سائداً بين اللغويين من وجوب صب اللغات كلها في قوالب عالمية موحدة مصبوبة على نمط اللغتين اللاتينية واليونانية ، بدلا من محاولة التقعيد لكل لغة بحسب ظروفها الخاصة . وإن الإسهام الكبير الذي قدمه اللغوي الحديث لوصف اللغة يتمثل في معرفته بالأسس الفونيمية والمورفيمية التي تسمح بوصف تفصيلي دقيق إلى حد كبير ، لايقارن بما يمكن أن يحققه منهج يقوم على الأذن غير المدربة أو الاستنتاجات العشوائية .

وإن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية ، حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها ، وهو الذي يعرف فنياً باسم الراوي اللغوي Informant . ودرجة الثقافة المطلوبة في الراوي اللغوي أمر نسبي . ففي حالة اللغات المستعملة في مجتمعات متخلفة لامعنى مطلقاً لإثارة مثل هذا السؤال ، ولكن بالنسبة للغات مجتمعات متحضرة ، فهؤلاء الرواة يمكن أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله وتقعيده . فإذا أراد أحد أن يصف اللغة الفرنسية كلغة يتكلمها أكثر الناس ثقافة في فرنسا فيجب أن ينتقي الراوي من بين الطبقات العالية الثقافة . مثل أساتذة الجامعة ، والمحامين ، والأطباء ، وموظفي الحكومة . وإذا أريد وصف لغة الأحياء القذرة في باريس وتحليلها ، فإن الأوباش والمومسات يمثلون هذه اللغة

أحسن تمثيل . وإذا أريد شيء بين بين أمكن الرجوع إلى طبقة الخبازين والجزارين والخدم . وفي كل هذه الحالات حين يتيسر الحصول على راو يمثل اللغة الحية يجد الباحث نفسه مزودا بما يسمى بالظروف البيئية field conditions وهي على طرفي نقيض مع مايسمى بالظروف الفلولوجية philological conditions التي تميز العمل الذي يقوم به علماء اللغة التاريخيون الذين يتخذون مادتهم الأساسية من الوثائق والنقوش وغيرها من المادة غير الحية .

والخطة المزدوجة التي تجمع بين جمع المادة ثم فحصها ومقارنتها تبدأ على شكل أسئلة صيغت خصيصى ليمكن عن طريق توجيهها للراوي أن تكشف عن كيفية التعبير عن أشياء معينة في لغته . وعادة ما يتدرج الباحث من الكلمات القصيرة السهلة إلى التعبيرات الطويلة والجمل الكاملة . أما الإجابات فيجب أن تكتب بالرموز الصوتية . وكلما سجلت تفصيلات أكثر كان أفضل ، وربما استخدم جهاز التسجيل أو الأسطوانة أو كلاهما إلى جانب ذلك .

وفي اللحظة التي يتجمع فيها لدى اللغوي المادة الكافية يبدأ عمله التصنيفي والاستنتاجي ، وعلى أساس من خبرته العلمية الخاصة في الفونيمات يقرر أي الأصوات المتقابلة أو المتضادة تناسب موقعية معينة وأيها لايناسب . وحينئذ يجب عليه أن يفصل الفونيمات الحقيقية للغة من الألوفونات . وخلال ذلك الوقت يجب أن تتكون عنده صورة كاملة عن التركيب الفونيمي للغة وعن الألوفونات التي تكون كل فونيم ، مع صورة واضحة عن الظروف المعينة التي بتحققها يقع الألوفون المعين .

ولنوضح ذلك بالمثال نقول: لو فرضنا أن اللغة الإنجليزية الأمريكية تعتبر لغة غير معروفة وغير مكتوبة ، فلكي تكون موضوعاً لخطة فونيمية تحليلية ينبغي على اللغوي أن يحصر الفونيمات عن طريق ما يعرف فنياً باسم الثنائيات الصغرى minimal pairs وذلك بأن يمتحن كل كلمتين تتفقان تماماً في كل الأصوات ماعدا واحداً منها مثل sit و fit ، أو set و sit ، أو sip

و sit . فإذا استلزم التغيير الصوتي تغييراً في المعنى يعلم حينئذ أنهما فونيمان مختلفان ، ويصنفهما كذلك في نظامه الصوتي . إن السبب في اختلاف المعنى بين sit و fit مع اشتراك جميع الأصوات ماعدا واحداً هو — ولا شك — راجع إلى الصوت المختلف . وعلى هذا يجب في الإنجليزية الأمريكية اعتبار /S/ و /F/ فونيمين مختلفين . ومن ناحية أخرى قد يلاحظ الباحث اختلافا بسيطاً بين الـ P في Sip و pit و spit وربما أخذه الشك أول الأمر حول ما إذا كانت هذه الباءات الثلاث تشكل فونيمات مختلفة في اللغة أو لا . ولكن بعد أن تتجمع عنده أمثلة كثيرة سيستنتج من مقارنتها أن هذه الأصوات تقع في أماكن متغايرة ويستحيل أن تتبادل موقعيتها ، أو تتعاور على المكان الواحد . ولذا فهو يصل في النهاية إلى أنها ألوفونات لفونيم واحد . ومعنى هذا أن نظامه النهائي لفونيمات اللغة سيشتمل على فونيم واحد هو /P/ مع ثلاثة ألوفونات محتملة تقع تحت ظروف معينة .

وإذا كانت اللغة المجهولة المراد تحليلها هي الإيطالية فإن الباحث قد يتساءل أولاً ما إذا كان الاختلاف الصوتي بين eco و ecco ، أو بين cade و cadde ، أو بين ala و alla — له طبيعة فونيمية أو أنه اختلاف نطقي راجع إلى الهوى الفردي ، ولكن بمجرد أن يعرف أن eco تعني echo الإنجليزية . بينما ecco تعني here is ، وأن cade تعني he falls بينما cadde تعني he fell ، وأن ala تعني wing بينما alla تعني to the — فسيصل إلى النتيجة أنه في اللغة الإيطالية كل ساكن طويل أو منبور (وهو الذي يمثل في الكتابة الإيطالية عن طريق تكرير الحرف) يشكل فونيماً يختلف عن مقابله القصير أو غير المنبور . ومعنى هذا أن نظامه الفونيمي للغة الإيطالية يجب أن يعترف بوجود فونيمين لكل صوت ساكن ، أحدهما وهو مفرد ، وثانيهما وهو مضعف .

كل هذه الخطوات تبدو بسيطة إلى حد كبير أكثر مما هي عليه في الواقع .

فهناك مجموعات كبيرة من العوامل الثانوية تتدخل في صياغة الأحكام النهائية .

هناك مثلاً قضية المماثلة الصوتية : هل الـ P في صورها الثلاث في الإنجليزية الأمريكية متماثلة في طبيعتها بقدر كاف ، وفي مخرجهـا ، حتى يكون ذلك مبرراً لاعتبارها ألوفونات ؟ نعم هي كذلك . وربما كان شذوذاً كبيراً — وإن لم يكن بعيداً عن التصور — أن ينظر إلى P الشفوية مع K الطبقية على أنهما يقومان بوظيفة ألوفونات لفونيم واحد ، يقع كل منهما في تجمعات معينة [(١)] . ولكن لاحظ حينئذ أن الإنجليزية تشتمل على [(٢)] /n/ و / ŋ / وهما متماثلان في طبيعتهما ، ويقعان أحياناً — ولكن ليس دائماً — في مواقع متغايرة فيقع الصوت / ŋ / في الكلمة anchor (بسبب المماثلة assimilation للصوت الطبقي التالي) ، ولكن ليس في الكلمة enter . ولاحظ كذلك أن /n/ يمكن أن تقع أيضاً في أول الكلام بينما /ŋ/ لا يمكن . وهذا مما يثبت ما قلناه من تغايرهما الموضعي ، ولكن هنا العامل المؤثر في اعتبار /n/ و/ ŋ / في الإنجليزية فونيمين منفصلين تقابلهما في الثنائيات الصغرى minimal pairs كما في Kin و King . وفي الإيطاليـة يوجد من النـاحية الصوتية الصوتان /n/ و / ŋ / ، الأول كما في dente والثاني كما في bianco ، ولكن في الثنائيات الصغرى لايوجد بين الصوتين تقابل ، بمعنى أن وضـع أحدهما مكان الآخر مع بقاء سائر الأصوات على ماهي عليه لايغير المعنى . ولهذا فهما يعدان في نظام الفونيم الإيطالي ألوفونين لفونيم واحد . وهذا كله يوضح الحقيقة بأن الاعتبارات المختلفة لابد أن تدرس ، ويقارن بعضهـا ببعض ، ويرجح أحدهما على الآخر .

وهناك مزالق فونيمية في التحليل قد أشار إليها Gleason ومن بينهـا

---

(١) توجد هذه الظاهرة في بعض اللغات المغمورة . كذلك توجد في بعض التطورات التاريخية ، كما حدث للاتينية حينما تحولت إلى الرومانية . ولكن يجب أن نذكر أن علم اللغة الوصفي لا يعالج التطورات التاريخية ، وإنما يصف حالة لغة معينة في وقت معين .

(٢) الرمز ŋ موجود في الرموز الصوتية الدولية ليدل على الصوت « ng » الموجود في « sing » .

المبالغة في تقدير اختلافات صوتية موجـــودة over-differentiation و التقليل في تقدير هـــذه الاختلافات under-differentiation . وكلاهما يحـدث بسبب وقوع المحلل اللغوي تحت تأثير عاداته اللغوية الخاصة. وإن محللاً يتكلم اللغة الإنجليزية ربما غررت به طبيعته وجعلته يخلط الـ «K» والـ «q» العربيتين ، ويضعهما تحت فونيم واحد مماثل للأصوات الطبقية الإنجليزية الموجودة في [1] kin و Cool . ولكن الاختلاف الـــدلالي بين كلمتي : كلب وقلب العربيتين كاف لإثبات خطئه . ومن ناحية أخرى فإن المحلل العربي ربما ظن خطأ وجود خلاف فونيمي بين الألوفونين الإنجليزيين (للصوت المهموس الطبقي الإنفجاري) اللذين يقع أحدهما قبل العلة الأمامية ، والآخر قبل العلة الخلفية (kill و cool) فيتصور خطأً أنهما فونيمان اثنان إلى أن يلاحظ اختفاء الأساس في التقسيم الفونيمي وهوتغير المعنى مع تغيير الفونيم . ويعجز عن العثور على أي ثنائيات صغرى .

وهناك كذلك احتمال الخطأ في التجزيء Segmentation . فمـــن الناحية الصوتية نجد ch الإنجليزية الموجودة في church ، و tsch الالمانية الموجودة في Deutsch متماثلين . ولكن دقة التوزيع الصوتي في الإنجليزية أو التجانس الموجود في التركيب الفونيمي يبدو مرشحاً لاعتبار هذا الصـــوت فونيماً واحدا . الإنجليزية تملك سلسلة من الأصوات الطبقية وهي [1] چ

---

(١) يوجد خلاف بين الصوتين في الموقعية . فهما في الإنجليزية ألوفونان لفونيم واحد هو K ، الأول منهما يقع قبل العلة الأمامية ، والثاني منهما قبل العلة الخلفية.

(٢) الرمز/ چ /في الرموز الصوتية الدولية يمثل الصوت ch في church ، و/ڒ/ يمثل j في jet و/ ʃ /يمثل sh في show ، و/ ʒ / يمثلS في pleasure ، و / ʎ / يمثل lli في million و /ɲ/ يمثل ny في canyon . ولكن في الصوتين الأخيرين يفضل بعض الأصواتيين أن يستعملوا الرمزين المركبين lj و nj اللذين يعدان أكثر دقة في تمثيل هذين الصوتين من غيرهما. ولاحظ ذلك أن كثيرا من الأصواتيين يفضلون أن يعتبروا / چ /و(ڒ /أصواتا مركبـــة composite sound أو affricates ؛ ch مركبة من / t / + /ʃ/ و / ڒ / مركبة من / d / + / ʒ /.

و/ ق / و / ʃ/ و / ʒ / و / ʎ / و / ɲ / بينما يوجد في النظام الألماني فونيم واحد هو خ يمكن أن يعبر عن أي صوت آخر في الصف ماعدا

/ʃ/ . ولهذا فمن المفضل – وإن لم يكن قسريا – اعتبار tsch الألمانية كتتابع لفونيمين اثنين هما /t/+/ ʃ / . وهناك اصطلاح هو الأزواج المشتبهة suspicious pairs ، ويستعمل في حالة ما إذا بدا أن صوتين هما متماثلان صوتيا ، وعلى هذا يظن اعتبارهما ألوفونين لفونيم واحد .

وإن التحليل الفونيمي كثيرا ما يصيبه الاضطراب نتيجة لتعدد الصور النطقية ،كما يبدو في كلمة with التي ينطقها بعضهم مجهورة/ ð /وبعضهم

مهموسة/ θ /. وبالنسبة لبعض اللغات توجد صعوبة أخرى ، وهي التمييز

بين النغمات الصوتية التي تعد ذات قيمة فونيمية كاملة ، في مقابل الأخرى ذات القيمة الثانوية الإضافية . وهنا يقترح Gleason القيام باختبارين مفيدين ، أولهما اختبار الرتابة monotony test حيث ينطق بمجموعة من الكلمات ذات اللحن المشترك الواحدة بعد الأخرى لتنتج وحدات رتيبة مكررة . فإذا أدرجت كلمة ذات لحن مختلف داخل السلسلة انكسرت الرتابة الموسيقية [١] . أما الآخر فهو بناء إطارات أو أشكال نغمية عن طريق وضع الكلمات متلاصقة مع سلسلة من كلمات أخرى – مثل الأعداد – تعرف نغماتها [٢] .

---

(١) في دراسة Gleason للغة Ewe الموجودة في غرب إفريقية ، والتي لها ثلاث نغمات عالية ومتوسطة ومنخفضة ، عمل اختبار عن طريقه وضعت كلمات متنوعة مكونة من مقطع واحد وضعت متتابعة وطلب من أحد أبناء اللغة أن ينطق بها . فإذا حدث وكانت كل الكلمات ذات نغمة واحدة فستكون النتيجة مجموعة من النغمات الرتيبة الموحدة . فإذا كانت نغمة كلمة ما غير مؤكدة فإنه كان يقوم بوضعها في تتابع معين ، فإذا اتفقت نغمتها مع الأخريات المعروف لحنها فإنها تنسب إلى هذه المجموعة النغمية . أما إذا كانت النتيجة كسر الرتابة فإنه يجرب وضع هذه الكلمة في مجموعة نغمية أخرى . وهكذا حتى تتناسب مع واحدة منها .

(٢) فالاسم الذي يشك في نغمته يمكن أن يقترن بالأعداد من ١ إلى ٦ واحدا بعد الآخر . هذه =

وإن التوسع في استخدام أجهزة التسجيل في مجال العمل الفونيمي قد قلل — إلى حد كبير — من متاعب المحلل اللغوي ، حيث إنه يسمح بالتسجيل الموضوعي للأصوات الفعلية المنطوقة ، ويكمل النقص في استخدام الرموز المكتوبة ، الذي يتأثر عادة بعوامل ذاتية ناتجة عن سماع المحلل وثقافته . ولكن حتى الأصوات المسجلة يجب في النهاية أن يقوم المحلل بترجمتها وتفسيرها معتمدا على أذنه وفهمه . ولهذا فإن قيمتها الرئيسية تعود إليه أخيرا .

وعند هذه النقطة يجب أن نشير بوجه خاص إلى الكتابة الفونيمية للغات المعيارية . في حين أن الكتابة الصوتية تمثيل موضوعي للأصوات ، فإن الكتابة الفونيمية تؤسس على إحساس المتكلم بالفروق الصوتية ، والتفريق الذي يرى وجوده بنفسه . وهذا يعني أن ما يعد رموزا كتابية مرضية لنوع من اللغات مثل الإنجليزية لا يلزم بالضرورة أن يكون دقيقا مائة في المائة بالنسبة للغة أو لهجة أخرى . إن صوت العلة الموجود في lot و not و pot هو — موضوعيا وصوتيا — (a) في فم المتكلم الأمريكي في الجملة ، ولكنه (ɒ) أو (ɔ) في فم المتكلم الإنجليزي .

وهذا بدوره يعني أن الكتابة الفونيمية للغوي ربما لاتتفق مع كتابة لغوي آخر . فكل منهم يميل إلى أن يستعمل ويكتب الصورة الصوتية للهجته الخاصة . وعلى سبيل المثال فإن حرف العلة في leave و feel يختلف تقديره وكتابته بالنسبة الى الرجل الإنجليزي عنه بالنسبة للرجل الأمريكي . فالإنجليزي يمثله بالرمز [i:] (علة طويلة خالصة) ، ولكن الأمريكي يمثله بالرمز (ij) (علة قصيرة خالصة متبوعة بـ Y انحدارية glide) ولهذا فإن معظم من يمثلون الصوت بالرموز الكتابية يلفتون نظر قرائهم إلى هذا النوع الذي لامفر عنه من الإقحام لخصائص لغتهم في مجال التمثيل الكتابي .

— الأعداد معروفة نغماتها ، فإذا كانت نغمة الكلمة صاعدة أو هابطة أو في نفس المستوى مع أي من الأعداد صار من الميسور ردها إلى ما يناسبها من المجموعات النغمية .

وإن عملية التحليل المورفيمي لتطابق تماما تلك التي وصفناها فيما سبق ، ما عدا أن التحليل هنا ينصب على المورفات أو أصغر الوحدات ذات المعاني التي ينبغي أن تحلل إلى مورفيمات وألومورفات . وفي المجال التطبيقي يتصاحب عادة التحليلان الفونيمي والمورفيمي ولايتتابعان ، ولكن مع تسجيل ملاحظات المحلل اللغوي منفصلة ، ثم يتصاحب التحليلان وبخاصة حين يتقدم سير البحث .

وهنا نقول مرة ثانية إنه إذا كان هناك تقابل أكيد في المعنى أمكن الباحث أن يعدهما مورفيمين منفصلين . ولكن إذا كان المورفان يحملان نفس المعنى ويستعملان في موقعيتين مختلفتين فيجب اعتبارهما ألومورفات لمورفيم واحد . فـ (ing —) الموجودة في working في مقابل (ed —) في worked كل منهما يحمل معنى خاصا مختلفا ، ولهذا فهما مورفيمان . أما (t —) المنطوقة التي تظهر في worked و (d —) التي تظهر في filled ، وتغير العلة الموجودة في found — find وحتى التغيير الصفري zero change من صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في put — put ، كل أولئك يحمل معنى واحد وهو الماضوية . ولهذا يمكن اعتبارها كلها ألومورفات لمورفيم واحد ، وهو الدلالة على الماضي .

وهنا يقترح Gleason بحق أن يتخذ أحد الألومورفات كصيغة أساسية base — form ، ويعتبر الباقي بدائل replacives . فإذا أردنا اختيار صيغة أساسية بناء على درجة تكرار الوقوع نجد أن d في filled و dallied, toyed هي الصيغة الأساسية للمورفيم الدال على الماضوية . وعلى هذا نعتبر « t » في worked و stopped و (id) في ended ، وتغير العلة في found والتغير الصفري في put — كل أولئك ألومورفات بديلة ، « انظر المبحث رقم ٢٢ » .

وجمع أنواع العوامل المورفونونيمية . وبخاصة ما يعرف بالمماثلة

assimilation ، والمخالفة dissimilation تتدخل في التحليل المورفيمي .

إن الألوموروف عادة مشروط بفونيمات معينة تحيط به . وهذه الفونيمات يكون لها التأثير غالبا (مثال ذلك من الإيطالية كلمة amico وجمعها amici حيث جذبت الـ c نحو الطبق تحت تأثير عامل المماثلة لصوت العلة الأمامي (i-) الدال على الجمعية . ومثاله من الإنجليزية السابقة النافية (-in) في الكلمة intransitive التي تصير في الكلام / iŋ / في incapable بجرها نحو الطبق تحت تأثير الساكن الطبقي التالي . وتصير (im) منطوقة وحتى مكتوبة في impossible بتلوينها بالصبغة الشفوية تحت تأثير الصوت الشفوي P) . وآخر خطوة في التحليل اللغوي هي وضع قواعد النحو ، والإعداد لتصنيف مفردات اللغة على أساس من المبادىء الوصفية وطرق البحث التي سبق شرحها .

فمن الناحية النحوية – على سبيل المثال – يجب على المحلل أن يقوم ببيان أنواع الصيغ للغة التي يحللها ، وقواعد تبديل الصيغة لتشكيل أنظمة جديدة كنظام النفي أو الاستفهام في الجملة ، وكذلك المعالم الخاصة الموروثة في اللغة موضوع البحث . « انظر المبحث رقم ٢٣ » .

ومن وجهة نظر علم المفردات اللغوية فإن المحلل ينبغي أن يزودنا بقائمة للرصيد العام للمورفيمات في اللغة موضوع البحث – مصحوبة بإمكانيات تجمعاتها – مع تعيين الصيغ النحوية الكاملة lexemes كلما أمكن ، وكذلك التعبيرات الاصطلاحية idioms وما تستخدمه اللغة من السوابق واللواحق ، « انظر المبحث رقم ٢٤ » .

وآخر نتاج لمجهود المحلل اللغوي سوف يكون النحو الوصفي للغة موضوع البحث ، كما ستتحدث في المبحث التالي .

٢٦ ــ بناء نحو وصفي

حينما ينتهي الباحث اللغوي من التحليل الفونيمي والمورفيمي للغة موضوع البحث ومن استخلاص الملامح النحوية الخاصة بها يجد تحت يديه نحواً وصفيا لهذه اللغة . وهنا يجب التنبيه إلى أن النحو الوصفي لا يراد به هنا هذا النوع من النحو المدرسي الذي يعد للاستعمال العادي ، وإن كان نحواً يمكن اتخاذه أساساً لبناء نحو مدرسي تطبيقي بأسلوب علمي .

إن النحو الوصفي سوف يقدم قائمة دقيقة بالفونيمات الموجودة في ـــ مع ذكر ألوفوناتها ، وبيان الظروف والملابسات التي بتأثيرها تظهر هــذه الألوفونات . وهو سوف يقدم كذلك وصفاً للفونيمات فوق التركيبية الموجودة في اللغة (التنغيم ــ النبر ــ المفصل) . وعلى أساس من هذه البيانات العلمية الدقيقة يصبح من الممكن أن توضع في شكل دروس سلسلة من التمرينات النطقية . والتدريبات التي تأخذ بعين الاعتبار الصعوبات الصوتية والفونيمية الموجودة في تلك اللغة ، مع التركيز على هذه الملامح الخاصة التي قد تسبب بعض المتاعب لأولئك المتعلمين الذين يدرسون اللغة من خلال تصورهم للغة أخرى . ومن الممكن في هذه الحالة وضع الملامح الفونيمية لكلتا اللغتين في خطين متوازيين حتى تسهل المقارنة . ويمكن بناء على هذا مس الظواهر المشتركة بينهما مساً خفيفاً ، والتركيز على تلك النقاط محل الخلاف . فإذا أراد أسباني تعلم اللغة الإنجليزية فإنه لابد ــ على سبيل المثال ــ من تدريبه على أن يميز فونيميــاً بين صوتي العلة في leave و live حتى يتمكن من التغلب على تلك الصعوبة الناتجة عن ميله الطبيعي لخلط الصوتين واعتبارهما فونيماً واحداً . ومن الجانب الآخر فإن الإنجليزي إذا أراد دراسة الصينية فإنه ينبغي حين تدريبه التركيز عــلى الفرق الفونيمي في اللغة الصينية بين p الموجودة في pit وتلك الموجودة في spit وهو مايعد في نظره فونيماً واحداً . والمتعلم للغة الإيطالية يمكن أن يزود بتدريبات واسعة للتفريق الفونيمي بين الساكن المفرد والساكن المضعف

وكل هذه التفريقات ستظهر – ولا شك – في النحو التطبيقي المؤسس على النحو الوصفي ، لا في النحو الوصفي نفسه .

وحيث ان التحليل الفونيمي للنحو الوصفي يقوم أساساً على اللغة المتكلّمة فإن الوصف سيتناول الأصوات (أو الفونات ووظائفها) ، ولن يتناول الحروف الهجائية ، ولا الأصوات التي تمثلها . ومن المسموح به – قطعاً – حتى من وجهة النظر الوصفية ، أن يصدر الباحث حكماً كهذا : « الفونيم /e/ – الذي سبق أن شرحناه وبيّنّا ما ينقسم إليه من ألوفونات أو ما يمكن أن يسمى بصوره الموقعية [e] و [ɛ] – يظهر في الهجاء الفرنسي في أحد الأشكال الآتية : ei, ai, ê, è, é ولكن ما لا يصح أن يفعلــه النحو الوصفي أن يقول مثلا : « إن الرمز الفرنسي المكتوب e ينطق كذا أو كذا ، بناء على شكل الرمز الذي يوضع فوقه ، أو عدم وضع رمز على الإطلاق » . إن نقطة الانطلاق يجب أن تبدأ من الصورة المنطوقة إلى المكتوبة ولا عكس .

وفي حين نجد الكتابة الفونيمية عادة أكثر اقتصادية في المكان أكثر من أختها الصوتية التي تمثل الأصوات كما تنطق في واقع الأمر ، نجد الكتابة الصوتية تحتاج إلى معرفة دقيقة بالأشكال الموقعية (ألوفونات) للفونيمات المختلفة . ومن الممكن أن يقال للمتعلم « إن الفونيم الرئيسي / e / يكون ألوفوناً ضيقاً حينما يقع في آخر المقطع ، ويكون ألوفوناً واسعاً إذا تلاه صوت ساكن في نفس المقطع » ولكن ذلك ليس على درجة كبيرة من الصواب بالنسبة للمتعلم المبتدىء ، كما لو أعطى تحديداً دقيقاً للصوتين باستعمال رمزين مختلفين هما [e] و [ɛ] . ولكن تطبيق المبادىء الوصفية الكاملة على النحو التعليمي للمبتدىء يجب أن يكون مع شيء من الحــذر . ومؤسساً عــلى الظــروف والاحتياجات المطلوبة .

وإن مادة القواعد – سواء كانت صرفية أو نحوية – تقدم في المنهج الوصفي بنفس الطريقة . و هنا نقول – مرة أخرى – إن المقارنة من وقت لآخر بين

نظام المورفيمات في كلتا اللغتين ربما كان ضرورياً . ومن الفوائد التي يقدمها المنهج الوصفي في دراسة القواعد إقناع المتكلم للغة الأجنبية بخطأ ما قد يبدو له من سهولة لغته بالنسبة للغات الأخرى . إن المتكلم الإنجليزي الذي يظن أن كل مايتطلبه الجمع في الإنجليزية هو إضافة s أو es إلى المفرد ستبدو عليه الدهشة غالباً إذا عرف أنه في لغته المتكلمة توجد ألومورفات عدة تندرج تحت مورفيم الجمع في اللغة الإنجليزية مثل (/S — / ، و /z — / ، و /iz — / ، وتغيير العلة ، وإضافة en ، والتغيير الصفري) بالإضافة إلى ماقد يحدث من تغيير مورفوفونيمي لأصل المورفيم كما في knife التي تجمع على knives و house التي تجمع على houses . وإنه ليدهش كذلك حين يلاحظ أنه بينما لايوجد في الأفعال الإنجليزية كثير من النهايات التصريفية — فإنها في الغالب تتضمن مجموعات متشابكة من المورفيمات الحرة العديدة المنبتة الصلة مثل : (must, should, would, will, had, has, did, does, do).

وهذا النحو من المقارنة — على أي الحالات — لايبدو استخدامه ضرورياً في النحو الوصفي الذي يوضع لسد حاجة المتخصصين الذين هم بالفعل على معرفة بالمشاكل والمزالق .

٢٧ — إعداد الأطلس اللغوي

كان إعداد الأطالس اللغوية أسبق في الوجود من معظم الإنجازات الوصفية الحديثة ، وهو يعتمد — إلى حد كبير — على مفردات اللغة التي تعد في نظر الوصفيين في الدرجة الثانية من الأهمية . ولكنه — مع ذلك — اتبع منهجاً يمكن أن يوصف على الأقل بأنه وصفي ، وبأنه خير مثل للعمل اللغوي تحت ظروف البيئة المعينة . وعلى الرغم من أن هذا العمل قد بدأ أساساً على يد اللغويين التاريخيين لأغراض تاريخية في معظمها فإنه قد وضع الأساس لنموذج الدراسة الوصفية العملية في مجال البحث اللغوي .

إن الأطلس اللغوي قد أعد أساساً ليكون مرشدا إلى اللهجات الحية للغة ما، وكان ظهوره مدينا – إلى حد كبير – للجدل والمناقشة بين النحاة واللغويين المحدثين في القرن التاسع عشر (انظر المبحث رقم ٤٨) . وفي محاولتهم لإثبات التنوع اللانهائي للغة ، وعدم خضوع اللغة لمعايير محددة في تغيراتها الصوتية– أشار اللغويون المحدثون إلى تعدد اللهجات المحلية لبلاد مثل فرنسا وإيطاليا ، وأخذوا على عاتقهم مهمة إثبات فكرتهم عن طريق عمل خرائط لهذه اللهجات . ولكن حين قيل كل شيء وتم تنفيذه لم يصل اللغويون إلى إثبات أو نفي ما تعلق بموضوع خصامهم الأساسي ، لأن كل لهجة يمكن – بل ينبغي– أن تعرض – من الناحية اللغوية – باعتبارها لغة مستقلة قائمة بذاتها ، خاضعة لقوانينها الصوتية التي تخصها ، لا القوانين الصوتية التي تحكم اللغة الوطنية ككل.

ومنذ اللحظة الأولى أصبحت تلك الأطالس اللغوية أداة قوية في يد علم اللغة الوصفي يستخدمها لمصلحته . لقد ألقت ضوءا على الصيغ الحية للغة أي بلد ، بالإضافة إلى ما تحويه من خصائص لهجية متنوعة . وقد ساعد هذا كثيرا علماء اللغة التاريخيين ، وبخاصة عند تحديد معالم التغير التي تمت في الماضي حينما تكون الشواهد المطلوبة مفقودة أو غير كافية . وهذه الأطالس – إلى جانب ذلك – تمد علماء اللغة الجغرافيين بمعلومات مفيدة عن مراكز اللغات في العالم ، وما يستعمل منها ، وما يعتري أياً منها من تغيير أو استبدال في مناطق معينة . وإن اهتمام علماء الأطالس اللغوية بدراسة الظواهر اللغوية الحديثة المتكلمة ، واستخدامهم للتكنيك العملي الذي ينتقل إلى حقل التجربة يجعلهم أقرب إلى المجال الوصفي للغة دون التاريخي أو الجغرافي .

ويرسل جامعو المادة اللغوية المطلوبة إلى الاماكن المحلية التي يقع عليها الاختيار من إقليم ما – رسمت حدوده – لعمل خرائط له ، مع الاستعانة براو يمثل المتكلمين المحليين .

والغرض من ذلك السير في الطريق السليم للتزود بمجموعات الكلمات أو العبارات أو الجمل – أو حتى مدلولاتها – التي سبق إعداد مقابلاتها (كلما كان الراوي

اللغوي أقل ثقافة كان أفضل ، لأن المتعلمين أو الأكثر تعلماً في المنطقة تتأثر لغتهم بمعلوماتهم واحترامهم للغة الأدبية الوطنية) . وفي حالة المسميات الممكن تصويرها تستخدم الصور حتى لايقع الراوي اللغوي تحت تأثير صيغة الكلمة الموجودة في السؤال . وبعد ذلك ، فإن المادة التي ينطقها الراوي اللغوي إما أن تكتب بالطريقة الصوتية ، أو تسجل على جهاز تسجيل ، أو تُستخدم الطريقتان معاً . وفي مرحلة المقابلة والمعارضة فإن كل كلمة أو عبارة أو اصطلاح يوضع على خريطة مستقلة كبيرة للمنطقة . ويحتوي الأطلس اللغوي لفرنسا — على سبيل المثال — على خريطة منفصلة كبيرة لكلمة « حصان » — كما تستعمل في لغة الكلام — في حوالي خمسمائة منطقة فرنسية مختلفة . وهناك خريطة ثانية للكلب وثالثة للقط وهكذا . والمحصل النهائي لهذه الخرائط يعطينا مجموعات من الخطوط المتقاطعة التي تمثل كل منها واحدة من الخمسمائة لهجة محلية . ليس فقط فيما يتعلق بالمفردات ، ولكن أيضاً فيما يخص مجموعات الكلمات التي تخدم الغرض النحوي . وبهذا يصبح من الممكن تماماً استخلاص نحو وصفي لكل لهجة من تلك اللهجات المحلية باتباع أسس التحليل الفونيمية والصوتية السابق الإشارة إليها .

والأطلس اللغوي يصبح بعد إتمامه مرجعاً للغوي ، حيث يزوده بالمعلومات التي يريدها بدلا من الخروج بنفسه ، ومحاولة الذهاب إلى الحقل اللغوي في المنطقة موضوع اهتمامه . وإن كان نزول اللغوي المباشر إلى الحقل اللغوي قد يصبح ضرورياً مع وجود الأطلس اللغوي حينما تواجهه مشاكل خاصة .

وهناك واحد من أهم العيوب التي تقلل من قيمة الأطلس اللغوي ، وهو أنه لايثبت على مر الزمن ما دامت اللهجات المحلية تتغير ربما بدرجة أسرع من اللغة الوطنية . ولهذا فإنه في بعض الأحيان يعاد إجراء عملية المسح اللغوي بعد مرور سنوات عدة ، ويصبح من الممكن حينئذ عمل مقارنة بين نتائج الأطلسين وتكوين صورة شبه تاريخية عن التغيرات المتشابكة في كلام مجتمع معين .

ويطلق مصطلح الجغرافيا اللغوية linguistic geography على الدراسات اللهجية المؤسسة على الأطلس اللغوي . وهذا اسم غير موفق ، حيث يعي معظم الناس غير المتخصصين يظنون أنه يعني توزيع اللغات في العالم ، أي ما سميناه بعلم اللغة الجغرافي geolinguistics .

القسم الرابع

علم اللغة التاريخي

(اصطلاحات أساسية)

٢٨ ـ نقاط اتصال مع علمي اللغة الوصفي والجغرافي

إن علم اللغة الوصفي يمكن أن يوصف بأنه علم ساكن static ، ففيه توصف اللغة بوجه عام على الصورة التي توجد عليها في نقطة زمنية معينة ليس ضرورياً أن تكون في الزمن الحاضر .

أما علم اللغة التاريخي فهو علم يتميز بفاعلية مستمرة dynamic فهو يدرس اللغة من خلال تغيراتها المختلفة . وتغير اللغة عبر الزمان والمكان خاصة فطرية في داخل اللغة ، وفي كل اللغات ، كما أن التغير يحدث في كل الاتجاهات (النماذج الصوتية ، والتراكيب الصرفية والنحوية والمفردات) ، ولكن ليس على مستوى واحد ، ولا طبقاً لنظام معين ثابت . هذه التغيرات اللغوية تعتمد على مجموعة من العوامل التاريخية ، وبينما يمكن دراسة هذه التغيرات دراسة وصفية هي محض تعريف بأشكال التغيرات الحادثة ، فإنه لا يمكن عزلها عن الأحداث التاريخية التي تصاحب وجودها .

وبينما الوظيفة الأولى لعلم اللغة الوصفي هي أن يصف ، ولعلم اللغة التاريخي هي أن يعرض التغيرات اللغوية ، فمن الصعب كثيراً الفصل بين النوعين في مجال التطبيق العملي. وذلك لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال كذلك مع الفرع التاريخي .

وإن مدلولات المصطلحات : اللغة المعيارية standard language ،

واللهجة dialect ، ولهجة الطبقات الدنيا غير المكتوبة patois ، واللغة الخاصة jargon ، والعامية slang – كلها يدخل في ميدان الدراستين الوصفية والتاريخية، وكذلك في ميدان علم اللغة الجغرافي. (انظر المبحثين رقم ١٦ ، ٤٢) .

إن اللغة المعيارية standard language هي ذلك المستوى الكلامي الذي له صفة رسمية ، والذي يستعمله المتعلمون تعليماً راقياً (مثل لغة الملك أو الملكة في بريطانيا ، وتسمى كذلك باسم received standard) وغالباً ما تكون اللغة المعيارية في أول الأمر لهجة محلية تنال شيئاً من التمجيد أو التقدير ويعترف بها كلغة رسمية لسبب من الأسباب ، كأن تكون لهجة منطقة من البلد اتخذت مقراً للحكم (مثل الفرنسية الباريسية) ، أو لهجة مجموعة من الناس أصبح لهم سيطرة عسكرية (مثل القشتالية الأسبانية) ، أو لهجة منطقة لها زعامة أدبية (مثل التوسكانية في إيطاليا) .

أما اللهجات dialects فتعتبر مستويات محلية للكلام تبعد إلى درجة كبيرة أو صغيرة عن المستوى المعياري ، ولكنها يمكن التعرف عليها (أحياناً بالرجوع إلى الأصول التاريخية) باعتبارها تكوّن معه كلاً موحداً . أما المصطلح patois فيشير إلى هذا النوع من اللهجات الذي يتصف بالمحلية إلى درجة كبيرة ، كأن تكون لهجة قرية واحدة . ولا يظهر هذا النوع من اللهجات في شكل كتابي ، بينما تبدو اللهجات dialects في صورة مكتوبة ويظهر لها أدب مزدهر له جذوره البعيدة . وأما المصطلح jargon فيطلق على الكلمات الاصطلاحية الخاصة بطبقة معينة أو حرفة . أما المصطلح slang فيطلق على المستوى الكلامي غير الرفيع الذي تستعمله الطبقات التي يقل مستوى تعليمها وقد تكون واسعة الانتشار ، أو حتى على مستوى الوطن كله . ويمكن للمرء أن يميز بين درجات من الـ slang بمصطلحات مثل العاميات colloquialisms والابتذاليات vulgarisms ، والكلام دون المعياري substandard speech .

والمبرر الذكر هذه الأنواع تحت المبحث التاريخي ذو شقين : أحدهما ـها أكثر استخداماً على أيدي اللغويين التاريخيين منها على أيدي اللغويين الوصفيين . وثانيهما أن بعض الوصفيين يرفضون من الناحية العملية أن يعترفوا بوجود هذه الأنواع منفصلة ، ويعرّفون اللغة بأنها أي مستوى كلامي حي ، رفيعاً كان أو وضيعا .

والمصطلحات الآتية تستعمل على وجه الخصوص في الميدان التاريخي :

أما المصطلح الأول فهو « وحدة الأصل » monogenesis ، وهو يشير إلى النظرية التي تزعم أن اللغات كلها ترجع إلى أصل واحد مشترك .

والمصطلح الثاني هو « الطبقة السفلى » substratum ، ويطلق على الصيغة الكلامية المبكرة التي كانت تستعمل بواسطة السكان الأصليين في منطقة ما . فحين تتعرض هذه المنطقة للغزو الخارجي تختلط لغتها بلغة الغزاة . ونتيجة لذلك تأخذ الأخيرة شكلا جديداً . كما يحدث حينما يتكلم الإنسان ببعض كلمات من الأيبيرية أو الغالية — اللتين تعدان طبقة سفلى — حين حديثه باللغة اللاتينية التي جلبها الرومانيون إلى إسبانيا وفرنسا .

أما مصطلح « الطبقة العليا » superstratum فهو مصطلح وثيق الصلة بالسابق ويطلق على لغة الغزاة الوافدين التي تدع اللغة الأصلية على قيد الحياة ولكن بعد التأثير عليها وإعطائها شكلا جديداً ، كما حدث للفرنكيين واللومبارديين حينما تخلوا عن لغاتهم الألمانية ، واختاروا لاتينية الامبراطورية الرومانية ، ولكن بعد ترك آثار عليها من كلماته ، وربما خصائص فونولوجية ، أو حتى أصواتية ، مما أدى فيما بعد إلى ظهور اللغتين الفرنسية والإيطالية .

وهناك مصطلح يستعمل ليشمل النوعين السابقين وهو « الطبقة

الإضافية »[1] . adstratum .

ومن المصطلحات المستعملة إعادة التركيب reconstruction وهي محاولة بناء أصل نظري كلامي للغات الهندية الأوروبية عن طريق دراسة مقارنة تاريخية للسلائل المؤكدة . ومن الممكن أن يستعمل المصطلح كذلك لأي لغات غير مدونة يعتقد وجودها في الزمن الماضي . كما يستعمل في تركيب صيغ غير مؤكدة للغات معروفة — مثل اللاتينية أو القوطية . ومثال ذلك *sagja أو *sagwja الأصل الجرماني الافتراضي لكلمة say الإنجليزية . وعادة ما توضع علامة نجمة قبل الأشكال المعاد تركيبها في ميدان علم اللغة .

ومن المصطلحات المستعملة « القانون الصوتي » sound law . وهو يستعمل مع النظرية القائلة بأنه إذا حدث لأي تغير صوتي أن صار فعالاً في منطقة معينة وزمن معين ، فإنه يتوقع له أن يكون تأثيره عاماً ، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى أجنبية[2] . أما المعارضون لهذه النظرية فيؤسسون اعتراضهم على وجود تطورات متباينة في كلمات كان يجب على أساس هذه النظرية أن تكون متماثلة وهم لذلك يفضلون استعمال المصطلح « التغير الصوتي » sound change . ولكن المنادين بالنظرية الأولى يردون قائلين بأنه في مثل هذه الأحوال هناك عوامل معينة أدت إلى هذا التباين مثل التأثيرات التعليمية ، أو الاقتراض الأجنبي أو اللهجي ، أو القياس .

---

(١) قد يستعمل المصطلح language in contact — الذي روج له Weinreich — في بعض الأحيان مرادفاً للمصطلح adstratum . وعلى كل حال فإن المصطلح الأول يستعمل عادة للتعبير عن تعايش لغتين جنباً إلى جنب ، واحتكاكهما ، مع استمرار بقائهما لغتين مستقلتين حتى إذا كان لكل منهما تأثير على الأخرى. أما المصطلحات adstratum و substratum, superstratum فتتناول اللغات التي اختفت إحداها ، حتى لو تركت آثاراً لها على اللغة الأخرى الباقية .

(٢) على سبيل المثال : الحرف الابتدائي P في اللغات الهندية الأوروبية يظهر في السنسكريتية واليونانية واللاتينية في شكل p بينما يظهر في الجرمانية في شكل f . قارن اللاتينية pes و piscis و pater بالإنجليزية foot و fish و father .

كذلك يستعمل مصطلح « القياس » analogy ويراد به الميل العارض — الذي لا يمكن التنبؤ بحدوثه — من كلمة أو صيغة إلى الخروج عن مدارها الطبيعي في التطور والدخول في طبيعة كلمة أو صيغة أخرى لوجود مشابهة حقيقية أو متوهمة بينهما (مثال ذلك ماضي help الذي كان في يوم ما holp ولكن تحت تأثير الحقيقة أن معظم الأفعال تشكل ماضيها بإضافة الأصوات e أو d أو ed ، لا عن طريق التغيير الداخلي لصوت العلة — وجد الفعل helped ودخل الاستعمال) .

أما المصطلح « التيسير » simplification فيستعمل غالباً ، وربما على سبيل الخطأ ، في مجال الحديث عن التغير في لغة معينة ، حينما تحذف النهايات الإعرابية ، وتقوم الكلمات الإضافية ، أو أي وسائل أخرى بأداء وظيفتها (مثل اختفاء نظام الحالات الإعرابية الموجود في اللغة اللاتينية ، وإحلال موقعية الكلمة في الجملة وحروف الجر محله في اللغات الرومانسية . وقد حدثت نفس الظاهرة عند الانتقال من الأنجلوسكسونية إلى الإنجليزية الحديثة) [1] .

وهناك فرعان من الدراسة يتعلق كل منهما بالصيغة المكتوبة للغة ، كما تظهر في المكتوبات ، في وقت لم يكن فيه لغة منطوقة مسجلة . وهذان الفرعان هما : علم النقوش epigraphy ، وهو يتعلق بدراسة النقوش وتفسيرها ، وعلم الوثائق paleography ، وهو يتعلق بدراسة الوثائق العتيقة والوسيطة المكتوبة على أوراق البردي والرقاق ونحوها .

---

(١) وهنا يبرز سؤال حقيقي ، وهو ما إذا كان التركيب النحوي مثل I shall love أسهل من مقابله اللاتيني amabō ، وما إذا كان the book of the boy أسهل من the boy's book .

٢٩ ـ التغير الفونولوجي والقياسي

إن كلاً من علم الأصوات وعلم الفونيمات إنما يتناول – في المحل الأول – وصف الأصوات أو الفونيمات الموجودة في لغة حية يتكلمها متكلمون أحياء . وهناك مصطلحات تتعلق بالتحولات التاريخية التي تمت في الماضي سواء كانت صوتية أو فونيمية ، وإن كانت هذه المصطلحات لا تستعمل في الميدان الوصفي إلا قليلا .

وفي مجال التحول التاريخي للغة ليس من الممكن كلية – وإن كان محتملا – أن يغير النموذج الفونيمي أحيانا بقوة . وما تزال قضية ما إذا كانت التغيرات تحدث تدريجيا ، وأنها لا علاقة وثيقة لكل واحد منها بالآخر . أو أنها – كما يحلو لبعض اللغويين التركيبيين أن يقول – تحدث لتحقيق نوع من الانسجام في الكلام ككل وللمحافظة على شيء من التماثل والتناسق – ما تزال هذه القضية مفتوحة للمناقشة .

وسوف يلاحظ من مجرد النظر للهجاء الإنجليزي أن فونيمات معينة كانت موجودة يوما ما في اللغة (مثل الصوت الطبقي الاحتكاكي gh الممثل في night) ثم اختفت . وتدل هذه النظرة كذلك على أن قوانين التجمعات الصوتية المسموح بها قد تغيرت (فهجاء مثل gnaw ,know يدل على أن المتكلم الإنجليزي في يوم ما كان يسمح بتجمع صوتي مثل – kn أو – gn في الموقع الأمامي ، وهو ما لا يمكن للإنجليزي الحديث أن ينطق به بسهولة) .

وبعض مصطلحات علم اللغة الوصفي تلعب دورها في مجال علم اللغة التاريخي ، ولكن في مجال الحديث عن تغير النماذج الصوتية أو الأشكال النحوية . ومن المصطلحات الوصفية التي تستحق الذكر هنا والتي تتحكم في طبيعة التغيير المعين ما يسمى بـ « كمية العلة » . vowel quantity (التمييز بين العلة الطويلة والقصيرة) و « كيفية العلة » vowel quality (درجة الانفتاح أو الغلق للعلة – انظر المبحث رقم ١٨) .

أما الظواهر المتعلقة بتشكيل الصوت (مثل الانتقال من تسلط اللحن إلى تسلط النبر . أو انتقال النبر من مقطع إلى مقطع آخر في الكلمة) فتعد ذات أهمية كبيرة في الدراسات اللغوية التاريخية . ولدينا من الاسباب ما يكفي للاعتقاد – على سبيل المثال – أن كثيراً من التحولات من اللغات اللاتينية إلى الرومانسية (مثل تغيير صوت العلة المنبور في الكلمة tenet التي صارت في الفرنسية tient وفي الإيطالية والأسبانية tiene) مردها أساساً إلى تكثيف وحدة النبر في الكلام .

ومن المصطلحات المستعملة ما يأتي :

الموقعية بين علتين intervocalic position . ويستعمل حين يقع الصوت الساكن . وبخاصة الانفجاري . بين علتين . ويقابله موقعية الساكن في أول الكلمة initial أو في آخرها final . أو في موقعية متوسطة ولكن ليس بين علتين protected medial position (الأخير كما إذا سبقت الـ t بساكن آخر .) . وغالبا ما تؤدي الموقعية بين علتين إلى تطور معين (لاحظ التطور المختلف للتاء اللاتينية الواقعة بين علتين في كلمة amata التي صارت في الفرنسية aimée . وقارنه بكلمات لاتينية لم تقع تاؤها بين علتين مثل : terra ، و tenet ، و porta التي صارت في الفرنسية terre . و tient . و porte) .

وكثير من المصطلحات المستعملة كأسماء في علم الفونولوجي الوصفي توضع في صورة فعل في علم الفونولوجي التاريخي . وحينئذ يشتق منها أسماء مجردة جديدة . مثل diphtong التي تصير فعلا diphthongize ، ويشتق منها الاسم diphthongization .

أما المصطلح ازدواجية العلة diphthongization فمعناه تحويل صوت العلة البسيط monophthong إلى علة مزدوج (tenet اللاتينية صارت tient و tiene في اللغات الرومانسية) .

والتغوير palatalization يعني نقل مخرج الصوت إلى منطقة الحنك الصلب أو الغار (مثل الكلمة اللاتينية centum التي تنطق بصوت طبقـي (حنكي لين) مثل k ولكنها انتقلت إلى الإيطالية cento بصوت غـاري يماثل ما في church .

أما الإبدال العلي vocalization فمعناه إبدال الساكن الأصلـي عادة لام) صوت علة (في اللاتينية alba تحرك مخرجها إلى الوراء شيئا فشيئا إلى أن صار u في الكلمة الفرنسية aube وقد نطق أولا مثل w ثم أدمج مؤخرا مع صوت الـ a السابق فنتج الصوت الضيق الحديث o)[١] .

أما المصطلح الإبدال الشفوي labilization فمعنـاه تحويل الصوت الطبقي المشوب بالشفوية (qu — gu) إلى شفوي محض (p — b) بإسقاط العنصر الطبقي (اللاتينية : aqua lingua التي صارت في اللغة الرومانية : limba apa) .

والإجهار sonorization أو voicing معناه تحويل الصـوت الساكن المهموس إلى قسيمه المجهور (amata اللاتينية المشتملة على صوت التاء المهموسة الأسنانية الانفجارية صارت في الأسبانية amada مشتملة على d نطقت أولاً كصوت مجهور أسناني انفجاري ، ثم أخيراً كصوت مجهور أسناني احتكاكي . أما الخطوة الحتمية الأخيرة في هذه العملية فهي اختفاء الصوت الساكن بعد انتقال الكلمة من الفرنسية القديمة amede إلى الفرنسية الحديثة aimée) .

وهناك عمليات أخرى عكس السابقة يعبر عنها عادة بإضافة «de» أو «un» للمصطلحات السابقة . ويمثل سلب الشفوية delabialization الكلمة اللاتينية quinque ، التي صارت في الإيطالية cinque . وبعد أن فقدت الكلمة شفويتها أعطيت التغوير .

---

(١) يمثل لذلك من اللغة العربية بصوت الثين في أعداد مثل ثلاثة عشر وأربعة عشر .. الذي تحول إلى الف مد في بعض العاميات العربية فأصبح يقال تلاتاشر .. واربعتاشر ... المترجم .

فهنا نلاحظ أن الصوت الطبقي الشفوي qu فقد أولاً شفويته ليصير kinque ، فأصبح الصوت الطبقي k واقعا تحت تأثير العلة «i» الأمامية فجذبت مخرجه إلى الأمام حيث الغار، لتضييق المسافة بين مخرجي الصوتين .

أما مثال الإهماس unvoicing في الموقع الأخير فيبدو في الكلمة اللاتينية grandem التي صارت في الفرنسية القديمة grant ، بتحويل الدال المجهورة إلى تاء ، وهو تحويل ما يزال يسمع حتى الآن في تجمعات مثل grand homme . ومثال آخر الكلمة اللاتينية novem التي صارت في الفرنسية neuf .

أما الأنفية nasalization فمعناها نقل رنين الصوت العلة إلى التجويف الأنفي حين يتلى بساكن أنفي ، وإن كان الساكن نفسه يختفي في العادة . ومثال ذلك الكلمة اللاتينية grandem التي صارت في الفرنسية القديمة grant ، وفي الفرنسية الحديثة grand .

وعكس الأنفية سلب الأنفية denasalization الذي يمكن التمثيل له بالكلمة الفرنسية bonne التي كانت تنطق أول الأمر مع «o» أنفية بعدها «n» ، ثم فقد صوت العلة القيمة الأنفية .

أما تدوير العلة rounding فربما يحدث كما في « ū » اللاتينية الموجودة في lūna (صوتيا [u:]) التي تحولت إلى «u» الفرنسية lune (صوتيا [y]) .

وأما تبسيط الصوت simplification فيعني تحويل الصوت الساكن المضعف إلى صوت بسيط (مثل اللاتينية : communem التي صارت في الإيطالية comune) . وعكسه تضعيف الصوت gemination ، ويعني مضاعفة الصوت المفرد الساكن (كما في اللاتينية publicum ، التي صارت في الإيطالية pubblico ؛ أو اللاتينية aqua ، التي صارت في الإيطالية acqua) . وقد تحدث كلتا الظاهرتين في لغة واحدة ، وإن كان المعتاد أن

تأخذ اللغة اتجاهاً واحدا . (الأسبانية مثلا تتجه إلى تبسيط كل السواكن اللاتينية المضعفة) . وينبغي أن نذكّر القارىء هنا بأن اصطلاح : الساكن المضعف double consonant هو اصطلاح مضلل حقا ؛ لأنه قد استعير من طريقة الكتابة . ففي النطق يمد الصوت الساكن بتطويل مدة النطق به إذا كان هذا المد ممكناً، ويكون هذا ممكناً إذا لم يكن الصوت الساكن انفجاريا .

وبما أن الانفجاري لا يمكن مده عند نقطة مخرجه ، فإن ما يسمى تطويلا بالنسبة له يكون عن طريق إطالة مدة قفل الطريق أمام الصوت قبل تفجيره. وهذا يحدث في اللغات التي تشتمل على أصوات ساكنة مضعفة حقيقية مثل الإيطالية واليابانية . ففي لغات كهذه يكون الفرق بين الساكن البسيط والساكن المضعف فرقاً فونيمياً يؤدي إلى تغيير المعنى (فكلمة eco الإيطالية تعني « صدى » أما ecco فتعني « هنا » ، وكلمة cade تعني « يسقط » أما cadde فتعني « سقط ») . فإذا أردنا رسم صورة كاملة للفونيمات الإيطالية يجب أن يعد كل صوت مضعف فونيماً مستقلاً عن مقابله البسيط . أما في الإنجليزية فإن تكرار السواكن في الهجاء أمر يتعلق بالهجاء ، أو بتاريخ الكلمة تعلقاً صرفا ، ولا يؤدي الى أي فرق صوتي أوفونيمي (abbot — redden قد تنطقان نطقا واحدا سواء كتبتا بساكن واحد أو ساكنين اثنين . حتى في الكلمات المركبة كما في : unnamed توجد سكتة أو وقفة بسيطة جدا بين صوتي النون المنطوقين لتفصل كلاً منهما عن الآخر) .

وهناك اصطلاحات أخرى تستعمل باستمرار في علم اللغة التاريخي مثل :

١ — الإعلال ablaut (أو apophony) . ومعناه التغييرات التي تعتبر صوت العلة تبعاً لموقع التنغيم في اللغة الأم ، أو لموقع النبر في فترة متأخرة . (الكلمات الإنجليزية sing ، sang ، sung تمثل هذه الظاهرة ، وتعكس أحوالا في اللغة الأم ، حينما كان النبر يقع على الجذر أو على المقاطع السابقة ، اللاحقة ، الأمر الذي فقد مؤخرا) . ومثال حديث لهذه الظاهرة ، الفعل الأسباني ذو التغير الأساسي romir ل، حيث احتفظت ال « o » بوجودها في أي مكان

تقع فيه غير منبورة ، ولكنها تنقلب إلى ue حينما تنبر كما في duermo .

٢ — أمامية العلة الخلفية umlaut (أو metaphony) . ويراد بها تحويل العلة الخلفية إلى علة أمامية تحت تأثير علة أمامية تليها . ومثال ذلك من الألمانية كلمة staz التي تجمع على sätze ومن الإنجليزية كلمة foot التي تجمع على feet . وسبب تحويل ال «o» إلى «e» وقوعها تحت تأثير علة أمامية فقدت مؤخرا (fōtiz* كانت الجمع الجرماني الأصلي لكلمة fōt ، ولكن «ō» في الجذر صارت أمامية = « ē » تحت تأثير ال « i » ، فحين جاء العصر « الأنجلوسكسوني كانت الصورة fēt كجمع للمفرد fōt قد تأسست فعلا) .

٣ — المماثلة assimilation ، ومعناها جعل الصوتين غير المتماثلين متماثلين. مثال ذلك nd الهندية الأوروبية الموجودة في الكلمة اللاتينية spondeo فقد تغيرت في الجرمانية إلى nn ، (وكذلك الكلمة الأنجلوسكسونية spannan التي هي في الانجليزية span ، وفي الألمانية spannen . وكلمة London التي ينطقها اللندنيون كما لو كانت : Lunnon . وفي الأميركية المبتذلة تنطق كلمة wonderful كما لو كانت : wunnerful) .

٤ — المخالفة dissimilation وهي عكس السابقة ، أي جعل الصوتين المتماثلين غير متماثلين . مثال ذلك الكلمة اللاتينية peregrinum التي تغيرت في تتابع سريع إلى الفرنسية pèlerin بلام وراء ، بدلا من راءين .

٥ — الترخيم الوسطي syncopation . ومعناه اختفاء صوت العلة غير المنبور عادة ، بسبب تشديد النبر في مكان آخر في الكلمة . وتمدنا اللاتينية بالمثال الآتي calidus مع caldus . وكذلك dominus مع domnus . فالكلمة الثانية في كل زوجين قد أصابها الترخيم الوسطي . ومثاله من الإنجليزية

الحديثة ، النطق int'resting بدلا من [1] interesting .

٦ — حذف المقطع haplology ومعناه اختفاء مقطع كامل غير منبور للسبب السابق . مثال ذلك الكلمة اللاتينية civitatem ، التي هي في الفرنسية cité ، وفي الإيطالية città . ومثاله في الإنجليزية till من until .

٧ — إسقاط العلة الأولى apheresis ومعناه اختفاء العلة الواقعة في أول الكلمة كما في mid من amid .

٨ — زيادة علة أولى prothesis (أو prosthetis) ومعناه وضع صوت علة كسابقة في أول الكلمة ، عادة قبل مجموعة من السواكن أولها صوت S . مثال ذلك الكلمة اللاتينية specialem ، التي صارت في الأسبانية especial ، و stella التي صارت estrella و scutum التي صارت escudo .

٩ — زيادة الساكن epenthesis . ومعناه وضع صوت إضافي خلال كلمة عادة بقصد تسهيل النطق . مثال ذلك الكلمة اللاتينية camera التي لحقها ترخيم وسطي في الفرنسية وصارت chamre وحينئذ جيء بحرف «b» وأدخل في الكلمة لتسهيل الانتقال من «m» إلى «r» وكانت النتيجة وجود الكلمة chambre .

١٠ — زيادة العلة anaptyxis ومعناه وضع علة إضافية خلال الكلمة. مثال ذلك أن الفرنسية اقترضت الكلمة الإسكندنافية knif ، ولكنها وجدت من اللائق أن تضيف علة في وسط الكلمة بين الـ «k» والـ «n» وكانت النتيجة ظهور الكلمة canif .

١١ — زيادة علة نهائية paragoge . ومعناه إضافة صوت علة في

---

(١) مثاله من العامية القاهرية نطق ضاربني : ضربني ، (بكسر الراء) نتيجة لانتقال النبر من المقطع الأول إلى المقطع الثاني (المترجم) .

آخر الكلمة . مثال ذلك الكلمة اللاتينية amant التي صارت في الإيطالية aman ، ولكن الإيطاليين رأوا أن يضيفوا «o» في آخر الكلمة نظراً لتفضيلهم الانتهاء بصوت علة ، وكانت النتيجة ظهور الكلمة amano .

١٢ — الإبدال الشائع rhotacism . وهو يستعمل عادة ليدل على إبدال صوت ما ، غالباً مايكون «L» أو «S» إلى «r» . فالكلمة الأصلية blanco صارت branco في البرتغالية . وفي الجرمانية القديمة وجدت الكلمة auso التي استخدمت في القوطية ، ثم أخذت في الإنجليزية أخيراً صورة ear ، وفي الألمانية صورة ohr .

١٣ — الإبدال النادر lambdacism . وهو التغيير غير الشائع لصوت ما (عادة «r») إلى «L» ، ففي التوسكانية وجدت الكلمة polta التي هي في الإيطالية porta .

١٤ — القلب metathesis . ومعناه تغيير مواقع الحروف في داخل الكلمة . مثل الكلمة الفرنسية moustique من الأسبانية mosquito .

١٥ — وهناك مصطلح آخر هو yod ، وهو مصطلح مأخوذ من اسم حرف في الأبجدية العبرية ، يطلق على نصف صوت العلة y (الغداري مجهور) . وبينما لايوجد المصطلح الإبدال اليائي yodization في المعاجم أو الكتابات اللغوية الإنجليزية (المصطلح مستعمل في الفرنسية) فمن الممكن صياغته ليشير إلى عملية تحويل أول صوتي العلة المجتمعين hiatus (انظر المصطلح التالي) إلى ياء yod ، مما يؤدي إلى جر الصوت الساكن السابق مباشرة نحو الغار . مثال ذلك الكلمة اللاتينية vīnea التي تنطق بثلاثة مقاطع بإعطاء العلة «e» قيمة كاملة قبل العلة «a» (hiatus) ، ثم يحول العلة «e» إلى «y» (vinya) فتصبح الكلمة ذات مقطعين اثنين فقط ، وأخيراً ظهرت الكلمة في الفرنسية في شكل vigne ، وفي الإيطالية vigna وفي الأسبانية viña .

١٦ ــ اجتماع صوتي علة hiatus . ومعناه أن يتوالى صوتا علة من غير توسط ساكن ، ومن غير تحويلهما إلى علة مزدوج diphthong . كما في كلمتي naïve ، و Noël ، والكلمة اللاتينية habeo . وفي هذه الحالة يتطلب الموقف وقفة خفيفة slight pause of silence (مفصـل داخلي مفتوح internal open juncture) بين العلتين لينطق كل منهما على حدة . ويسبب هذا صعوبة للمتكلم الذي يجب أن يقطـع مجرى نفسه ثم يستأنفه مرة أخرى ، ولذا سيجد من الأسهل عليه أن يحول العلة الأولى إلى صوت انخذاري .

١٧ ــ وهناك مصطلح يطلق على اللغات التي تتساوى عدد المقاطع في أسمائها وصفاتها في كل حالاتها أو معظمها ، وتفرق عن طريق نظامها الإعرابي بين هذه الأسماء والصفات . هذا المصطلح هو : متساوية المقاطع parisyllabic (مثاله من اللاتينية اللاتينية mūrus و mūrī و mūrō و mūrum إلخ ..) أما إذا كانت الأسماء تأخذ صورة أصغر في حالتي الفاعلية nominative والمفعولية accusative عنها في الحالات الأخرى فإنها تسمى مختلفة المقاطع imparisyllabic . ومثاله من اللاتينية pectus التي تتعدد أشكالها إلى pectorī, pectoris و pectore ... إلخ ..

١٨ ــ إبــدال السواكن consonant shift (أو sound shift أو Lautverschiebung) . وهو مصطلح يستخدم في فقه اللغة الجرماني ليشير إلى حلقتين متتابعتين من الإبدال . مثال ذلك : هناك جذر مفترض لكلمة هندية أوربية *d—nt (في اللاتينية dentem ، وفي اليونانية — odont وفي السنسكريتية denta) صار أولا t—nth (في الأنجلوسكسونية tonth وفي الإنجليزية المتأخرة tooth) ثم تغير ثانياً إلى صورة تظهر في الألمانية ، وأخذت شكل z—nd التي كانت في الألمانية القديمة zand ثم صارت أخيراً في الألمانية الحديثة zahn .

١٩ – إبدال العلل vowel shift ويستعمل غالباً للدلالة على سلسلة التغيرات في العلل الطويلة في اللغة الإنجليزية ، التي بدأت حوالي عصر تشوسر وانتهت في العصر الإليزابيثي (١) .

٢٠ – وهناك مصطلحات ثلاثة تتعلق بموضع النبر . فإذا كان على المقطع الأخير سُمي نبر المقطع الأخير oxytone ، وإذا كان على ماقبله سمي نبر المقطع قبل الأخير paroxytone ، وإذا كان على ماقبله سمي نبر المقطع الثالث من الآخر : proparoxytone .

٣٠ – التغير الصرفي والنحوي

تسمى اللغة تركيبية synthetic إذا كانت تجمع معاني عدة داخل كلمة واحدة ، أو مجموعة من الكلمات . وتسمى تحليلية analytical إذا كانت تعبر عن المعاني المنفصلة بكلمات يمكن أن تستعمل مستقلة (مورفيمات حرة – انظر المبحث رقم ٨) . ومن الممكن أن يمثل للنظام التركيبي بالكلمة الإنجليزية impossible ، والكلمة الأسبانية esperaré ، وأن يمثل للنظام التحليلي بجملة : I shall wait . ويمثل النموذج المتطرف للغات التحليلية ، تلك اللغات المُفْرِدة من المجموعة الصينية ، كما يمثل النموذج المتطرف للغات التركيبية ، اللغات المركبة التي تتمثل في بعض اللغات الهندية

---

(١) هذا التغير في أصوات العلة الطويلة الأصلية في اللغة الإنجليزية ، التي كانت أولا أصوات علة خالصة ، أدى في النهاية إلى إيجاد العلة المزدوجة diphtong ، التي كثيرا ما يطلق عليها حتى الآن اسم أصوات العلة الطويلة . ومثال ذلك الكلمة الإنجليزية القديمة hūs التي كانت تنطق مثل hoos ، فقد صارت في الإنجليزية الحديثة house ، وتكتب صوتيا / haws / وكذلك الكلمة القديمة stān التي تحتوي على صوت العلة الطويل a المشابه لنظيره الموجود في father ، فقد تحولت إلى stone التي تكتب صوتيا / stown / وغير ذلك . ولا بد أن الكلمة قد مرت بمراحل متوسطة قبل أن تصل إلى صورتها النطقية الحديثة .

الأمريكية . أما اللغات التصريفية واللغات اللاصقة فتمثل مكاناً وسطاً بين الطرفين .

وإنه لمن الممكن تماماً لأي لغة أن تغير قالبها خلال تاريخها ، وتنتقل من النظام التركيبي إلى النظام التحليلي أو العكس . ويعد التغير الأول أكثر شيوعاً من الثاني ، على الأقل بالنسبة للغات التي نعرف عن تاريخها معلومات أكثر . واللغة الإنجليزية – على سبيل المثـال – قد بدأت أولاً في صورة لغة تركيبية تصريفية هي الأنجلوسكسونية ، ولكنها – على مر التاريخ – أسقطت كثيراً من نهاياتها التصريفية مستخدمة بدلا منها كلمات مساعدة أو حروفاً ، أو مستغلة ترتيب الكلمات في الجملة ... إلخ . ويعكس الانتقال من اللاتينية إلى الرومانسية سمات مماثلة وخصوصاً فيما يتعلق ببنية الأسماء . والانتقال مـن السنسكريتية إلى الهندية قد صحبه تغيير من النظام التصريفي المتطرف إلى نظام لصقي بدرجة كبيرة . ومن الناحية الوصفية من الممكن للشخص أن يقول إن النظام المفرد فوق التحليلي superanalytical يعكس زيادة الثقل في جانب المورفيمات الحرة ، في حين أن النظام فوق التركيبي supersynthetic أو التركيبي المتعدد Polysynthetic يبين زيادة الثقل في جانب المورفيمات المتصلة . (١)

وإن الحركة الآلية للتحول من الصفة التركيبية إلى التحليلية تستدعي عادة إسقاط النهايات ، وتؤدي إلى تداخل النظامين : الإعرابي declensional والاشتقاقي conjugational اللذين كانا منفصلين من قبل . وما زال محل نقاش وجدال ، ما إذا كان إسقاط النهايات يحدث نتيجة الـرغبـة الباطنة للمتكلمين في تيسير لغتهم ، أو أن ذلك متصل بزيادة النبر على أجزاء أخرى من الكلمة مما يؤدي إلى إضعاف هذه النهايات والتقليل من قيمتهـا

---

(١) مثال ذلك I shall go في الإنجليزية ، حيث يعد كل واحد من المورفيمات حرا ، بخلاف مقابله في اللاتينية وهو ō — b — i حيث تعد جميع مورفيماته متصلة (انظر المبحث رقم٨).

الصوتية ، وفي النهاية إلى اختفائها .

وإلى جانب ذلك هناك السؤال الحائر الذي لايمكن الإجابة عنه وهو ما يتعلق بأصل الكلام ، وهل كانت كل اللغات أساساً تحتوي على كلمات منفصلة (مورفيمات حرة) ثم انضمت مؤخرا بعضها إلى بعض مركبة كلمات أطول عن طريق المورفيمات المتصلة ، ثم بمرور الزمن تنوسيت هذه الوحدات المستقلة ونظر للكلمة على أنها بسيطة . وإن قليلا من متكلمي الفرنسية الآن الذين ينطقون الكلمة aujourd'hui من هو على وعي بالحقيقة أن تلك الكلمة كانت أساسا ad illum diem de hoc die ، ثم تدرجت عن طريق تغييرات افتراضية — محتملة الحدوث على الأقل — في عصر ما قبل التاريخ من النظام التحليلي إلى النظام التركيبي .

وبدون تناول للمصطلحات التقليدية النحوية المستعملة في اللغات الهندية الأوروبية ذات الطابع التصريفي (معظم هذه المصطلحات يمكن معرفتـه عن طريق كتب كثيرة كتبت عن النحو اللاتيني) ربما كان من المفيد أن نشـير إلى مصطلحين اثنين هما الإعراب declension والاشتقاق conjugation . أما المصطلح الأول فيشير إلى التغيرات التي تظهر في الأسماء والصفات والضمائر للغات الهندية الأوربية حينما تأخذ صورة الكلمة شكلاً معينا على ضوء وظيفتها في مجموعة الكلمات ، وعلى حسب عوامل أخرى ثانوية مثل العدد والجنس .

أما المصطلح الثاني فيشير إلى نظام من التغييرات المتماثلة التي تلحق الفعل طبقا لعوامل الشخص والعدد والجنس والزمن والبناء للمعلوم أو المجهول . . ويطلق على النموذج الواحد لأي من النوعين السابقين اسم المثال paradigm ، وبه توضح جميع الصور الممكنة للتغيرات التي تلحق الكلمة (مثل : boy ، boy's ، boys ، boys'.

٣١ — التغير المعجمي

الاشتقاق — التركيب — الوضع — الاقتراض

هناك ميل طبيعي لمفردات اللغة نحو النمو والتكاثر ، نتيجة لنمو النشاط الإنساني بمرور الزمن وتكاثره . فهناك أشياء كثيرة تجدّ ، وأحوال تنشأ ، وأفعال تستحدث ، ومعان تتولد ، وكلها تتطلب لأنفسها ألفاظا وأسماء لكي تظهر . ويتم الحصول على هذه الكلمات من عدة طرق مختلفة .

وهناك إلى جانب ذلك — وإن كان بدرجة أقل — احتمال هجر الكلمات ، كما يحدث حينما يختفي من الوجود شيء ما ، أو معنى معين ، أو فعل على وجه التحديد . فمن المحتمل حينئذ أن يحدث هجر obsblescence للكلمة إلى أن تختفي من الوجود نهائيا ، وتبقى فقط في المعاجم تحت اسم « المهمل » archaism. وقد حدث هذا بالنسبة للغة الإنجليزية الوسيطة مثل hight, yclept. وهناك كلمات كثيرة أنجلوسكسونية قد اختفت حتى من المعجم كالكلمات الإليزابيثية مثل begeck . ويمكن — مع هذا — للمرء أن يؤكد بمنتهى الطمأنينة أنه في مقابل كل كلمة تختفي يظهر على الأفق عشر كلمات جديدة .

ويتم خلق الكلمات الجديدة بطرق متعددة مختلفة مثل :

١ — الاشتقاق derivation . ومعناه أخذ كلمة جديدة من أصل موجود (مورفيم حر formant أو free morpheme) بعد إضافة سوابق ولواحق (مورفيمات متصلة bound morphemes) عليه . ومن أمثلة ذلك : children من child ، و befog من fog . والكلمات الجديدة المأخوذة بهذه الكيفية تسمى مشتقات derivatives من الكلمات الأصلية . ويقوم الاشتقاق بدور كبير في إحداث ما يسمى بصيغ الزيادة augmentatives والتصغير diminutives ، وانحطاط المعنى pejoratives ،

وهي أنواع شائعة في بعض اللغات (مثل كلمة hombròn الأسبانية — رجل ضخم ، من hombre ، وكلمة libraccio — كتاب رديء من libro ، وكلمة lambkin الإنجليزية من lamb) .

٢ — التركيب composition . ويكون عن طريق وضع جذرين (مورفيمين حرين) جنبا إلى جنب مثل railroad المأخوذة من الكلمتين rail و road ، و breakfast المركبة من break و fast ، والكلمة الإيطاليـــة ferrovia المأخوذة من ferro و via . وهنا يكون الناتج كلمات مركبة compound words .

٣ — الاقتطاع العَجُزي back-formation . ومعناه أن تبنى كلمة من أخرى عن طريق اقتطاع لاحقتها الحقيقية أو المفترضة . ومثال ذلك Peddle (يتجول للبيع) المأخوذة من Peddler (بائع جوّال) ، وكلمـــة buttle المأخوذة من butler ، والكلمة الفرنسية cri المأخوذة مـــن crier . وهذا التغيير يؤدي إلى الانتقال من نوع من أنواع الكلام إلى نوع آخر (من اسم إلى فعل ، أو من فعل إلى اسم . . الخ) ويمكن للشخص — باستخدام خياله — أن يشتق الفعل to rambunct من الصفة rambunctious .

٤ — التقصير shortening ومعناه اقتطاع جزء من الكلمة مثل mike بدلا من microphone وغالبا ما يحدث خلق لمعنى جديد (مثل Miss المأخوذ من Mistress و cab المأخوذ من cabriolet ، و mend المأخوذة من amend . وقريب من هذا استعمال الحروف الاولى من الكلمات باستمرار بدل الكلمات نفسها abbreviations . مثال ذلك M. C. أو emcee التي تعني master of ceremonies ، و C.B.'S أو seebees التي تعني construction battalions ، و Anzac التي تعني Australia New Zealand Army Corps .

٥ — الوضع Coinage . ومعناه خلق كلمة من الهواء والتكلم بها . ويتم

ذلك عادة على يد بعض الأشخاص المشهورين الذين يصادف ابتكارهم قبولا .

وأحيانا يكون الوضع في الحقيقة مجرد مزج لكلمتين موجودتين في الاستعمال الفعلي مثل smog (من smoke و fog) ، ومثل motel (من motor و hotel) . وقد أطلق على مثل هذا النوع من الكلمات اسم portmanteau words . ويدخل تحت هذا غالبا وضع كلمات تعد انعكاسا echoic أو تقليدا لأشياء أو أصوات في الطبيعة onomatopoetic مثل كلمات fizz ، و tick-tack ، و buzz ، و meow .

٦ – التغيير الوظيفي functional change ، وهي طريقة تستعمل بكثرة في الإنجليزية مثل الكلمة contact التي تستعمل أيضا كفعل . ولكن يقل استعمال هذه الطريقة في لغات أخرى حيث تتميز فيها أنواع الكلام عن طريق الصيغة . وهذه الطريقة تنمي المفردات في طريقة استعمالها ، ولا تزيد في عدد الكلمات أو الرصيد اللغوي . وهنا نجد كلمة موجودة بالفعل مستعملة في وظيفة نحوية معينة تكتسب – من غير تغيير الصيغة – وظيفة نوع آخر من أنواع الكلام . وإن الوظائف المتعددة – على أي الحالات – تظل متمايزة عن طريق سلوك الكلمة . فكلمة mail مثلا حين تستعمل اسماً تكون قابلة لإضافة s دلالة على الجمعية اليها ، وحين تستعمل فعلا تكون قابلة لإضافة "s" أو "ed" أو «ing» ، وحين تستعمل صفة مثل كلمة mailbox تأخذ شكلا واحدا .

٧ – وآخر الطرق ، وإن كان يعد أعظم مصدر لنمو اللغة هو الاقتراض borrowing من لغات أخرى . وهناك لغات تأخذ ألفاظا كثيرة من جاراتها ، ولغات ، تأخذ بدرجة أقل ، وإن كان الكل يأخذ شيئاً ما . وإن مفردات اللغة الإنجليزية تشتمل على أقل من ٢٥٪ من الكلمات الأنجلوسكسونية الأصلية ، وأكثر من ٧٥٪ من الكلمات المقترضة من اللغات الإسكندنافية (عن طريق الدنيمركية) ، والفرنسية (عن طريق النورمنديين) ، واللاتينية واليونانية

(التي بدأت تتسرب إلى اللسان الأنجلوسكسوني حتى قبل أن تصل إلى الشاطىء البريطاني ، والتي ما تزال تتسرب إلى اللغة الإنجليزية طوال عصورها حتى يومنا الحاضر) .

كذلك اقترضت الإنجليزية من لغات أخرى كثيرة ، أوربية ، وآسيوية ، وإفريقية ، وهندية ، أمريكية ، وغيرها من اللغات التي اتصل بها المتكلمون الإنجليز .

وعند الاقتراض هنالك طريقان ممكنان ، فإما أن تأخذ اللغة المقترضة الكلمة وتخضعها لقوانينها الصيغية والصوتية، كما حدث للكلمة الفرنسية القديمة verai التي تحولت إلى very وفي تلك الحالة يكون عندنا كلمة مقترضة loan word .

وإما أن تترجم اللغة المقترضة وحدات الكلمة المقترضة ترجمة حرفية إلى كلمة وطنية . وفي تلك الحال يكون عندنا ترجمة مقترضة Loan translation. والكلمة الإنجليزية expression مأخوذة من الكلمة اللاتينية expressio فهي لذلك كلمة مقترضة . أما الكلمة الألمانية Ausdruck فمأخوذة من كلمة لاتينية مطابقة لها ، فهي لذلك ترجمة مقترضة .

وقد يتم الاقتراض بمزج كلمتين من أصلين مختلفين ، وجعلهما كلمة واحدة ، وهذا يسمى بالتداخل contamination ، أو المزج blending .

ومثال ذلك ما حدث حينما امتزجت الكلمة الجرمانية hoch باللاتينية altum (كلا اللفظين معناه : عال) لتتكون الكلمة الفرنسية القديمة halt التي أصبحت فيما بعد haut .

أما عملية تغيير الدلالة semantic change فمن الممكن أن تغني المفردات إلى اللحظة التي يظل المعنيان القديم والحديث مستعملين فيها جنبا إلى جنب . ومثل هذا حدث لكلمة Liberal حيث كانت تعني في القديم : ناشد الحرية من حكومة متطرفة .

ثم تطورت فيما بعد إلى معنى آخر هو : المؤيد لفرض الحكومة سيطرة

أكثر على المسائل الخاصة . وكثيرا ما يصاب اللفظ بما يعرف بانحطاط الدلالة فينحدر إلى معنى أقل ، كما في الكلمة silly التي كانت تعني أصلا soulful (عميق العاطفة) ، ثم صارت بالتدريج تعني foolish (أحمق) ، عن طريق تغيير المعنى . وانحطاط المعنى يسمى اصطلاحا Pejoration وعكسه ارتفاع المعنى enhancement أو amelioration كما حدث مع الكلمة nice التي كانت تعني أصلاً « جاهل » أو « أحمق » ثم اكتسبت معنى رفيعا . .

وهناك مجموعة من الاصطلاحات الأخرى تتصل بموضوع تغيير الكلمات وهي :

١ ــ الكلمات ذات الأصل الواحد cognates ونعني به أن توجد كلمتان ــ أو أكثر ــ في لغتين مختلفتين ، ترجعان إلى أصل واحد ، وإن لم يكن ضروريا أن تتفقا في المعنى في الوقت الحاضر . مثال ذلك الكلمة الإنجليزية rent (إيجار) والفرنسية rente (دخل أو إيراد) ، وكذلك الكلمة الإنجليزية knight في معناها المعروف والكلمة الألمانية knecht بمعنى القن أو عبد الأرض .

٢ ــ الكلمات المشتقة من كلمة واحدة doublets ومعناه أن توجد كلمتان ــ أو أكثر ــ يرجع اشتقاقهما إلى كلمة واحدة ، ويعكسان مراحل مختلفة من التطور العام Popular development ، أو التطور العلمي learned development . أما التطور العام فيعني أن الكلمة كانت مستعملة في اللغة المتكلمة منذ أول أمرها ، وتحملت كل التحويلات الصوتية المعتادة في تلك اللغة . وأما التطور العلمي فيعني أن الكلمة قد أخذت من أصل كلاسيكي لغرض علمي أو أدبي ثم أخضعت لطبيعة اللغة المقترضة ، مع أقل قدر ممكن من التغيير . وهناك كلمات توصف بأنها نصف علمية Semilearned لأنها خضعت لتطور محصور . فالكلمة اللاتينية Spiritum

في طريقها إلى الكلمة الفرنسية العادية لابد أن تكون قد ظهرت في شكـــل éprit أو épri ككلمة علمية كاملة . ويجب أن تكون قد أخذت شكل spirite ثم أخذت صورتها الأخيرة في الفرنسية الحديثة esprit : وهذا يدل على أن الكلمة قد مرت بتحولات مألوفة حتى تجمدت في القرن الرابع عشر .

٣ — الاشتقاق الجمعي أو الشعبي Popular (or folk) etymology ويعني الخطة التي عن طريقها يخلق عقل الجماعة علاقة مزيفة — وإن كانت مستحسنة — كما حدث في اللغة الإنجليزية التي اقترضت الكلمة الفرنسيـــة écrevisse ولكنها حولتها إلى crayfish (جراد البحر) ، وحتى إلى crawfish . وكلمة surloin تعني : فوق الخاصرة ، قد تحولت إلى sirloin على أساس تصور زائف تماماً أن الملك أحبها جداً لدرجة أنـــه رفعها إلى مرتبة النبلاء .

٤ — وهناك مصطلح المبالغة في التصويب over correction ويعني العملية العقلية التي تؤدي ببعض الناس إلى أن يقولوا : between you and I لأنهم على وعي إدراكي بالتعبير It's me أو أن يقولوا : He spoke with you and I لأنهم يخافون من النقد الموجه للعبارة : You and me never went there .

القسم الخامس

علم اللغة التاريخي

(منهج البحث)

٣٢ – المادة اللغوية المدونة

من الصعب أن يثبت الباحث أي سبق زمني لأي من علم اللغة الوصفي والتاريخي على الآخر . ولكن علم اللغة الوصفي باهتمامه بطبيعة اللغة ومشكلاتها بوجه عام ربما قيل بوجود جذوره في تلك التأملات الفلسفية التي تهتم بطبيعة اللغة ، والتي أثارها الفلاسفة الإغريق . وفيما يخص الجانب الآخر من البحث وهو وصف لغات مستقلة . فإن علم اللغة الوصفي يرجع إلى الوراء في شكل تلك الجهود المبكرة التي تمت على أيدي النحويين الصينيين والهنود والإغريق ولكن الفلاسفة – بالإضافة إلى فلسفتهم لطبيعة اللغة – قد تفكروا أيضاً في أصلها . وهو نوع من النشاط ربما عد بداية التفكير في علم اللغة التاريخي .

وفي القديم –كما في العصور الوسطى – كان فرعا علم اللغة – إذا نحن استعملنا المصطلح الحديث – يعيشان جنباً إلى جنب . ففي مجال علم اللغة الوصفي يمكن أن يوضع علم النحو ، والكتيبات الصغيرة لإرشاد الرحالة والمسافرين إلى بلاد أجنبية ، والأحكام التي تتعلق بعمومية النحو ، والتصورات النحوية . وفي الجانب التاريخي تدخل تلك الأساطير حول أصل اللغات وتطورها ، والمحاولات الأولى لتصنيف اللغات إلى عائلات . ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن ما تم في تلك العصور السحيقة لم يكن يتسم بالدقة والتحري ، ولم يكن يتبع أي منهج يمكن أن يوصف بالعلمية .

وحينما غزت التقاليد العلمية من ملاحظة واستنتاج ميدان علم اللغة أخيراً قرب نهاية القرن الثامن عشر أصبح للجانب التاريخي للغة اليد العليا على وجه السرعة . وقد بدا أن من الخير لعلم اللغة التاريخي أن يتجه وجهة واقعية فيهتم - إلى حد ما - بفحص نمو اللغة وتطورها على أساس من الوثائق الثابتة تاريخياً بدلا من أن يشغل نفسه بالأسس والنظريات التي ربما تعم اللغات بأسرها . وكذلك فإن ذلك القدر من علم اللغة الوصفي الذي أخذ صورة عملية في ذلك الوقت (لم يكن المصطلح علم اللغة الوصفي قد ظهر بعد) قد وجه اهتمامه إلى العناية بالقواعد النحوية والمعاجم ذات الطابع الإرشادي المعياري الواضح . وكان التركيز على الجانب المكتوب للغة هو السائد في كل مكان . أما اللغة المتكلمة فقد صورت على أنها شيء متغير خداع ، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة . ولهذا فليس محل دهشة إذن أن تكون الخطوات الأصلية في علم اللغة قد تناولت بالبحث فقط الجانبين التاريخي والمكتوب للغة . وإن المنهجين الدراسيين في علم اللغة التاريخي ونعني بهما المنهج المقارن ، ومنهج إعادة تركيب اللغة قد أسسا كلية على ما وجد من وثائق مكتوبة . ومن حيث طبيعة البحث ، فإن علم اللغة التاريخي لابد أن يعتمد على المادة المكتوبة بقدر ما يعتمد علم اللغة الوصفي على المادة الكلامية لمتكلمين أحياء .

وقد ظهرت المادة المكتوبة في عدة أشكال . فوُجدت في النقوش المحفورة على الحجارة ، والصخور ، وجوانب الجبال . ووجدت في الألواح الطينية المحفور عليها بأدوات مدببة رفيعة ، وفي ألواح الشمع المنقوشة بإبر خاصة . وهناك أيضاً وثائق مسجلة على أوراق من البردي والرقائق ، وعلى أوراق الكتابة العادية المكتوبة إما بفرشاة ، أو بريشة طائر ، أو بمداد قلم ، أو بقلم رصاص . ويوجد كذلك قدر قليل مكتوب على الآلة الكاتبة أو مطبوع . وكل هذه قد قامت بمهمة التسجيل للأفكار الإنسانية ، ولكن مع فارق أساسي . فبينما بعض السجلات المكتوبة - التي هي في أساسها كتابات تصويرية -

تتجنب اللغة المتكلمة ، وتحاول أن تمثل الأفكار والتجارب مباشرة ، نجد بعضاً آخر يستعمل الكتابة كوسيط بين الطرفين . وإن الكتابة التصويرية Pictographic — ideographic أو Logographic كما تبدو في الصينية الحديثة ، تظهر — من النظرة الأولى — ولا صلة بينها وبين اللغة المتكلمة ، ما دامت الرموز المكتوبة لايبدو أنها تعنى بتمثيل أصوات اللغة . ولكن هذه الرموز — مع ذلك — تمثل الكلمات المنطوقة في ترتيبها الذي ترد فيه عادة أثناء الكلام . ومعنى هذا أن بعض المعلومات التي تتعلق باللسان المنطوق — على الرغم من أنها تتعلق بتركيب الجملة فقط — يدل عليها بالكتابة التصويرية ، وبمجرد أن نعد ترجمة لسلسلة من الرموز الصينية كلمة مقابل كلمة نستطيع أن نعرف النظام الذي تتبعه اللغة الصينية في ترتيب مفرداتها أثناء الكلام .

أما الأبجدية المقطعية الشائعة في كثير من لغات العالم فتذهب خطوات أبعد من هذا . إنها تحاول أن تمثل — على اختلاف في درجة الإتقان — الأصوات المتكلمة للغة ، وأن تحمل معلومات لاتتعلق بكيفية ترتيب الكلمات ، ولكن بكيفية نطقها .

وقد سبق بالفعل (المبحث رقم ١٢) بيان الأضرار المتولدة عن استعمال الصيغ المكتوبة كشواهد على اللغة المتكلمة الموجودة . وإن عالم اللغة التاريخي — أثناء استعماله المادة المكتوبة الموضوعة تحت تصرفه — يجب على الدوام أن يتخذ الحيطة في قبول حجيتها التي تعد ذات قيمة سطحية . ومن ناحية أخرى من الممكن للباحث أن يغلّب جانب الشك إلى حد كبير . وفي حالة أي كتابة بنيت على أساس مقطعي أو هجائي يمكننا — ونحن مطمئنون — أن نزعم أنه كانت توجد أصلا — مع الأخذ في الاعتبار جانب التسامح في الحكم نظراً لجهل واضع النظام بالأسس الفونيمية الحديثة — الرغبة الصادقة في تمثيل الأصوات الفعلية للغة المتكلمة . سواء عن طريق الرمز لكل صوت ، أو الرمز

لكل مقطع . ومن واجب عالم اللغة التاريخي أن يحاول الكشف عما إذا كان الأخير قد تغير ، بينما بقي الأول ثابتاً ، ولأي مدى افترق النظامان في النهاية .

إن الأساليب شبه العلمية التي تستخدم في تحليل الرموز ، وتهتم بفك ما انغلق من مبهمات الخطوط غير المعروفة، سواء كانت تصويرية أو مقطعية أو صوتية ، وإعادة كتابتها ، لتعد فرعاً قائماً بذاته . (١) وبمجرد أن تم إعادة الكتابة تبدأ محاولة تفسير تلك الرموز من ناحية المعنى . وأخيراً يأتي ربط النص المكتوب بالعادات الكلامية المحتملة لأعضاء هذه الجماعة .

وإن المشاكل المتعلقة بتلك الرموز تتفاوت — إلى درجة كبيرة — من لغة إلى لغة ، وتختلف خطة العمل تبعاً لذلك . وربما كان من الأحسن أن نشير إلى بعض الأمثلة المعروفة لتوضيح ذلك . في حالة حجر رشيد Rosetta Stone الذي أمدنا بمفتاح اللغة المصرية القديمة ، وجد الفاحصون أنفسهم منذ البداية أمام نصوص ثلاثة متماثلة كتب أحدها بالرموز الهيروغليفية المصرية (التي تنقش عادة على الحجارة) وثانيها صورة أخرى أكثر استعمالا لنفس الرموز تظهر عادة على أوراق البردى ، أما الثالثة فكانت بالإغريقية . وبما أن الإغريقية كانت معروفة بالفعل فقد كان الأمر أمر وقت فقط حتى تم اكتشاف غامض اللغة المصرية القديمة (أخذ ذلك فعلا أكثر من ٢٠ سنة) . وقد كانت أول خطوة في حل تلك الرموز هي فصل تلك الرموز الدالة على الأسماء الملكية المعروفة فعلا بعد اكتشافها في الآثار الفرعونية ، ثم إعادة كتابتها بمساعدة مقابلاتها الإغريقية .

وإن اللغة الإترورية Etruscan المكتوبة بحروف هجائية يسهل فك رموزها والتي كانت الأصل المباشر للغات الرومانية — لم يتوصل بعد إلى حل

---

(١) هناك عملان رائعان يمثلان أفضل الأساليب المتبعة في فك رموز اللغات غير المعروفة ، وهما :
(١) Extinct Languages تأليف J. Friedrick (لندن ١٩٥٧)
(٢) Lost Languages تأليف P.E. Cleator (نيويورك ١٩٥٩)

مغاليقها تماماً ؛ نظراً لعدم وجود نقوش مزدوجة اللغة بدرجة كافية . ومهما أمكن للعلماء الذين يعيدون تركيب اللغة داخلها أن يقولوا فإن حروفها الهجائية تعين – إلى حد ما – في معرفة ما تعنيه كلماتها .

وحينما نأتي إلى وثائق متأخرة مثل النقوش الرومانية ، ووثائق اللاتينية المبتذلة ؛ المعروفة التاريخ ، والمكتوبة على الرقائق تأخذ المشكلة شكلا آخر . وهنا من السهل بدرجة كافية في العادة أن تفك الرمز الهجائي وأن تحدد المعنى . أما المشكلة الرئيسية فهي إلى أي مدى تعكس النقوش أو الوثائق اللغة المتكلمة لتلك الفترة ، هل ذلك القدر الكبير من الشواهد النقشية والوثائقية يعطينا صورة صادقة عن تطور اللاتينية تجاه اللغات الرومانية ويبين مراحل تحويلها إليها ؟ وهنا فإن حجية الوثائق يجب أن تفحص على ضوء ما نعرفه من نقطة للبداية ونقطة للنهاية بالنسبة لكل كلمة أو صيغة ، وعلى ضوء معلوماتنا المتفرقة عن الفترة المتوسطة بينهما .

إن واحداً من الأعمال الرائعة لعلم اللغة – وبخاصة فيما يتعلق بالجانب التاريخي – يكمن في مشابهته لعمل الشرطة السرية المتمثل في التقاط المفاتيح واستعمالها ، وربط الجزئيات بعضها ببعض . وفي علم اللغة قد يظل السر غير مكتشف تماماً ، كما يحدث في تحقيقات الجرائم ، ولكن هناك قواعد لاستخدام الشواهد ، وهناك مناهج تتعلق بكيفية استعمال المفاتيح كما سيتضح فيما بعد .

٣٣ – المنهج المقارن

حينما تنقصنا الشواهد الكاملة يوجد هنالك منهج آخر يمكن اتباعه ، وهو منهج كان رائجاً في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر على أيدي علماء اللغة التاريخيين العظماء (مثل Jones ، و Bopp ، و Rask والإخوة Grimm) .

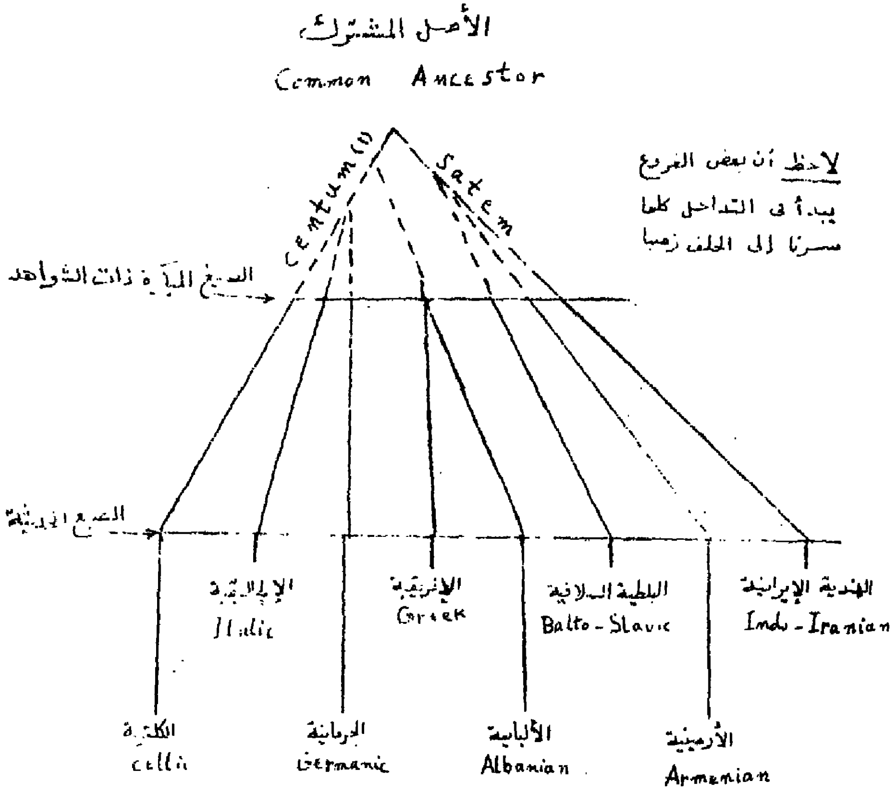
ويتضمن المنهج المقارن أساساً وضع الصيغ المبكرة المؤكدة ، المأخوذة من لغات يشك وجود صلة بينها جنباً إلى جنب ليمكن إصدار حكم فيها بعد الفحص والمقارنة . ومن هذه المقارنة يمكن استنتاج شيئين :

أولاً : درجة الصلة بين عدة لغات وضعت تحت الفحص، إذا كان هنالك أي صلة .

وثانياً : الشكل الذي يبدو أقرب صلة إلى اللغة الأم التي وجدت في الماضي والتي تعد الأصل المشترك لهذه اللغات ، ومنها انشعبت جميعها .

ولعل الباحث يكون آمناً حين يقرر انتماء لغات متعددة إلى أصل مشترك إذا وجد بينها تماثلا كافياً في تركيباتها النحوية ومفرداتها الأساسية، وإذا لاحظ ازدياد قربها بعضها من بعض كلما اتجهنا إلى الوراء .

وإن الصورة لتبدو شيئاً كهذا :



---

(١) ذكر المؤلف في معجمه Glossary of Linguistic Terminology أن مصطلح Centum يطلق على اللغات الهندية الأوربية التي لم تتحول أصواتها الوقفية الطبقية مثل k و g إلى غارية أو لثوية ، في حين أن المصطلح Satem يطلق على اللغات التي تحولت بعض أصواتها الوقفية الطبقية إلى احتكاكية غارية أو لثوية (انظر ٣٦ و ٢٣٩) وانظر :
Webster's Third New International Dictionary (المترجم).

وإذا نحن وضعنا – جنباً إلى جنب – كما فعل علماء اللغة التاريخيون في أوائل القرن التاسع عشر صيغاً من لغات قديمة تشكل مجموعة تظن قرابتها النسبية (السنسكريتية واليونانية واللاتينية والقوطية والسلافية القديمة والكلتية القديمة) يتضح في الحال حقيقة هامة ، وهي أن تلك اللغات تشترك جميعاً في شيئين اثنين : أحدهما التراكيب النحوية الأساسية، وثانيهما المفردات البدائية . وشيء ثالث يتضح بعد الدراسة المقارنة لعديد من الكلمات التي تحتوي على فونيمات معينة ؛ وهو أنه يوجد بين هذه اللغات تقابل فونولوجي . فحين نجد بعضها يشتمل على صوت الـ « P » في أول الكلمة ، نجد بعضها الآخر يضع مكانه صوت الـ « f » ، وبعضاً آخر صوت الـ « h » وأحياناً لا نجد لهذا الصوت مقابلا في بعض آخر .

وقد سمح هذا – ولا شك – للغويين التاريخيين بأن يتوصلوا إلى عمل جداول توضح التقابلات الفونولوجية بين اللغات ، وأن يتنبئوا – مع قدر كبير من الثقة – بأنه إذا ظهر صوت « P » في أول الكلمة في لفظ في السنسكريتية واليونانية واللاتينية والسلافية فسيظهر في شكل « f » في الجرمانية ، وفي شكل « h » في الأرمينية ، وسيسقط تماماً في اللغة الكلتية . وبالإضافة إلى قيمة هذه الجداول باعتبارها دليلا على وجود علاقات قوية بين هذه اللغات التي أطلق عليها فيما بعد اسم Indo-European فإنها تساعد كذلك على إعطاء بعض التنبؤات عن الصورة التي كانت عليها اللغة الأم . فبعد أخذ عينات مختلفة من التركيبات النحوية ، وخصوصاً المتطابق منها ، وعينات من المفردات اللغوية . وأخرى من الفونيمات التي تأخذ دوراً بارزاً في الكلمات المتقابلة في مختلف اللغات – يمكن للباحثين أن يعيدوا تركيب اللغة الأم ، ولو بصورة تقريبية على الأقل ، بمظاهرها وصيغها . وهي لغة لم يصل إلينا منها أي تسجيلات مكتوبة . ومن الممكن حينئذ أن يقال إن المقارنة ربما تؤدي إلى إعادة بناء لغة ما ، وهو – في حد ذاته – شيء له طريقته الفنية ومنهجه الخاص .

وكما تؤدي الدراسة المقارنة إلى اكتشاف علاقات وطيدة بين مجموعة

من اللغات فإنها تؤدي إلى استبعاد عدد آخر عن المجموعة . فهي تقرر أن الإنجليزية ، والألمانية ، والإسكندنافية ، واللغات الرومانسية ، والسلافية ، واللغات الفارسية ، والهندية الشمالية ، واليونانية ، والألبانية ، والأرمينية ، ولغات أخرى معينة تعرضت للانقراض منذ آماد بعيدة كلها تقع تحت المجموعة الهندية الأوربية . ولكنها - في نفس الوقت - تقصي عن المجموعة لغات أخرى مثل الهنغارية ، والفنلندية ، والتركية والعربية ، والعبرية ، والصينية، واليابانية ، وعديداً آخر من اللغات . ولكن كثيرا من هذه اللغات نفسها يبدو مكونا لعائلات لغوية منفصلة يمكن تطبيق القوانين المقارنة عليها . وإلى جانب العائلة الهندية الأوربية توجد عائلات أخرى مثل العائلة الحامية السامية (المصرية القديمة - القبطية - البربرية الحديثة بالنسبة للفرع الحامي ، والأكادية القديمة - الفينيقية - العبرية الحديثة - العربية - الأمهرية بالنسبة للفرع السامي) ومثل العائلة الأورالية الألطائية Ural-Altaic ، وتشتمل على الهنغارية والفنلندية والإستونية بالنسبة للفرع الأورالي ، والتركية والمنغولية والأوزبكية والمنشورية بالنسبة للفرع الألطائي :

وعن هذا الطريق أصبح ممكنا من الناحية التاريخية تصنيف كثير من لغات العالم الهامة قديمها وحديثها ، إلى عائلات. وهناك بعض اللغات التي استعصت على الدراسة المقارنة ، وخصوصا تلك اللغات التي يتكلمها أناس متخلفون ، والتي ليس لها صورة مكتوبة أو تقاليد تاريخية . ولكن حتى مع هذه اللغات فإن الجهود الكبيرة التي استعملت المنهج اللغوي الوصفي مكنت المتخصصين أخيرا من تحقيق انتصارات باهرة في ناحيتي تصنيف اللغات وإعادة بنائها لدرجة أن معلوماتنا الحديثة عن تصنيف اللغات الهندية الأمريكية ، أو لغات الإفريقيين الزنوج ، ومعلوماتنا التاريخية عنها تعد معلومات خصبة غنية ما كان من الممكن تقدير الوصول إليها منذ قرن مضى .

٣٤ - التصنيف العائلي :

اللغات الهندية الأوربية وغير الهندية الأوربية

إن أهم ما نتج عن المنهج المقارن هو تصنيف اللغات وربطها بسلسلة نسبية على أسس تاريخية . إنه المنهج المقارن الذي سمح للغويين التاريخيين أن يصرحوا - في شيء كبير من الثقة - أن لغات مثل الأرمينية والحثية يجب أن تدرج ضمن اللغات الهندية الأوربية ، على الرغم من التغير الكبير الذي لحقهما ، والاختلاط الذي تعرضتا له . وإنه كذلك المنهج المقارن الذي سمح للغوي الحديث أن يؤكد أن اللغة الإنجليزية واحدة من اللغات الهندية الأوربية من الفرع الجرماني ، وليس - كما يعتقد كثير من المتعلمين غير المتخصصين - أنها خليط من الجرمانية والرومانسية .

ولعل أول ثمرة من ثمرات البحث المقارن كانت السماح بعزل اللغات المنتمية إلى العائلة الهندية الأوربية عن غيرها من اللغات التي ظهر فيما بعد أنها تشكل بذاتها عائلات لغوية أخرى . وبالنسبة للغات الهندية الأوربية فقد سمحت المماثلة بينها في بعض الظواهر التركيبية النحوية الأساسية ، والمفردات الضرورية ، ونظام التقابلات الصوتية المطردة - سمحت بخلق إحساس بقرابتها . ولكن ظهر من ناحية أخرى - وعن طريق الملاحظة - أن اللغات الثمانية الباقية حتى العصر الحاضر (الكلتية ، والجرمانية ، والإيطاليقية ، واليونانية ، والألبانية ، والبلطية السلافية ، والأرمينية ، والهندية والإيرانية) تشكل فيما بينها مجموعتين اثنتين رئيسيتين على أساس الاختلاف الصوتي المعين بينها . فاللغات الكلتية والجرمانية والإيطاليقية ، وبوجه عام اليونانية والألبانية توجد فيها - تحت ظروف معينة - أصوات طبقية ، وينضم إليها في ذلك اللغة الطخارية المنقرضة . في حين أننا نجد اللغات البلطية السلافية ، والأرمينية ، والهندية الإيرانية تشتمل على حروف صفيرية في نفس المواقع .

وقد أدى هذا إلى تصنيف ثان لتلك العائلة الهندية الأوربية إلى مجموعتين هما Satem Languages ، و Centum Languages ، مــع الزعم بأنه في عصر ما قبل التاريخ وجد قسمان من المتكلمين الأصليين للغات الهنديـة الأوربية يمثل أحدهما الجزء الشرقي ، والآخر الجزء الغربي.

ومع أن هذه النظرية قد عدلت مؤخرا حينما اكتشف أن اللغة الطخارية التي تعتبر جغرافيا من اللغات الهندية الأوربية الشرقية — ترتبط بالمجموعة اللغوية المسماة Centum فإنها ما تزال صالحة للاستعمال ، لأنها — على الأقل — تمدنا بأساس معقول ومناسب للتصنيف اللغوي .

وقد كان التوصل إلى بعض المشابه — عن طريق المقارنة — بين مجموعتين أو مجموعات من اللغات ، واكتشاف اشتراكها — دون غيرها — في بعض السمات سبباً في ظهور نظريات أخرى . وعلى سبيل المثال توجد نظرية تقول بأصل موحد للمجموعتين الإيطالينية والكلتية يمتد إلى ما وراء فترة انفصال اللغات الغربية . وقد أسست هذه النظرية على ما لوحظ من أن كلتا المجموعتين تنقسم إلى قسمين فرعيين يمكن أن يسمى أحدهما مجموعة p والآخر مجموعة q [1] . وهناك ظواهر مماثلة ساعدت على تكوين نظريات تقول بوحدة اللغات الجرمانية السلافية في وقت ما ، وحتى على القول بوجــود انقسام في المجموعة الإيطاليقية مع الأسكانية والأمبرية التي تبدو فيها خصائص مشتركة مع الجرمانية . وقد يؤدي هذا باللاتينية والفالسكانية إلى أن تشــكل بنفسها مجموعة الإيطاليقية مع احتمال إضافة الصقلية القديمة . ولكن النتائج الحاسمة في الموضوع تبدو مفتقرة إلى البرهان ، في حدود الشواهد التي في أيدينا ، رغم أن هذه النظريات تشكل موضوعات هامة للمناقشة .

---

(١) في المجموعة الإيطالية تملك اللاتينية quis و quinque ولكن الأسكانية تملك في مقابلهما pis و Pumpe (بمعنى من وخمسة) . وفي المجموعة الكلتية تملك الأيرلندية culg و ceathair ولكن الويلزية تملك في مقابلهما pump و pedwar (بمعنى خمسة وأربعة) .

وفي فترة متأخرة كان للطريقة المقارنة الفضل الكبير في نسبة الخط الميتري المسمى Minoan Linear B inscriptions إلى العائلة الإفريقية مع افتراض أنها تمثل صورا مبكرة للنقوش الإغريقية (حوالي ١٤٠٠ ق . م) أكثر قدما من قصائد هوميروس (٨٠٠ ق . م)التي كان ينظر إليها حتى ذلك الوقت باعتبارها أقدم أمثلة مسجلة للإغريقية . وإن الاكتشافات الحديثة التي تتم من وقت لآخر تخضع هي الأخرى للدراسة المقارنة ، وتتكون نظريات جديدة على أساس نتائج هذه المقارنات . ومن الملاحظ أنه في بعض الأحيان تؤيد الشواهد الجديدة نظرية قديمة لم تكن مؤكدة (كما حدث في دراسة العالم Kurilowicz للأصوات الحنجرية للغة الحثية التي أيدت نظرية De Saussure القديمة أن كل الجذور الهندية الأوربية تفضل القالب : ساكن — علة — ساكن) . ولكن في بعض الأحيان تختلف الشواهد الجديدة مع النظرية القديمة .

ومن بين كل العائلات اللغوية تعد اللغات الهندية الأوربية هي المجموعة الوحيدة التي لاقت عناية كبير حتى الآن ، وعليها أسست نظريات . ومنها استخلصت نتائج تعتبر أكثرها دقة وصوابا . ويرجع ذلك لسببين هامين : أحدهما تيسر المادة المبكرة المسجلة التي سمحت بعمل مقارنات شاملة . أما الثاني فهو طبيعة الاهتمام الذي حف بتلك اللغات نظرا للكثرة الكثيرة من المتكلمين بها (حوالي نصف سكان العالم يتكلمون لغات من أصل هندي أوربي) ، وللدور الكبير الذي لعبه المتكلمون بها في ميدان الحضارة العالمية .

ويليها في درجة العناية ، ويقاربها في مدى قدم النصوص المسجلة (في الحقيقة ترجع هذه المسجلات اللغوية إلى فترة زمنية أسبق من اللغات الهندية الأوربية) ، وفي الأثر الذي لعبته في الحضارة الإنسانية (ولكن ليس في عدد المتكلمين) اللغات الحامية السامية Hamito — Semitic (بالاضافة إلى فرع ثالث هو الكوشية المتكلمة في أثيوبيا والأماكن المجاورة) . وتتمثل

اللغات الحامية في المصرية القديمة والقبطية الحديثة والبربرية (من بين اللهجات البربرية المستعملة الآن اللهجة الطوارقية ولهجة الشلحا وكلتاهما موجودة في الشمال الإفريقي . وكذلك لهجة جزر الكناري التي بادت الآن) . ومن المعتقد أنه في وقت ما كانت اللغات الحامية تغطي كل إفريقيا الشمالية ، وكانت تتكلم في كل من ليبيا ونوميديا ، إلى أن حل محلها جزئيا لغات سامية وفدت أولاً على أيدي الفينيقيين (فينيقيي قرطاجة القديمة) ومؤخرا على أيدي العرب . أما الفرع السامي لهذه العائلة فله أعضاء قديمة متميزة مثل الأكادية (لسان البابليين والآشوريين) والفينيقية (بفرعها القرطاجي أو البونيقي) والعبرية (وكذلك اللغات المتصلة بمناطق الكتاب المقدس مثل الآرامية والسريانية والمؤابية) والعربية والأمهرية والتيجرية المتكلمة في أثيوبيا والمصدرة في الغالب من الجنوب العربي . وهنا مرة أخرى بسبب كثرة المواد التاريخية المسجلة فإن الدراسة المقارنة قد توصلت إلى تصنيف دقيق لتلك اللغات، ووصفها .

وإن فقه اللغة الحامي السامي بدافع من الاهتمام التاريخي العام قد أصبح من الناحية العملية على قدم المساواة في الأهمية مع اللغات الهندية الأوربية .

أما بالنسبة للعائلات اللغوية الأخرى فإن الدراسات التاريخية أكثر صعوبة. هناك فقط العائلة الصينية التبتية التي لها تاريخ قديم ، وحضارة عريقة تعد على قدم المساواة — على الأقل — مع اللغات الهندية الأوربية ، والحامية السامية . ولكن بالنسبة لهذه العائلة يوجد عيب كبير قلل من إمكانية الدراسة التاريخية أو المقارنة وهو أن لغتها المكتوبة لاتتصل مباشرة بالأصوات الكلامية وإنما بالصور العقلية . ولكن الآن — وباستخدام البراعة والمهارة الاستنباطية — أمكن للباحثين أن يصلوا إلى بعض النتائج الهامة ، مثل إعادة تركيب الصينية القديمة ، واللغات اللصيقة بها مثل التايلاندية ، والبورمية ، والتبتية ، وذلك من خلال معاجم القافية — إلى حد كبير — والألفاظ المقترضة منها في اليابانية والكورية . وهناك

شيء مماثل كان يجب التوصل إليه بالنسبة للفرع الياباني الكوري ، ولكـــن النتائج حتى الآن تافهة . أما اللغات الأورالية والألطائية فتعد مسجلاتها اللغوية متأخرة نوعاً ، كمـــا هو بالنسبة للغات القوقازية ولغات إندونيسيا والفليبين ومدغشقر وساموا ونيوزلاندة وهاواي . أما بالنسبة للعائلة الدرافيدية الموجودة في جنوبي الهند فما تزال الشواهد غامضة . وفي حالة اللغات الهندية الأمريكية يعتبر الوصول إلى مادة مكتوبة مسجلة أمراً لا أمل فيه : وكذلك الحال بالنسبة لزنوج إفريقية ولغات المواطنين الأستراليين الأصليين واللغات البابوانية . وإلى جانب هذه الندرة في المادة المسجلة يجب أن نضيف عـــاملا آخر وهـــو نقص الإحساس بالأهمية الذي ظل مسيطراً حتى الآن على دراسة تلك اللغات التي قامت بدور صغير أو لم تقم بأي دور في الحضارة الأوربية التي كان ــ وما يزال ــ يعتقد ، سواء كان ذلك حقاً أو باطلا ، أنها الحضارة العليا .

وعلى الرغم من أسبقية علم اللغة التاريخي في ميدان البحث اللغوي ــ ومن التقدم المطرد الذي أمكن تحقيقه خلال القرنين الماضيين فما زالت هناك جهود ضخمة يمكن بذلها حتى بالنسبة لتلك اللغات التي لاقت اهتماماً كبيراً . فإن هناك اكتشافات جديدة لكتابات مسجلة ما تزال يتوصل إليها، ويجب كلما اكتشف شيء من ذلك أن يعاد النظر في النتائج المقارنة السابقة ، التي كان بعضها فرضياً، ويدخل عليها من التعديلات ما هو ضروري بعد الاستفادة من تلك الشواهد الجديدة . وحينما يكون الحصول على مادة مكتوبة ــ بالنسبة للغات القديمة ــ غير متيسر يتجه البحث المقارن إلى اللغات الحية، ويأخذ قيمة كبيرة وهنا نجد المنهجين التاريخي والوصفي يدخلان في شكل انسجامي تعاوني مثمر .

٣٥ ـ منهج لإعادة البناء الداخلي للغة

يحاول اللغوي « إعادة البناء الداخلي » للغة عن طريق الدراسة المقارنة حينما يجد إلى ذلك سبيلاً. ولكنه في حالات أخرى يقوم بمحاولته دون ما مقارنة. ففي دراسة اللغة الإترورية ـ على سبيل المثال ـ أمكن اللغوي من غير الإفادة من ازدواجية اللغة ـ كما في حجر رشيد ـ أو دون الاستعانة بلغة أخرى مشابهة ـ أمكنه الاهتداء ، بدرجة ما من اليقين ، إلى حقائق لغوية عن اللغة الإترورية نفسها وكيفية استعمالها للكلمات ، وما يستخدم من هذه الكلمات كأسماء ، وما يستخدم كأفعال أو صفات . وحتى أمكنه الوصول إلى نتائج تتعلق بالنظام الإعرابي ، والنهايات التصريفية ، وأواخر الأفعال . ولكن هذه المحاولات لاتكفي لإلقاء الضوء على اللغة ، كما يحدث لو كانت معاني الكلمات معروفة أيضاً ، وإن كانت تمثل بداية على الأقل .

وفي بعض الأحيان تستخدم إعادة البناء الداخلي ، والتاريخ الداخلي للغة بطريقة بارعة للكشف حتى عن بعض النقاط الغامضة في بعض اللغات المعروفة لنا جيداً . إن كمية الصوت « e »اللاتيني في Lectus وفي téctus لا تدل عليها الطريقة الكتابية للهجاء الروماني التي نادراً ما تبين طول العلة، كما لا تدل عليها طريقة تقطيع الشعر اللاتيني التي عادة ما تحل مشاكلنا حول هذه النقطة • إن التقطيع الشعري اللاتيني يتبع الكمية ، ولكنها كمية المقطع لا العلة هي التي تؤثر (يكون المقطع طويلاً إذا احتوى على علة طويلة ، ولكنه يكون طويلاً كذلك إذا احتوى على علة قصيرة متبوعة بساكن أو أكثر في نفس المقطع) . وإن التطور الرومانسي ـ على كل حال ـ يبين أن lit الفرنسية و letto الإيطالية تشتمل على «e» المفتوحة ، وهذا الناتج يتحصل عليه عادة إذا كانت «e» قصيرة في اللاتينية . ولكن toit الفرنسية و tetto الإيطالية تشتمل على «e» المغلقة . وهذا الناتج يتحصل عليه عادة إذا كانت «e» طويلة في اللاتينية . فنحن إذن قادرون بكل ثقة أن ندعي أن lectus اللاتينية تحتوي

على «e» القصيرة وأن téctus تحتوي على «e» الطويلة . وربما كان من الممكن تأكيد هذه النتيجة عن طريق مقارنة الكلمات اللاتينية بكلمات مقاربة في لغات أخرى في نفس عائلة اللغات الهندية الأوربية . ولكن ذلك ربما جرنا إلى دراسات مقارنة لسنا في حاجة إليها . إذ يمكن حل مشكلتنا عن طريق الدليل الداخلي وحده في اللاتينية وسلالاتها .

وقد استعمل دي سوسير إعادة التركيب اللغوي عند إثبات وجود صوت ساكن ثان مضمحل للجذور اللاتينية التي تحتوي — بصورة استثنائية — على ساكن واحد (النموذج العادي للجذر اللاتيني هو ساكن — علة — ساكن) . وقد وجدت مؤخراً ، بعد اكتشاف اللغة الحثية ، (عضو بائد من العائلة الهندية الأوربية) صورة منعكسة لهذا الساكن المضمحل مؤكدة صحة الفرض القديم .

٣٦ — تاريخ اللغات والإحصاء المعجمي

وهنا لدينا نظام منهجي يهدف إلى أن يدلنا عند أي فترة تاريخية تباعدت لغتان قريبتان ، وذلك عن طريق أخذ عينات مختلفة من مفرداتها كما تظهر الآن وعمل تخطيط يبين مقدار الكلمات التي ما تزال مشتركة بينهما ، مع تطابق المعنى أو اختلافه ، والكلمات المختلفة . وبعد هذا — مع الاستعانة بعمليات إحصائية حسابية معقدة نوعاً — يمكن الوصول إلى تحديد الطول الزمني الذي استغرقته هذه اللغات حتى وقع بينها الاختلاف .

ولكن مشكلة هذا المنهج أنه ذاتي إلى حد كبير وغير دقيق . ومنذ البداية يواجهنا السؤال الحائر : ماذا يمكن أن تمثل كمية معقولة من العينات الكلامية ؟ ومن سيكون الحكم في اختيار أنواع معينة من الكلام واستبعاد أنواع أخرى ؟ وشيء ثان هو : أي أساس نملكه حتى نزعم أن الاختلافات الحادثة فعلا تتفق في وقتها مع الزمن الذي نقدره ؟ اللهم إلا إذا أمكننا أن نأخذ نفس المفردات ،

ونعقد مقارنات بينها على طول التاريخ الطويل للغتين . وإن معاني الكلمات تتغير دائماً بشكل ملحوظ ، فإذا حدث وظلت الكلمة حية في اللغتين فأي درجة من التغير الدلالي سوف نقبلها باعتبارها تشكل اختلافاً كافياً يسمح لنا أن نقول إن الكلمتين لم تعودا بعد متقاربتين ، ويجب أن توضعا في عمود السوالب لا في عمود الموجبات . أضف إلى ذلك أن جامعي الإحصاءات المعجمية عادة ما يكشفون عن جهل مؤسف باللغات التي يعالجونها ، وبتطورها التاريخي ، وحتى بمركزها الحاضر .

ولم تؤخذ في الاعتبار — من الناحيتين المادية والمنهجية — مرحلة الحضارة التي أمكن اجتيازها وقت انفصال اللغتين . وإنه من الشائع على الألسن — على سبيل المثال — أنه يوجد اتفاق بعيد المدى في معاني الكلمات بين اللغات — الرومانسية أكثر منه بين اللغات الجرمانية . وقائل هذا يعلله بأنه يعود إلى أن اللغات الرومانسية تلتقي في تمثيلها لقدر مشترك من الحضارة الرومانية ، بينما الجرمانية قد انفصلت لغاتها في وقت كانت ما تزال فيه في درجة متأخرة . ونتيجة لهذا فإن كلمة **pedicure** أو بعض الصيغ الأخرى المماثلة ستكون مشتركة بين اللغات الرومانسية كلها ، بينما كلمة **Fusspflege** الألمانية لا تحمل معنى عند المتكلم الإنجليزي ، على الرغم من أنه يملك في لغته المقابل الاشتقاقي للعناصر الألمانية وهي **foot** و **ply** .

وهناك مجال لإعطاء هذه الدراسة طابعاً علمياً . ولكن هذا قد يستدعي دراسة مقارنة تفصيلية لكل الملامح الموجودة في لغتين أو أكثر ، سواء كانت صوتية أو صرفية أو نحوية أو معجمية . فإذا طبق هذا المنهج الدقيق فإننا سنجد أمامنا — كمعاملات عددية **numerical coefficients** — درجات الاختلاف التي أدت إلى انشعاب لغة عن أخرى . وبذلك نكون قادرين على أن نحكم — مثلا — بأن اختلاف اللغة السردينية عن اللاتينية القديمة أقل بكثير من اختلاف اللغة الرومانية عنها . إننا قد نعرف بالضبط — باستخدام الطريقة

العربية – درجة اختلاف كل واحدة من اللغتين عن اللغة الأم، وربما أمكننا أن نصل كذلك إلى معرفة درجة العلاقة الحاضرة بين الفرعين اللغويين الحديثين. وهذه النسب المئوية قد يمكن حينئذ تشغيلها بمساعدة حقائق تاريخية معروفـــة لترتيب الأحداث تاريخياً. ولكن مادامت الوسيلة التطبيقية المتبعة الآن – كما كان الحال في الماضي – طريقة تتعرض للإصابة والخطأ، لأنها تعتمد أكثر ما تعتمد على واحد أو أكثر من الظواهر التي حدث وأثارت مخيلة اللغوي، بينما تغفل في الواقع كل العوامل الأخرى – فستظل لا تخدم أي غرض، ولا توصل إلى نتيجة سوى إثارة الجدل والنقاش.

وإن التاريخ اللغوي، والإحصاء المعجمي ليعدان فحسب آخر مظهر للمناهج غير العلمية في أساسها.

القسم السادس

علم اللغة الجغرافي

(اصطلاحات ومصاعب رئيسية)

٣٧ – وظيفة علم اللغة الجغرافي

إن علم اللغة الوصفي يختص أساساً بدراسة اللغة من الناحية التجريدية ، وبوصف لغات معينة من النواحي الفونيمية والصرفية والنحوية والمعجمية . أما علم اللغة التاريخي فيعالج تطور اللغة أو اللغات ، وإعادة بناء اللغات الأم المفترضة على أساس الدراسة المقارنة للملامح الموجودة في اللغات المتفرعة عنها. ولا واحد من هذين الفرعين التقليديين يعد من وظيفته الأساسية دراسة لغات العالم اليوم ، وعلاقاتها الجغرافية ، وتوزيعها على خريطة العالم ، وبيان أهمية كل من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية .

وقد نالت هذه المشكلات شيئاً ضئيلاً من الاهتمام حين عولجت في بعض الكتيبات الحديثة خلال تناولها لبعض المسائل اللغوية التاريخية أو الوصفية . صفحات قليلة – لاتتجاوز فصلا واحداً في العادة – قد خصصت لبيان عدد المتكلمين اليوم بكل لغة ، ولدراسة توزيع اللغات في العالم . وأحياناً ما تجد المعلومات عن هذا الموضوع موزعة في فصول متعددة من الكتاب كأنها شيء عرضي أو ثانوي بالنسبة لتركيب اللغة نفسها ، أو لتطورها التاريخي . ونادراً – إن لم يكن معدوماً – ما يشار إلى تلك الملامح والسمات ذات الأهمية العلمية العظمى ، ليس فقط بالنسبة للغويين المتخصصين ، ولكن أيضاً بالنسبة للشخص

المتعلم العادي. (١) وإن موضوع علم اللغة الجغرافي — الذي يشمل لغات العالم بأسرها — نادراً. إن لم يكن معدوماً — ما يعالج في منهج دراسي عادي في مرحلة الدراسة العالية أو الجامعية، التي تتناول اللغات معزولاً بعضها عن بعض، ولا تلقي بالاً إلى غير القواعد النحوية، والقضايا الأدبية. ومن أجل هذا فإن الشخص المتعلم العادي كثيراً ما يخرج من دراسته العالية إما بتصور خاطىء أو مبالغ فيه عن أهمية لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية التي درسها، وإما بجهل فاضح بالدور الذي تلعبه لغات أخرى متنوعة في عالمنا اليوم.

وربما كان هذا مقبولاً فيما مضى حين كانت الجنسيات المختلفة — وخصوصاً الغربية منها — تعيش حياة منعزلة نوعاً عن غيرها. أما الآن ونحن في أواخر القرن العشرين فلا يمكن قبول هذا بعد أن تقدمت وسائل الاتصال

---

(١) إذا أخذنا سبعة من الكتب في الحقلين الوصفي والتاريخي كنموذج لهذا الإهمال نجد النسبة لما يمكن أن يعتبر — ولو لقدر بسيط من علم اللغة الجغرافي — كالآتي:

أ — كتاب Bloomfield المسمى Language نجد فيه الصفحات: ٥٧ — ٧٣، ٢٨١ — ٢٩٦، أي ٣١ صفحة من ٥٦٤ صفحة.

ب — كتاب L.H. Gray المسمى Foundation of Language لا نجد فيه شيئاً، أو من ص ٢٩٥ — ٤١٨ بشيء من التجوز، أي ١٢٣ صفحة من ٥٢٠ صفحة.

جـ — كتاب Sturtevant المسمى An Introduction to Linguistic Science لا نجد فيه شيئاً مع أنه يبلغ ١٧٣ صفحة.

د — كتاب Hockett المسمى Course in Modern Linguistics نجد فيه الصفحات ٥٣٩ — ٥٤٩، ٥٨٧ — ٥٩٨، أي ٢٢ صفحة من ٦٢١ صفحة.

هـ — كتاب Gleason المسمى Introduction to Descriptive Linguistics نجد فيه الصفحات من ٤٠٨ — ٤٣٨، ٤٥٧ — ٤٧٩، أي ٥٤ صفحة من صفحة ٥٠٣.

و — كتاب Lehmann المسمى Historical Linguistics من صفحة ١٧ — ٥٠ أي ٣٣ صفحة من ٢٩٥ صفحة.

ز — كتاب Hughes المسمى The Science of Language من صفحة ٧٣ — ١٤٤ أي ٧١ صفحة من ٣٠٥ صفحة.

ولا يتفق مع منهجنا في علم اللغة الجغرافي سوى أول هذه الكتب وآخرها.

والالتقاء ، وقربت المسافات إلى أقصى مدى ممكن ، وحصل تبادل في الثقافة ووسائل التجارة ، وأصبح أي اضطراب سياسي في مكان ما لا يؤثر فقط على بلد واحد أو منطقة واحدة ، وإنما ينعكس في مناطق بعيدة من العالم . إنه ليس مقبولا أو مستساغاً الآن أن يعتقد شخص مثقف أن اللغة الأسبانية هي المتكلمة في البرازيل ،(١) وأن يتحير أمام صحيفة معروضة في محل لبيع الصحف أهي مكتوبة بالروسية أم البولندية .(٢) وهناك حاجة ملحة الآن لوضع تعليمات يمكن أن تمد دارسي اللغات بمعلومات أقل ما تحويه تعريفهم باللغات الرئيسية في العالم ، ومكانها على الخريطة ، ومن المتكلمون بها ، وما عددهم ، ومـا قيمتهم من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية . ومن غير أي جهد لتحويل الدارس إلى متكلم باللغات الرئيسية — الأمر الذي يعد مستحيلا بشكل واضح — فإن هذا النوع من الدراسة سوف يزوده على الأقل بالسمات الهامة لتلك اللغات من ناحيتيها المتكلمة والمكتوبة ، بقصد التعرف على كل ، إن لم يكن هناك قصد آخر .

هذا النوع من المعلومات — ذو الطابع العملي بدرجة كبيرة — يشكـل الأساس لعلم اللغة الجغرافي في معناه العام الأولي . إنه لمن الأهمية بمكان للمتعلم الجامعي — على الأقل — أن يعرف أن البرتغالية تتكلم في البرازيل ، وأن الصينية — بلهجاتها المتعددة — تملك أكثر من ٦٠٠ مليون متكلم ، وأن الألمانية والروسية — أكثر من الإنجليزية والفرنسية — يمكن أن تستعملا الآن كلغات بديلـة في المجر ، وفي تشيكوسلوفاكيا ، تماماً كما هو هام أن يعرف الفرق بين الصوت والفونيم ، أو يعرف أن اللغة الرومانية متفرعة عن اللاتينية ، وأن اللاتينية متفرعة بدورها عن الأسرة الهندية الأوربية . أما في معناه العلمي المعقد فإن علم اللغة

(١) اللغة المتكلمة هي البرتغالية لا الأسبانية .

(٢) سئل المؤلف هذا السؤال من شخص مثقف ثقافة عالية جدا ، يعرف من اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية والإيطالية .

الجغرافي يتناول – في تفصيل – لغات المناطق المتنوعة على وجــه الأرض ، وكيف يمكن الاستفادة منها ، أو إحلال غيرها محلها ، وماذا تمثل من وجهة النظر العملية للرجل العسكري ، والموظف الحكومي ، والباحث العلمي والفني والمبشر ، وقوات الأمن الدولية . ولسرعة تحركات هذه الطبقات ونحوها فإنه لا يكفي أن يعرف الفرد منهم معلومات سريعة عن لغات منطقة معينة . (١) إنهم يجب أن يلقنوا بعض معلومات عن لغات مناطق أخرى ، ربما تعرضوا للانتقال المفاجيء إليها . وأهم من هذا ضرورة إعداد دراسات مفصلة ، وعمل إحصاءات عن اللغات ، والأمية ، والمركز التعليمي لمناطق العالم المختلفة . وكذلك إعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم أن يسايــروا التطورات السريعة المتوقعة في هذا الحقل . وهذه المعلومات أكثر فنية مما قد يبدو للنظرة السطحية ، ولا يمكن أن تكتسب بين يوم وليلة . وهذه الدراسة ليست تابعة – إلا من بعض جوانب غير مباشرة – لعلم اللغة التاريخي ، أو الوصفي . ولكنها تشكل حقلاً خاصاً بنفسها ..

وبينما نجد بعض مصطلحات علم اللغة الجغرافي تتفق مع مصطلحات علم اللغة الوصفي أو التاريخي ، فهناك مصطلحات كثيرة نادراً ما تستعمل في الأعمال اللغوية التقليدية .

مصطلح اللغة الأهلية أو البلدية **indigenous language** يطلق على اللسان المتكلم الشائع الاستعمال في منطقة معينة مثل البنجالي في الجزء الشمالي الشرقي من الهند ، والجزء الشرقي من باكستان . إنها ربما تتطابق أو لا تتطابق مع اللغة الــوطنيــة **national language** أو الــرسمية **official language**

---

(١) ضابط في الجيش وثيق الصلة بالمؤلف عين في المملكة العربية السعودية ، وأخبر بضرورة تعلمه اللغة العربية في مدرسة لغات تابعة للجيش الأمريكي . وقبل مضي شهرين على هذا الأمر ألغي الأمر السابق وصدر الأمر بإرساله إلى كوريا . وقد أمر من أجل ذلك بترك تعلم اللغة العربية ، والالتحاق بفصول اللغة الكورية .

اللغة الأولى هي اللغة الشائعة الاستعمال بين جميع أفراد الأمة ، مثل اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو التي تحاول الحكومة الوطنية أن تجعلها كذلك ، مثل اللغة الهندية في الهند ، أو التاغالوغية في الفليبين ، إذ كل منهما في الحقيقة لغة لفريق من المواطنين ، ولكن تحاول الحكومة أن تفرضها على سائر أفراد الشعب . إنها ربما كانت أيضاً لغة لا تجد إلا تأييداً حكومياً قليلا ولا يحتاج إليها في الوثائق الرسمية أو النقوش وذلك مثل اللغة الرومانشية في سويسرا . أما اللغة الرسمية فهي تلك التي تستعمل في الوثائق الرسمية ، وفي المقابلات على المستوى الحكومي (الألمانية والفرنسية والإيطالية تعد لغات رسمية في سويسرا ، والفرنسية والفلمنكية في بلجيكا ، والإنجليزية والأفريكانية في جنوب إفريقية ، والفرنسية والإنجليزية في كندا) . واللغة الرسمية ليست بالضرورة اللغة الأهلية للمنطقة بأسرها ، بل ربما لم تكن لغة أهلية على الإطلاق (مثل الإنجليزية في بورتوريكو التي تعد رسمية هناك مع الأسبانية) . وصورة اللغة الرسمية والوطنية دائمة التغير في حين أن اللغة الأهلية — على الرغم من تعرضها لتغيرات طويلة الأجل — أكثر استقراراً بدرجة ملموسة . فالأردية في شرق باكستان — على سبيل المثال — كانت اللغة الرسمية الثابتة ، ولكن البنجالية هي اللغة الأهلية (الأردية هي اللغة الأهلية في غرب باكستان) ، ونتيجة لفتن أهلية أصبحت البنجالية لغة رسمية بالاشتراك مع الأردية .

وقد خلق استعمار القرون الماضية ما يسمى باللغات الاستعمارية colonial languages ، أو colonizing languages ، أو لغات الاستعمار languages of colonization التي تطلق على اللغات الرسمية الأساسية في المناطق المحتلة بقوات استعمارية . وبهذا المعنى أصبحت الإنجليزية اللغة الاستعمارية والرسمية في الهند فارضة نفسها على اللغات الأهلية المتعددة . وتظل اللغة الاستعمارية المفروضة superimposed حية حتى بعد اختفاء القوة الاستعمارية . وكثيراً ما تظل لغة رسمية ، أو واحدة من اللغات الرسمية للبلد الحديث الاستقلال . ومن أمثلة ذلك اللغة الإنجليزية في نيجيريا ، وغانا ، واللغة

الفرنسية في الأمم الجديدة التي خرجت عن الوصاية الفرنسية في أفريقيا .

وهناك نوع أكثر غموضاً وخفاء حيث تفرض اللغة نفسها كلغة منطقة area (or regional) lang..a;e كما فعلت الروسية في شرقي أوربا ، وكما فعلت الفرنسية أو الإنجليزية في مناطق متنوعة من العالم ، حيث لا يعد أي منها لغات أهلية أو رسمية . وفي هذه المناطق تميل اللغة الأهلية إلى أن تكون لغة تابعة satellite language وتتعرض لكل أنواع التأثير من اللغة السائدة حيث تقترض منها كلمات وتعبيرات وتركيبات ، ولكن مع احتفاظها باستقلالها ومركزها كلغة منفصلة .

وهذا يوجد غالباً ما يسمى بمنطقة النفوذ اللغوي linguistic sphere of influence حيث يكون لسان المجموعة الغالبة متكلماً ومفهوماً بشكل واسع ، ويؤثر في مجموعة اللغات التابعة .

وفي بعض الأوقات تصبح لغة المستعمر لغة رسمية ، وربما أيضاً لغة وطنية وأهلية عن طريق ما يعرف بالإحلال اللغوي linguistic replacement . وقد حدث هذا بالنسبة للغة الإنجليزية في أمريكا الشمالية ، وأستراليا ، ونيوزلانده ، وبالنسبة للغة الفرنسية في الأقاليم الكندية بمنطقة كويبك ، وبالنسبة للأسبانية والبرتغالية جنوب ريوجراند . وحينئذ فإن اللغات الأهلية الأصلية ربما تميل إلى الاختفاء وربما عاشت في حالة وجود سلمي أو تكاملي مع اللغات الجديدة، مثل لغة Quichua في بيرو و Aymara في بوليفيا، و Tupi — Guarani في باراجواي . ونادراً ما يحدث أن تندمج اللغتان في لغة واحدة على أساس متعادل ، وإن كان المعتاد حدوث اقتراض شامل للكلمات والصيغ من كلا الجانبين . وربما ينتج عن ذلك خلق لغة مشتركة مبسطة أو مهجنة pidgin أو creole language حيث تسيطر اللغة المتولدة ، ولكن مع خضوع ملحوظ للعادات الكلامية للسكان الأصليين . وربما كانت عملية التوصل إلى لغة مشتركة مبسطة ، أو لغة مهجنة تسير ببطء شديد ، كما حدث مع لغة

الأفريكانيين في جنوب إفريقيا ؛ التي ماتزال أساسا الهولندية . وربما كانت العملية ملحوظة التقدم ، كما في اللغة الإنجليزية الميلانيزية المبسطة ، أو الفرنسية الهايتية المهجنة . وربما يصيب اللغة المهجنة نوع من عدم الاستقرار فتصبح لغة وطنية ، ولغة رسمية ، كما هو الحال بالنسبة للغة الأفريكانية والمالطية (أساساً عربية ولكن مع تأثيرات إيطالية كبيرة) . وربما كان أدخل في عدم الاستقرار اللغة المخلطة للمهاجرين أو المجنسين الجدد ، التي تميل عادة إلى الاختفاء بعد جيل أو جيلين . مثل الإيطالية ، واليدية وغيرها من لهجات المهاجرين immigrant dialects في الولايات المتحدة الأمريكية . وفي هذه الأنواع يتم عادة خلق صيغتين كلاميتين منفصلتين ، ولكن غير ثابتتين إلى حد كبير . أولاهما لغة المهاجرين الأصلية المحرفة عن طريق إضافة أعداد هائلة من الكلمات والتعبيرات المأخوذة من لغة البلد المستضيف ، ولكن مع الاحتفاظ بنماذجها الصرفية الأصلية ، وتطويع الكلمات والتعبيرات المقترضة لنظامها الصوتي . أما ثانيهما فلهجة المهاجرين التي يساء فيها نطق لغة البلد المستضيف ، وربما يساء استخدامها بوجه عام . ويتم الاستيعاب والامتصاص absorption حينما يتأتى الجيل الثاني أن يتمكن من لغة البلد المستضيف ، ويستخدمها كلغة أهلية أو بلدية . ولكن الامتصاص قد ينتج آثاره أيضاً حينما ينتقل السكان الأصليون إلى لغة الاستعمار . كما حدث مع أناس كثيرين من أصل هندي في أقطار مثل المكسيك والبرازيل الذين لا يتحدثون الآن سوى الأسبانية والبرتغالية . كذلك ربما يعمل الامتصاص عمله بطريقة عكسية ، كما حدث مع القوط أو الفرنكيين المتكلمين بالجرمانية حينما دخلوا الإمبراطورية الرومانية ، فتحولوا إلى متكلمين باللغة اللاتينية العامية والرومانسية القديمة ، ولكن مع مساهمتهم الفعالة في تنمية المادة اللغوية الرومانسية . والنورمانديون المتكلمون بالفرنسية قد امتصوا بنفس الطريقة داخل المجموعة المتكلمة باللغة الإنجليزية في القرون التي تلت الغزو النورماندي ، على الرغم من أنهم تركوا آثارهم الملحوظة في التطور الذي لحق اللغة الإنجليزية بعد ذلك .

أما مصطلح اللغة المقدسة liturgical tongue فيستعمل عــادة في الطقوس الدينية مثل اللغة اللاتينية في المناطق الكاثوليكية الرومانية . ومثل هذه اللغة تؤثر بعمق في اللغة المتكلمة بهذه المنطقة ، حيث يظهر مفعولها في شكل كلمات وصيغ وتعبيرات كثيرة . واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن المقدسة تُتكلم وتفهم على شكل واسع في البلاد المسلمة التي لا تتكلم اللغة العربية مثل إيران وباكستان .

وكثيرا ما تبرز لغة ما نتيجة لقيمتها الثقافية ، وبهذا نجدها تدرس وتستعمل في بلاد لاتتخذها لغة بلدية . وإن مكانة اللغة الفرنسية لمعروفة جيدا باعتبارها لغة دبلوماسية ، ولغة ذات ثقافة عامة في معظم أنحاء العالم، وعلى امتداد فترات طويلة تبلغ قرونا عديدة . وعلى الرغم من أن نفوذها ربما كان لبعض الوقت راجعا إلى نفوذها السياسي أو العسكري فإن مكانتها اليوم ثقافية محضة .

واللغة الفارسية مثل الفرنسية – في كثير من البلاد الإسلامية – حيــث تتخذ لغة ثقافية Cultural language . وغالبا مــا تمتزج الصفات المقدسة والثقافية لدرجة يصعب معها تخليصهما بعضهما من بعض . وقد بدأت اللغة اللاتينية كلغة مفروضة نتيجة الاستعمار ، ثم أصبحت لغة أهلية في الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، واستمرت لغة مقدسة وثقافية مدة طويلة بعد سقوط الإمبراطورية ، وما تزال حتى الآن تستعمل بهاتين الصفتين .

واللغة الوسط Koine or compromise language هي تلك الصيغة التي تحوي ملامح من لهجات عدة متصلة ، والتي تبرز في النهــاية كلغة بلدية ورسمية .

وإن اللهجات اليونانية القديمة قد تبلورت عن لغة وسط استُعملت في الفترة اليونانية الكلاسيكية المتأخرة ، وخلال آلاف السنين في الإمبراطورية البيزنطية .

وإن اللغة النموذجية الأدبية الإيطالية قد انبثقت عن نفس الطريق ، وربما وُصفت كذلك بأنها لغة وسط . ومثل هذا قد يصدق على لغة الباهاسا في

إندونيسيا ، التي تعد الآن لغة رسمية للجمهورية الإندونيسية ، حالة محل لغة أقدم كانت تستعمل بصفة غير رسمية في مسائل التجارة ، وهي لغة الملايو (وكانت أحيانا ما تسمى بلغة السوق الملايي) .

ومفهوم المصطلحات : اللغة الأساسية Primary ، والثانوية Secondary والمساعدة auxiliary ، والبديلة Substitute ضرورية في علم اللغة الجغرافي التطبيقي . إن اللغة الأساسية لبلد إنما هي في العادة لغتها البلدية والوطنية والرسمية . إنها اللغة التي تتمتع باعتراف الحكومة ، والتي تستعمل في الوثائق والاتصال ، إلى جانب تعليمها في المدارس . ولكن غالبا ما توجد لغة ثانوية يعرفها جمهور كبير من السكان ، وتستعمل في مجالات كثيرة . ومثال ذلك اللغة الألمانية في المجر وتشيكوسلوفاكيا وشمال يوغوسلافيا . أما اللغة المساعدة أو البديلة ، فهي تلك التي قد تستعمل في مجالات خاصة ، وحتى في الأوساط الرسمية . ومثال ذلك في اللغة الفرنسية في شمالي إفريقيه العربية التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي (الجزائر وتونس ومراكش) .

أما المصطلح التوزيع اللغوي linguistic distribution فيستخدم حين الحديث عن طريق انتشار اللغة في مناطق مختلفة من العالم . الإنجليزية والفرنسية لغتان من أوسع اللغات انتشارا ، والأسبانية والبرتغالية والعربية والألمانية على درجة أقل من الانتشار أما الروسية — التي كانت في يوم ما مقصورة على الاتحاد السوفيتي — فإنها تحاول الآن بعزم وتصميم أن توسع مجال انتشارها في أوربا الشرقية . أما الإيطالية والصينية والهندستانية والبنغالية والإندونيسية واليابانية فإنها لغات مقيدة إلى حد كبير بمناطقها المحلية . واللغة حينما تغادر موطنها الأصلي تكون قابلة للتعرض لعوامل الانتشار والتوسع diffusion ، أو لعوامل التبدد والانحلال dispersion . وهذا ينطبق مثلا على اللغة الإيطالية التي اكتسبت الانتشار والتوسع على أيدي المهاجرين إلى مختلف أنحاء العالم ، ولكنها في نفس الوقت خضعت لعامل التبدد والانحلال

حيث تلاشت بعد الجيل الثاني أو الثالث من على ألسنة المتكلمين بها من المهاجرين.

أما المصطلحات : ثنائية اللغة bilingualism ، أو ثلاثية اللغة trilingualism أو تعدد اللغة multilingualism فهي مصطلحات تصف حالات معينة حينما يتكلم فرد أو مجموعة ما لغتين أو أكثر على درجة واحدة تقريبا . وإن ثنائية اللغة من السهل تحقيقها حينما تكون اللغتان مستعملتين جنباً إلى جنب منذ الطفولة المبكرة ، وبشرط أن تستمرا إلى فترة متأخرة . وما يقال من أن ثنائية اللغة أوثلاثيتها تلحق الضرر بالتطور النفسي للفرد فدعوى لا دليل عليها . كذلك لا دليل على الدعوى الأخرى أن الثنائية تعوق التمكن من إحدى اللغتين أو كلتيهما . إن التمكن من أي لغة يتوقف على الفرد ، وليس على عدد اللغات المراد تعلمها . فالشخص الذي يتكلم بطريقة ناقصة سوف يتكلم لغة واحدة بنفس الطريقة الناقصة .

أما المصطلح: معامل القراءة والكتابة literacy coefficient . فيستخدم بالنسبة لكل لغة على حدة ، على أساس مئوي يبين نسبة المتكلمين باللغة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، والذين بالتالي يستطيعون مباشرة الاتصال عن طريق الصيغة المكتوبة .

وأما المصطلح معامل القومية nationalism coefficient فيشير إلى عامل تقل الصفة الموضوعية فيه . وهوعامل المشيئة الصادرة عن المتكلمين بلغة ما بالإبقاء على حياة لغتهم . وهو عامل معقد غالبا ما تختلط فيه عوامل الدين والجنس وعوامل أخرى (١) .

وهناك مجموعة أخرى من المصطلحات تختص بميدان اللغات الصناعية

---

(١) لاحظ مثلا أن العامل الديني كان ملاحظا في الاحتفاظ باللغة العبرية ، واتخاذها لغة رسمية في دولة إسرائيل ، إلى جانب عامل « الرغبة في الحياة » . وتبدو فاعلية هذين العاملين كذلك بالنسبة اللغة الكلتية في أيرلندا .

المؤلفة للاستعمال العالمي ، مثل الإسبرانتو ، والانترلينجوا . وهذه اللغات كثيرا ما توصف بأنها مركبة : constructed ، أو صناعية artifical (إشارة إلى أنها من صنع عقـل إنساني فردي ، وليست نتيجة نموطبيعـي عفوي) ، أودولية international ، أوعالمية universal (للإشارة إلى وظيفتها المرجوة) ، أومساعدة [1] auxiliary (للإشارة إلى أنهـا لم يقصد بها أن تحل محل لغة موجودة بالفعل وإنما تساعدها فقط) ، أو لغة وسيطة interlanguage (للإشارة إلى وظيفتها كوسيطة بين المتكلمين بلغات طبيعية مختلفة) . ومن بين المصطلحات المستخدمة كذلك مصطلـح اللغة المعدّلة modified language (مثـل Latino Sine Flexione التي تستخدم اللغة اللاتينية في مفرداتها العادية ، ونظام جملها ، ولكن مـع التخلص من النهايات التصريفية ، وعلامات الإعراب المعقدة ، ومع توحيد مقاييسها لخدمة أغراض عالمية) .

كذلك يستخدم المصطلح اللغة الأساسية basic language (مثـل الإنجليزية الأساسية التي حوول فيها تقليل عدد المفردات عن طريق الاستعانة بالعبارات المفسرة المرادفة واستخدام التجمعات الكلامية) . أما مصطلـح اللغة الأولية priori Language فيشير إلى اللغة التي وضعت من غير إشارة ، ومن غير مماثلة لأي لغة موجودة بالفعل ، وذلك مثل لغة Ro أو لغة Suma . ومصطلح اللغة التابعة Posteriori Language يطلق على تلك التي كونت عن طريق مزج وحدات من لغات مختلفة حية بالفعل ، وذلك مثل الإسبرانتو والإنترلنجوا . أما المصطلح يصوت phonetize فيعني المحاولة لجعـل الطريقة الكتابية للغة ما صوتية (مثل : تهذيب الهجاء الإنجليزي English Spelling Reform) . وهو لهذا لا يقف على قدم المساواة مـع المصطلحات

---

(١) لا تخلط بين هذا المصطلح وسميه الذي استعمل مؤخراً في سياق مغاير .

السابقة التي تمس تشكيل اللغات ، إذ هو لا يعدو محاولة التغيير للصيغة المكتوبة فقط .

وهناك مصطلح آخر هو التعرف اللغوي language identification وهو يتعلق بالصيغـــة المكتوبة أو المنطوقة للغـــة ، أو بهما كليهما ، وهو جزء من علم اللغة الجغرافي مكمل لعلم الأنماط التركيبي ، وللتصنيف اللغوي على أساس القرابة التاريخية . والهدف هنا في معظمه هدف عملي ، وهـــو القدرة على أن تدل — من أصوات لغة منطوقة أومظهر لغة مكتوبة ، على نوع اللغة التي تواجهها . ومن نواح كثيرة يعد هذا العلم المسمى بالتعرف اللغوي مشابها لدرجة كبيرة لقولك « من أين أنت ؟ » ، إنه أسلوب فني للعمل ، عن طريقه يمكن تحديد المنطقة اللغوية الصغيرة التي ينتمي إليها المتكلم ، والتي قد تصل إلى نصف قطر قدره عشرة أميال من مسقط رأسه ، وذلك عن طريق خصائصه الكلامية المتميزة . والقدرة على تمييز اللغات التي يواجهها الإنسان — عن طريق صيغها المتكلمة أو المكتوبة — قد تكون على قدر كبير من الأهمية ، حتى إذا لم يكن الشخص متكلما أو فاهماً لتلك اللغات [1] .

أما المصطلحات التي يشترك فيها علم اللغة الجغرافي مع التاريخي أو الوصفي فمنها language in contact الذي يشـــير إلى وجود لغتين أو أكثر مستعملتين في مناطق متلاصقة ، وتؤثر كل منهما على الأخرى بطريقة مستمرة في تطورها على الرغم من احتمال كونهما غير مرتبطتين أصلا من ناحية القرابة اللغوية ، أو أنماط البناء والتركيب . وعلى سبيل المثال فإن الرومانية والبلغارية والألبانية كلها تنتمي إلى الفرع البلقاني ، ولكنها تنتمي إلى ثلاث مجموعات مختلفة من الفصيلة الهندية الأوربية . ويبدو أنها جميعاً قد طورت بشكل موحد خاصية

---

(١) المؤلف مقالة في مجلة البوليس الأمريكي (سبتمبر — اكتوبر ١٩٥٩) بعنوان « ماذا قال ؟ » وهي تعالج موضوع إمكانية التعرف على المجرم ، وتحديد منطقته عن طريق دراسة ملامحه الكلامية .

تأخير أداة التعريف . أما مصطلح المنطقة المركزية focal area ، أو مصطلح مركز الهيبة اللغوية linguistic prestige centre فيشير إلى المنطقة اللغوية ذات المركز المتميز ، والتي يخرج منها الابتكار اللغوي وينتشر خارجاً[1] .
أما مصطلحا الانتقال transition والمناطق ذات الدرجات graded areas فيستعملان حيث توجد منطقة تخضع لنفوذ لغوي من منطقتي إشعاع لغوي مختلفتين ، أو حيث تلتقي خصائص محافظة وتحررية في منطقة واحدة .
أما المصطلح ، المناطق الأثرية relic areas فيشير إلى المناطق المحافظة التي تقاوم التجديد والابتداع . أما المصطلح ، الانقسام اللهجي dialectalization فيعني الاتجاه الطردي المركزي الطبيعي للغة نحو الانقسام إلى لهجات . ويصاحبه إتجاه آخر نحو التجمع dedialectalization نتيجة لنفوذ العوامل الجاذبة المركزية ، المتمثلة في مركز الحكم ، أو سهولة وسائل الاتصال والانتقال ، أو التعليم ، أو الشعور القومي ، أو التقاليد الأدبية . أما المصطلح الانقسام الطبقي social stratification فيعني ميل الكلام المحلي إلى الانقسام إلى لغات طبقية class languages على أساس الفروق الاقتصادية أو التعليمية .[2]

أما المصطلح اللغة الدارجة vernacular أو umgangssprache فيتناول اللغة التي تتمتع بصفة التفاهم المشترك ، أو اللغة العامة التي يستعملها —

---

(١) في العصور الوسطى فرضت باريس — باعتبارها مركز الحكم — لهجتها على مناطق واسعة ، إلى أن صارت اللهجة الباريسية هي اللغة النموذجية . واليوم نجد أن نيويورك بما تملك من إرسال إذاعي أو تليفزيوني ، وهوليوود بما تحتل من مركز مرموق في صناعة السينما هما مركز الإشعاع الخارجي ومنطقتا الابتكار ، الذي يتبعه سائر أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى هذا فإن طريقة نطقهما ونحوهما ومفرداتهما يقلدها كل المشاهدين والمستمعين ، وبخاصة الشبان منهم — مهما كانت منطقتهم السكنية أو ثقافتهم . وقد حدث مثل هذا في إيطاليا حيث تغلبت لهجة روما على سائر اللهجات باعتبارها لهجة العاصمة .

(٢) مثال ذلك ما يحدث من اثنين ينتميان إلى منطقة محلية واحدة ، ولكنهما يختلفان ثقافيا فيبدو لكل منهما خصائص كلامية متميزة .

إلى درجة كبيرة أو صغيرة — كل المنتمين إلى شتى الطبقات الاجتماعية .[1]

والمصطلح التسجيل أو التمثيل الصوتي transcription الذي سبق أن صادفناه في علم اللغة الوصفي في صورتيه الصوتية والفونيمية ، له في علم اللغة الجغرافي تطبيق ثالث ، وهو تحويل صيغة كتابية من طريقة كتابة معينة إلى طريقة أخرى ، مع أو بدون تعديل، لإبراز الخصائص الصوتية أو الفونيمية. وللتمثيل الصوتي استعمالاته المفيدة مثل المساعدة على التحصيل السريع لطريقة النطق لتلك اللغات ذات النظام الكتابي المعقد مثل الصينية واليابانية . وإن التسجيل عن طريق استخدام رموز من أبجدية ما مقابل رموز من أبجدية أخرى (مثل كتابة اليونانية أو السيريلية بحروف لاتينية) يختص باسم كتابة لغة بحروف لغة أخرى transliteration [2] .

٣٨ — اللغات والمتكلمون —

البلاد واللغات

من الموضوعات التي تعد أساسية في مفهوم علم اللغة الجغرافي بيان توزيع اللغات المتكلمة في جميع أنحاء العالم ، وأنواع المتكلمين بها . ويعد أساسياً بنفس الدرجة كذلك بيان اللغات المتكلمة في كل قطر أو وحدة سياسية على حدة .

وهذا يعني في الواقع وجود دراستين إحصائيتين تقوم كل منهما بدور

---

(١) من السهل هنا أن نعرف ولكن من الصعب أن نمثل ، ويرجع ذلك إلى العامل الذي سبق ذكره والخاص بالتقسيم الطبقي تبعا للثقافة أو الطبقة الاجتماعية . وفي أي موضع ترد كلمة « الاستعمال » يبرز السؤال الهام « استعمال من ؟ » . وربما كان حلا وسطا أن نجيب : الاستعمال اللغوي الوارد في نشرات الأخبار العادية ، في الراديو والتلفزيون ، بالإضافة إلى بعض الكلمات العامية الواردة في الإعلانات والمعاملات التجارية .

(٢) كما نكتب كلمة خروشوف ممثلة بالحروف اللاتينية Khrushchev بدلا من تمثيلها بالحروف السيريلية الروسية هكذا ×pymeB .

المراجعة والضبط للأخرى . إحداهما للغات وتوزيعها على المناطق والوحدات السياسية وأعداد المتكلمين بها ، والأخرى للدول لبيان اللغات المستعملة في كل منطقة قومية على حدة . وعدد المتكلمين بكل لغة . (١)

وإن عامل ثنائية اللغة أو ثلاثيتها ليعقد الصورة بالإضافة إلى أنه عامل ليس له صفة الثبوت والاستقرار نتيجة لعدم ثبوت الملامح السكانية ، مما يستدعي عمل تعديلات إحصائية مستمرة . والطريقة التي تبدو أكثر عملية هي تكرار عد أصحاب اللغات الثنائية أو الثلاثية الحقيقيين (نعني بالحقيقيين الذين يملكون اللغتين على درجة واحدة تقريباً ويستخدمون كلاً بطلاقة تضعها في مستوى اللغة القومية) . وهذا يعني أن المواطن المقيم في الجزء الآسيوي من الاتحاد السوفيتي الذي يتكلم الأوزبكية ، والذي تعلم الروسية إلى درجة عالية جداً سوف يعد مرتين في الإحصاء اللغوي ، مرة بين متكلمي اللغة الأوزبكية . ومرة بين متكلمي اللغة الروسية . ومعنى هذا أنه ليس من الضروري أن يتطابق عددياً الإحصاء السكاني مع الإحصاء اللغوي . وإن كان في كثير من الحالات يبدو الإحصاءان متقاربين . وهناك سؤال دقيق يتعلق بكيفية عد المتكلمين بلغة ليست أهلية أو بلدية (على سبيل المثال متحدث بالإنجليزية الأمريكية درس الفرنسية لعدة سنوات في المدارس الثانوية والكليات الجامعية وأصبح يتقنها ويستعملها بدرجة عالية من الجودة . وإن لم يكن بطلاقة المتكلم بلغته الأم) .

---

(١) لتبسيط الموضوع جدا نقول إن الأسبانية تعد لغة وطنية ورسمية في أسبانيا وفي المستعمرات الأسبانية في المكسيك وبعض أجزاء من وسط وجنوبي أمريكا وغيرها ، مع مجموع سكان يزيد على ١٥٠ مليونا . وهي لدرجة ما موجودة كذلك في مناطق أخرى مثل الفليبين وجنوب غربي الولايات المتحدة ومنطقة مدينة نيويورك . أما أسبانيا نفسها فمجموع سكانها فوق الـ ٣٠ مليونا يتكلمون جميعا الأسبانية . ومع ذلك نجد اللغة القومية لأكثر من ٦ مليون نوعا من الـ Catalan — Valencian ، ونجد حوالي ٣ مليون يتكلمون نوعا من الـ Galician — Portuguese ، وحوالي مليون يتكلمون الـ Basque . ويوجد أكثر من نصف مليون يمكن أن يوصلوا بالفرنسية وحوالي ١٥٠ ألفا بالإنجليزية .

وهنا يبدو أن وضع مستوى حاسم للتصنيف يعد أمراً تحكمياً ، ولا بد من اللجوء إلى مستوى تخميني تقريبي . وسوف يأتي مزيد من المناقشة لهذه النقطة فيما بعد (انظر المبحث رقم ٤٤ التقارير التعليمية) .

وفي أي محاولة لعد المتكلمين بلغة معينة فإن عالم اللغة الجغرافي يتخطى الحدود الدولية ، وحتى المحيطات . وهو أيضاً يتخطى حدود اللهجات ، فيما عدا تلك اللهجات التي لها طبيعة خاصة تجعلها تشكل في الواقع لغات منفصلة مع إمكانية التفاهم البسيط أو عدم إمكانية التفاهم تماماً بين المتكلمين بكل لهجة مع الآخرين . (ومن أمثلة ذلك لهجات اللغة الصينية التي كثيراً مايفشل المتكلمون بعضها أن يجدوا صيغة مشتركة للتفاهم على الرغم من أنهم جميعاً تجمعهم طريقة واحدة للكتابة) . ولغة مثل الأسبانية — على الرغم مما بين لهجاتها من فروق محسوسة — يمكن أن تستعمل كلغة مشتركة للتفاهم في كل الأقطار التي تستخدمها كلغة رسمية . ومن أجل هذا يحق لنا حين نتحدث عن مجموعة المتكلمين باللغة الأسبانية أن نضع جنباً إلى جنب مواطني أسبانيا (بغض النظر عن المناطق التي تتكلم إلى جانب الأسبانية لهجات محلية كما سبق أن أشرنا) ، والمكسيك ، وأمريكا الوسطى ، وبعض القوميات في كوبا ، وبورتوريكو ، وجمهورية الدومينيكان ، ومعظم مواطني أمريكا الجنوبية خارج البرازيل ، وجايانا — على الرغم من وجود لغات أمريكية هندية كثيرة في بعض المناطق إلى جانبها ، وربما وجودها منفردة في المناطق التي يعيش فيها ملايين لايتكلمون سوى الهندية الأمريكية .

وطبقاً لهذا المنهج نضع قائمة باللغات — شاملة بقدر الإمكان — مع السعي لجعلها متضمنة لكل لغات العالم الرئيسية ، وغير الرئيسية على الكرة الأرضية . وكل لغة تقرن بتقرير يصف المناطق الجغرافية التي تتكلم فيها اللغة ، وتعداد السكان ، مع بيان نوع اللغة بالنسبة لهم ، أهي لغتهم الأم ، أم لغة استعمارية أم نصف استعمارية (مثل أبناء غانا أو نيجيريا أو الهند أو باكستان الذين

يتكلمون اللغة الإنجليزية بطلاقة) أم لغة ثقـــافة (مثل الفرنسي أو الألماني أو السويدي .. الذي اكتسب الإنجليزية في حياته الدراسية ، أو في رحلاته وأصبح متمكناً منها ، وإن لم يكن من الضروري أن يكون مستواه معادلا لمستوى المتكلم بلغته الأم) .

وبينما يعد من الأمور السهلة نسبياً أن نصف المناطق التي تظهر فيها لغة ما أو نذكر عدد المواطنين الذين يتكلمون اللغة بوصفها لغتهم الأصلية ، تأتي الصعوبات والمشكلات حيث نريد أن نحصي عدد السكـــان الذين تعتبر اللغة بالنسبة لهم لغة استعمارية أو ثقافية. وهنا يتطلب الإحصاء جهوداً مضنية وعملا متواصلا . ولا تنتهي متاعب اللغوي بفحص مادته في هذا السبيل ، والوصول إلى نتائج معينة ، فإن نتائجه تحتاج إلى تعديل متواصل ، ولهذا يقترح دائماً إعادة النظر في مثل هذه النتائج مرة كل عشر سنوات ، مع كل إعـــادة لتعداد السكان .

أما الطريقة الأخرى للبحث ، والتي تعد نوعا من المراجعة والضبط للطريقة التي تحدثنا عنها آنفا ، فهي طريقة تتناول قطرا إثر قطر . والمشكلة هنا هي محاولة معرفة اللغات التي تتكلم في كل قطر ، ومراكز المتكلمين بها ، وعدد المواطنين الذين يتكلمونها ، والصورة التي يتكلمونها عليها ، والظروف المحيطة بها . ولنأخذ على سبيل المثال قطرا مثل أسبانيا ، فأول ما نبدأ به هو الإحصاء الشامل لعدد سكانها وبعد ذلك نحصي عدد المتكلمين بكل لغة على حدة مثل الأسبانية ، والـ Catalan ، والـ Basque ، والـ Galician ، والتي سيزيد عدد المتكلمين بها جميعا — نتيجة لعامل الثنائية اللغوية — عن عدد السكان .

وأخيرا يتناول الإحصاء تعداد السكان الأسبان الذين اكتسبوا مستوى معقولاً من لغات أخرى مثل الفرنسية والإنجليزية والألمانية .

وإن الجمع بين الطريقتين سوف يؤدي إلى نتائج ومعلومات علمية مؤكدة بقدر الإمكان ، ولكنها عرضة للتغيير نتيجة لتغيير الملامح السكانية . ويمـــكن

الاستعانة في عمل هذه التغييرات بجهات كثيرة كالدوائر الحكومية والعلمية والدينية التي يمكن أن تمد الباحث بملخصات مركزة مفيدة .

إن هذا النوع من الخلاصات الإحصائية ربما أعطى صورة دقيقة لعدد المتكلمين وللتوزيع اللغوي . أما الحقائق المتعلقة بالتطورات الصناعية والاقتصادية لكل قطر فهي موضوعات أكثر ارتباطا بالمجالات غير اللغوية . ولكنها مع ذلك تستطيع إذا اقترنت بالحقائق اللغوية أن تعطي صورة للأهمية الجغرافية لكل لغة . وهذه المعلومات المقترنة قد تبقى موضوعية وأقرب إلى الحقائق على الرغم من أن أهمية كل عامل من العوامل الثلاثة (السكان المتكلمون — توزيع السكان — العوامل السياسية والاقتصادية) ربما كانت في بعض الأحيان فرضية أو تحكمية . وربما كان أكثر العوامل ذاتية هو عامل الثقافة ، وإن كان من الممكن باتباع مقاييس موضوعية للتقنين الوصول إلى حقائق موضوعية . ومن ضمن النقاط الهامة في العامل الثقافي موضوع القراءة والكتابة بالنسبة للمتكلمين بلغة ما ، وهي نقطة يمكن أن تكون موضوعية تماما . وأما موضوع النتاج العلمي والفلسفي والأدبي ، فهناك على الأقل احتمال الوصول إلى بعض الأنواع من المقاييس الموضوعية المتمثلة في عدد الكتب والدوريات التي طبعت في كل حقل .

٣٩ — اللغات المساعدة والبديلة

من أهم وظائف علم اللغة الجغرافي معرفة اللغات التي يمكن أن تستعمل في مناطق مختلفة من العالم كلغات بديلة عن اللغات الأهلية ، وكذلك التأكد من وجود نسبة معينة من السكان في كل منطقة تفعل ذلك . وحيث إن هذه اللغات تتفاوت في حجم مناطق النفوذ ، وتختلف في كيفية الاستعمال باختلاف الأقطار فإننا نحتاج إلى الإحصاءات الدقيقة في مثل هذه البحوث .

وعلى سبيل المثال فإن مما يدخل في اهتمام علم اللغة الجغرافي صلاحية استعمال اللغة الإنجليزية كلغة بديلة ومساعدة في كل المناطق التي خضعت في وقت ما للنفوذ الإنجليزي أو الأمريكي ، واللغة الفرنسية في المناطق الواسعة التي تغطي غربي وشمالي إفريقية وجنوب شرق آسيا . وكذلك الحال بالنسبة للغة الهولندية في إندونيسيا . ولكن أبعد من هذا قد توجد انعكاسات لغوية لاستعمار قديم نسبيا ربما يرجع إلى الوراء حتى وقت الحرب الأمريكية الأسبانية أو الحرب العالمية الأولى . فالأسبانية ما تزال منتشرة إلى درجة كبيرة في الفلبين ، والألمانية ما تزال تسمع أحيانا في تانجانيقا وفي جنوب غربي إفريقية وفي مناطق مختلفة من المحيط الهادي .

وهذا راجع إلى أن الوضع السياسي يتغير أسرع بكثير من الوضع اللغوي . وعلى الرغم من الجهود الرسمية التي تتخذ في ذلك فإن التغيير اللغوي يستغرق وقتاً طويلا إلى أن تتغير العادات الكلامية للسكان ، أو حتى للنخبة المثقفة منهم فقط . إن الأفراد الذين ينشئون على تقاليد ثقافية معينة ، مثل الهنود الذين يتعلمون في بريطانيا ، والإفريقيين الذين يتربون في فرنسا أو بلجيكا يجدون صعوبة في تغيير اتجاهاتهم الفكرية المرتبطة بثقافة الشعب السابق الإشارة إليه . وأكثر من هذا فإنه في حالات كثيرة يبذل جهد قليل ، أو لا يبذل أي جهد على الإطلاق لتغيير التقاليد والروابط الثقافية . ويبدو عادياً أن تدرس الإنجليزية في غانا ونيجيريا والهند وباكستان بصورة أوسع مما كان عليه الأمر أثناء الاحتلال الإنجليزي . ومثل هذا يقال عن اللغة الفرنسية في بلاد الاتحاد الفرنسي الجديد التي تدرس الفرنسية أكثر من قبل . ومثال واحد استثنائي هو إندونسيا حيث تبذل الحكومة جهوداً جبارة للتخلص من التقاليد الثقافية الهولندية . وهناك شواهد أخرى على أن الأقطار الشيوعية — التي كانت تخضع للنفوذ الثقافي واللغوي الألماني — تبذل الآن بعض محاولات للحد من هذا النفوذ .

والظاهرة الغريبة المتعلقة بالنفوذ طويل المدى للغات الاستعمارية تبدو بين

المتكلمين باللغة الأسبانية في الفلبين (يعد النفوذ الإنجليزي في هذه الجزر شيئاً حديثاً جداً) كما أنها تبدو في ظهور بعض الكلمات الألمانية في إنجليزية المناطق التي كانت خاضعة فيما مضى للاستعمار الألماني . وتبدو — على المدى الطويل — إمكانية إزالة هذا النفوذ في النهاية ، كما أن هناك احتمالا آخر قد يتم حدوثه في أي وقت من الزمن ، وهو خاص باستعادة اللغات الهندية والأردية مكانها في الهند وباكستان والفلبين على حساب اللغة الإنجليزية التي كانت متمكنة في هذه البلاد . ولكن لا تبدو مثل هذه النهاية قريبة الوقوع بالنسبة للغات ذات الماضي الاستعماري التي تتميز بعنصر الهيبة ، وعامل القيمة العملية ، سواء في وطن الشخص أو خارجه ، مما يجعل دراسة مثل هذه اللغة أمراً أساسياً بالنسبة لأولئك الذين يطمحون أن يكونوا متعلمين أو مثقفين .

إن المرتبة المساعدة التي تحتلها لغات عالمية كثيرة في أقطار متعددة يجب أن تدرس بعناية ، وبطريقة فردية بالنسبة لكل منطقة، لأن هذه المرتبة لا تتم بصورة واحدة في جميع المناطق . كذلك من الضروري وضع تنبؤات بعيدة المدى بالنسبة للمستقبل مؤسسة على الاتجاهات الملحوظة ، ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن مثل هذه الاستنباطات أو التنبؤات عرضة للتعديل الكبير على أساس التغييرات السياسية المفاجئة غير المرئية .

٤٠ — أنظمة الكتابة والتعرف اللغوي

إن الأهمية النسبية للجانب المتكلم أو المكتوب لأي لغة تختلف من لغة إلى لغة ومن مكان إلى مكان . وإذا بدأنا من الجانب المنخفض من الميزان مع لغات لأناس متخلفين أو بدائيين لم يتخذوا لأنفسهم بعدُ نظاماً كتابياً فسنجد أنفسنا متجهين صعداً على طول الطريق حتى نصل إلى اللغات الكبرى للحضارة الغربية التي تتمتع صيغها المكتوبة بقيمة مساوية لما تتمتع به صيغها المتكلمة . وبين الطرفين المتقابلين نجد بلاداً تعاني نسبة عالية من الأمية ، وفي مثل هذه البلاد

تتضاءل نسبياً أهمية الصيغة المكتوبة . إن الزائر المتجول لبعض القرى الصينية النائية لا يجد سبيلاً إلى استعمال اللغة المكتوبة ، لأن السكان لايعرفون طريقة الكتابة والقراءة ، حتى يعرفوا هذا النظام المعقد للرموز الكتابية الصينية . وفي مثل هذه الظروف يكون العلم بعدد قليل من الكلمات والتعبيرات المستعملة في اللغة المتكلمة أهم وأكثر فائدة بكثير من دراسة متخصصة للغة المكتوبة .

وتحت أي ظروف فإنه من الضروري لعالم اللغة الجغرافي أن يلم بنظـام الكتابة المعروفة في مختلف أنحاء العالم خاصة بهدف القيام بعملية التعرف اللغوي. والبلاد الغربية — بوجه عام — تستخدم الأبجدية الرومانية ، ولكن مع استثناءات ظاهرة قليلة . كذلك فإن الشكل الروماني المستعمل يتنوع — بدرجة ملحوظة — من لغة إلى لغة ، مع زيادة رموز إضافية ، وأشكال كتابية خاصة تختلف من لغة إلى لغة ، وكثيراً ما تكون وحدها كافية للتعرف على اللغة حين ينظر إلى صيغتها المكتوبة (مثلا رمز l الذي يكتب في البولندية مع خط صغير متقاطع ł ، وال t التي تكتب في الرومانية برمز تحتها ţ وال i التي تكتب في التركية بدون نقطة ، وال n التي تكتب في الأسبانية هكذا : ñ). وهناك إلى جانب ذلك تجمعات لحروف معينة تختص بلغة دون لغة مثل التجمع szcz في البولندية ، والتجمع ij في الهولندية ، والسلسلة الكاملة لأصوات العلة المضعفة في الفنلندية) .وإن الدراسة للصيغ الكتابية في اللغات المختلفة التي تستعمل — أساساً — الأبجدية الرومانية لتؤدي إلى نتائج باهرة . وما دامت هذه الأبجدية مستعملة في أقطار يشكل سكانها نصف سكان الكرة الأرضية على الأقل ، فإن هذه الدراسة ستؤدي إلى خطوة هامة في الوصول إلى التعرف اللغوي .

وتأتي بعد ذلك الخطوط الكتابية التي تشبه الأبجدية الرومانية مثل الأيرلندية واليونانية والسيريلية . وهنا يصبح الموضوع أكثر تعقداً لمن أراد أن يكون لنفسه القدرة على قراءة هذا النوع من اللغات ، وإن كان المجهود المطلوب بذلك للتعرف على هذه الخطوط ليس مجهوداً خارقاً أو معجزاً .

وأخيراً تأتي اللغات التي تستعمل نظماً أخرى كتابية صوتية أو مقطعيــة تختلف تماماً عن النظم الأوربية . ولا يبعد أن يجد الباحث سمات مشتركة بين هذا النوع من اللغات . وإن الأبجدية المستعملة في الأرمينية والجورجية أو العربية والعبرية مثلا ، ومجموعة النظم الكتابية الساذجة التي تجمع بين النظامين المقطعي والصوتي ، والتي تميز الخطوط الأمهرية ومعظم اللغات الهندية المؤسسة على ال Devanagari المشتق من السنسكريتية القديمة . أما الخط ال kanas الياباني فمعقد وصعب التعلم من الناحية العملية ، ولكن ليس صعباً جداً أن يتعلم لمجرد التعرف اللغوي . وأخيراً يأتي أعقد نظام هجائي وهو ذلك الذي يستخدم الطريقة التي تعبر عن الفكرة بصورة أو رمز مثل اللغات الصينية واليابانية . فالربط في مثل هذه اللغات ليس بين الرمز والصوت ، ولكن بين الرمز والصورة الذهنية . واكتساب مثل هذه الأشكال للاستعمال الفعلي يعد في الواقع أمراً بعيد المنال ، وربما مهمة يفنى العمر في تحصيلها ، ولكن التعرف عليها ليس صعباً كــل الصعوبة ، أو معقداً غاية التعقد .

وإنه لجزء من وظيفة عالم اللغة الجغرافي أن يعــود نفسه على إلف النظـم الكتابية الرئيسية في العالم بقصد التعرف . وإذا استطاع أن يضيف إلى هذه المهارة القدرة على القراءة والترجمة فقد حقق هدفاً أبعد . وعلى أي حال فمهــارة التعرف والتمييز للغات العالم الرئيسية في صيغها المكتوبة شيء لايستطيع عــالم اللغة الجغرافي أن يستغني عنه ، ولا بد لمن يريد التخصص في أي فرع من فروع علم اللغة أن يدرس برنامجاً في نظم الكتابة ، وبوجه خاص لمن يريد التخصص في علم اللغة الجغرافي .

ولدرجة محدودة ، واعتماداً على القدرات الصوتية لأذن بعض الأفراد ، توجد كذلك فرصة ممكنة للتدرب على تمييز اللغات الرئيسية في صيغها المنطوقة ما دامت كل لغة لها نظمها الصوتية والفونيمية المتميزة . وإن معلومات أولية في كيفية التعرف على النماذج الصوتية لعدد من اللغات الرئيسية يجب أن يشكل

جزءاً من أسلحة العالم اللغوي ، وبخاصة عالم اللغة الجغرافي ، مع اهتمام خاص باللغات المتعلقة بمنطقة معينة طبقاً للاهتمامات الخاصة لكل لغوي ولغرضه المحدد . (١)

إن التطبيقات العملية لمهارة التعرف اللغوي لكثيرة . فإلى جانب قيمتها الواضحة في أوقات الحروب الساخنة أو الباردة (الرقابة – المخابرات العسكرية – الجنود في ميدان القتال الذين لابد أن يتعاونوا مع أو يحاربوا قوات تتكلم لغات أخرى) ، فهناك فوائد أخرى تتمثل في تقديم الترجمان المناسب لشخص أو المترجم الكفء لوثيقة ، مما يستدعي معرفة سابقة باللغة التي يتحدث بها الشخص . أو اللغة التي كتبت بها الوثيقة . كما تتمثل في مد يد العون لأمناء المكتبات حين يواجهون بمطبوعات بلغات متعددة . وهناك إلى جانب ذلك ميزة معرفة جنسية أو ثقافة الشخص الذي تبدأ في عقد صلات اجتماعية أو تجارية معه . وميزة تجنيبك استخدام عبارات غير لائقة ربما وقعت فيها . والتعرف اللغوي في صيغته المكتوبة أو المنطوقة كثيراً ما يقدم خدمات قيمة في مجال اكتشاف الجريمة أو منعها .. (انظر هوامش المبحث رقم ٣٧) .

---

(١) أتم دراسة للنظم المتعلقة بالتعرف اللغوي على أساس لغوي جغرافي – وهي التي تقابل الدراسة الوصفية للغات المنفردة–تظهر في كتابين للمؤلف نفسه، بعنوان : World's Chief Languages (الطبعة الخامسة – لندن سنة ١٩٦١) و Language for Everybody – (نيويورك ١٩٥٦ و ١٩٥٨) .

٤١ – عوامل مساعدة

الثقافة – المنحنى الثقافي – الدين – التأثير التاريخي

في حين ترتبط هذه الموضوعات – إلى حد ما – بمجالات علم اللغة الوصفي والتاريخي ، فهي أيضاً موضوعات وثيقة الصلة بعلم اللغة الجغرافي ، ما دامت تنعكس على المركز الحالي للغات العالم .

إن الصلة بين اللغة وثقافة الجماعة (التي تعد اللغة جزءاً منها) لتعد من الموضوعات الهامة لعالم الأنثروبولوجيا . وكلمة ثقافة culture ذاتها كلمة مضللة ، لأن لها معنيين محتملين . فهي عند عالم الأجناس البشرية تعني الحصيلة الكلية للتقاليد والعادات ، والأعراف ، وطرق الحياة لأي طائفة اجتماعية سواء كانت متقدمة لدرجة عالية أو متأخرة . ومعنى هذا أن كل الجماعات – عند عالم الأجناس البشرية – مهما صغرت أو كانت بدائية لها ثقافة ، وكل الثقافات على درجة واحدة من المساواة . أما كلمة ثقافة في مدلولها التقليدي فترتبط بالممارسة المتقدمة للحضارة التي عادة ما تعبر عن نفسها عن طريق اللغة المكتوبة وتشمل أشياء مثل الأدب والشعر والفلسفة والعلم والحصيلة الفكرية والمستويات المرتفعة للحياة والاتصال وحفظ الصحة . وهذا التباين الدلالي بين المعنيين قد أدى إلى سوء فهم متكرر ، وربما كان علاج هذه الحالة في وضع كلمة أخرى لأحد هذين المعنيين .

إن ثقافة أي أمة أو جماعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط لغتها ما دامت الأخيرة تعكس عادة نشاطات هذه الطائفة . وإن مدرسة العالم الأمريكي Whorf فيما وراء علم اللغة metalinguistics لتذهب أبعد من هذا وتزعم أن نمط

اللغة المتكلمة يفرض تأثيره المباشر على هذه النشاطات ، وإن كان هذا الزعم مايزال محل خلاف كبير . (١)

ومهما يكن من شيء فلا شك أن اللغة تشكل جزءا من الوعي الثقافي للجماعة ، وهي تعد واحدة من أقدم المظاهر لهذا الوعي . وإن التمييز بين جماعة وأخرى ليؤسس غالبا — على الأقل من الناحية الظاهرية — على اللغة .

إذا كنت تتكلم لغتي فأنت تنتسب إلى مجموعتي ، أما إذا اختلفت لغتك عن لغتي فأنت تنتمي إلى جماعة أخرى غير جماعتي ، ونحن نتصرف على هذا الأساس . ومن ثم فاللغة في الغالب مفتاح لسلوك الجماعة ، وتسمح بالتنبؤ بمشكلة رد فعل الجماعة تجاه المواقف المتنوعة . وإن عالم اللغة الجغرافي ليتعلم منذ البداية أن تجاهل العامل اللغوي في أي صورة من صور العلاقات الثقافية المتبادلة يعد خطأ كبيراً ، وأن هناك شيئا واحدا لابد أن يأخذه في اعتباره فوق كل الأشياء — إلى جانب المعتقدات الدينية — وهو لغة الجماعة التي يدرسها .

وحينما ننتقل من الحضارات المتخلفة إلى الحضارات المتقدمة يصبح العامل اللغوي في الثقافة أكثر أهمية ، ما دامت اللغة — وبخاصة في صورتها المكتوبة — تقوم بدور الأداة أو الواسطة للثقافة ، بمعنييها الأنثروبولوجي والتقليدي .

وعند هذه النقطة لابد أن يؤخذ في الاعتبار ، ليس فقط اللغة أو الثقافة الأولى للجماعة التي ندرسها ، ولكن أيضا العوامل اللغوية الثقافية من الدرجة الثانية أو الثالثة . وإن من الأمم ما يتمتع بحضارة عالية ، وينعم بثقافة خصبة خاصة به ، ومع ذلك يتعرض للوقوع تحت تأثير تيار ثقافي أجنبي . ومن ذلك ما عرف عن كثير من الأمم الأوروبية خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، من أنها كانت واقعة تحت تأثير التيار الثقافي الفرنسي . وقد

(١) انظر ؛ Whorf في كتابه Language, Thought and Reality المطبوع في لندن عام ١٩٥٦ بتحقيق : J.B. Carroll

انعكس هذا بسرعة في تغيير كثير من تقاليدها ومظاهرها حتى تتفق مع الثقافة التي أعجبوا بها . ومن الناحية اللغوية فإن هذا التيار الثقافي يبدو أثره في استعمال اللغة ذات الثقافة الرفيعة ، وفي دراستها، وهذا بدوره يؤدي إلى خلق ما يمكن أن يسمى باللغة الثانية للأمة موضوع الدراسة . وإنه ليقال إن اللغة الفرنسية يتكلمها — على سبيل المثال — ليس أقل من مليون إيطالي ، أو بعبارة أخرى شخص بين كل خمسة وعشرين . وهذا المركز يختلف في أسبابه — ولكن ليس في تأثيراته — عن الآخر الناشيء في قطر كان مستعمرا مثل الهند حيث تتحدث نسبة كبيرة من السكان اللغة الإنجليزية . وبالمعنى الذي شرح فيما سبق أصبحت اللغة الإنجليزية مؤخرا لغة ثقافية ناشرة نفوذها ليس فقط في الأقطار المستعمرة في الأصل ، ولكن أيضا في أقطار لم يربطها رابط استعماري بها قط مثل تركيا والاتحاد السوفيتي ، حيث لم يكن بهما مطلقا أي نوع من الاستعمار الإنجليزي أو الأمريكي .

إن العامل الديني لا بد أيضا أن يؤخذ في الاعتبار في أبحاث علم اللغة الجغرافي ، فالنفوذ اللغوي البادي في اللغات الدينية مثل اللاتينية في البلاد الكاثوليكية الرومانية ، والعربية في البلاد الإسلامية التي تتحدث اللغة العربية — لايمكن أن يتجاهله عالم اللغة الجغرافي . وهذا النفوذ اللغوي الديني يعني عادة أن اللغة التي يرتبط المتكلمون بها بعقيدة معينة سوف تأخذ كلمات وترجمات مقترضة من اللغة المقدسة ، وأن بعضا من أبناء اللغة — قل أو كثر — وإن كان في العادة يضم كل رجال الدين — سوف يستعملون — بصورة أو أو أخرى — اللغة المقدسة كلغة ككلمة . وربما كانت إيطاليا من أجل ذلك توصف بأنها دولة لغتها الثانية الفرنسية ، ولغتها الثالثة اللاتينية .

وقد لا يستحق التنبيه منا أن ننص على أن التاريخ الماضي يحمل نفوذا هائلا على الحالة اللغوية للدول الحديثة .وحتى الآن نجد أن هذا العامل كثيرا ما أهمل، أو بولغ في قيمته . وهناك أسباب تاريخية عميقة تكشف عن السبب في اختيار دولة اسرائيل الجديدة اللغة العبرية بدلا من اليدية كلغة قومية ورسمية ، وعن

السبب في أن الأيرلنديين يشعرون بأهمية اتخاذ الغيلية Gaelic كلغة وطنية ، في حين أن الاسكتلنديين لا يحملون نفس الشعور . وإن المعرفة بتاريخ الأمة الماضي سوف يعطي — غالبا — فهماً ثاقباً للحقائق والاتجاهات اللغوية في الحاضر والمستقبل .

وربما كان من المرغوب فيه أن نؤكد مرة ثانية أن علوم اللغة الـــوصفية والتاريخية والجغرافية ، ولو أنها متصلة ومترابطة ، فإن لكل منهما نظرته الخاصة إلى اللغات .

فبالنسبة لعالم اللغة الوصفي كل اللغات على قدم المساواة لأنها — من وجهة نظر علم اللغة الوصفي — من الناحية الفعلية متساوية ، وتتقاسم نفس الخصائص الأساسية (تركيبات صوتية وفونيمية — نظام نحوي — مفردات لغوية مستعملة).

أما بالنسبة لعالم اللغة التاريخي فاللغات تتفاوت في أهميتها تبعاً لمدى انتشارها وسهولة معرفة تاريخها الماضي .

وإن لغة مثل اليونانية القديمة بما تملكه من نصوص مسجلة مبكرة ، وبما تتمتع به من وضوح تطورها التاريخي المبني على الوثائق — لا يمكن أن توضع على قدم المساواة مع لغة مثل الـ Menomini التي لا تملك أي تاريخ مسجل .

إن اليونانية بالنسبة لعالم اللغة التاريخي على الرغم من ضآلة حجم المتكلمين بها اليوم ، واختفاء نفوذها الحديث ، لتعد أهم بكثير من اللغة الإندونيســية وحتى الروسية . وعالم اللغة الجغرافي لابد أن ينظر إلى اللغات من زاوية أهميتها النسبية في عالمي اليوم والمستقبل القريب .

وإنه لمن اللغو أن نتوقع من اللغوي الجغرافي أن يعامل لغات مثل Hopi و Zuñi على قدم المساواة مع لغة مثل الفرنسية والأسبانية ، تتمتع بجمهور كبير ، وبرقعة أرضية واسعة وبمكانة سياسية واقتصادية مرموقة .

وليس هذا نوعاً من التقييم للغات ، أو حكماً ذاتياً بعيدا عن الموضوعية

اللغوية ، أو محاولة لتفضيل بعض اللغات على بعض ، وإنما هو بكل بساطة النظر إلى اللغات من زوايا مختلفة ، ومن أبعاد متفاوتة ، وأيضا لأغراض مختلفة . وحين تتضح هذه الفكرة في الأذهان سوف يتلاشى كثير من الخلافات والمنازعات التي تثور اليوم بين اللغويين ذوي الاتجاهات المختلفة .

٤٢ — اللهجات والتنوعات المحلية —

اللغات الطبقية

تعد الاختلافات اللهجية شيئا طبيعيا بالنسبة لكل الجماعات اللغوية ، ربما فيما عدا الجماعات المتناهية في الصغر . وحتى في هذه الحالة من الممكن التعرف على بعض الخلافات الأسلوبية [١] idiolectic بين المتكلمين . وهذا راجع إلى الميل الطبيعي للغة نحو البعد عن المركز ، إلا إذا اتخذت خطوات إيجابية مضادة . واللغة لو تركت وشأنها سوف تتقسم سواء عبر الزمان أو المكان . والتغير الذي يحدث عبر الزمان يرتبط أساسا بمباحث علم اللغة التاريخي.

أما ذلك الذي يحدث عبر المكان فيهتم به علماء اللغة بأنواعهم الثلاثة . وإن عالم اللغة الوصفي يجب أن يخضع لتحليله الخلافات اللهجية ، لتكون صورته التي يقدمها عن اللغة صورة كاملة . أما عالم اللغة التاريخي فيجب أن يأخذ في اعتباره الخلافات اللهجية كما تتضح في الماضي ، وكما تؤثر في تطور اللغة موضوع دراسته . أما عالم اللغة الجغرافي فيجب أن ينظر إلى هذه الخلافات في ضوء لغة اليوم ، ومدى تأثيرها على صورة الكرة الأرضية . وإذا ما تطورت الخلافات المحلية في الكلام حتى وصلت إلى نقطة أصبح معها التفاهم المشترك

---

(١) كلمة idiolect تعني العادات الكلامية المتكلم الفرد . ومثال ذلك اللغة الإنجليزية كما أتكلمها أنا . وهذا المصطلح مرادف تقريبا لمصطلح دى سوسير « كلام » parole (انظر المبحث رقم ٢٤) .

أمراً صعباً أو مستحيلا أصبح مركز اللغة باعتبارها أداة اتصال في خطر أو عجز كبير . وإلى جانب هذا فإن دراسة اللهجات المعنية تصبح أمراً أساسيا إذا أراد الشخص أن يعرف أيها أكثر نفوذا في الاتصال داخل المنطقة موضوع دراسته .

وإن الخط الفاصل بين اللغة واللهجة يصعب في غالب الأحيان تتبعه ورسمه. التفاهم المشترك يعرض فقط جزءا من الإجابة ، إذ أنه من المشاهد أن الاتصال بين أبناء مجموعتين يتكلمون لغتين مشتركتين رسميتين ذواتي أصل واحد (مثل الإيطالية والأسبانية) قد يكون أسهل منه بين أبناء لهجتين تنتسبان إلى لغة رسمية واحدة (مثل الـ Piedmontese والصقلية ، ومثل الـ Asturian وبعض الأشكال الإندونيسية) . وهذا يرجع — جزئيا — إلى عوامل التعليم والأمية ، ولكنة يرجع غالبا إلى تطور طبيعي صرف . وإن عمل عالم اللغة الجغرافي لا ينتهي بمجرد تخطيط للغات ومناطقها وعدد المتكلمين بكل ، حتى يتناول أيضا اللهجات الرئيسية لكل لغة وقيمة كل . وإن وقوف الانقسام اللهجي عقبة في طريق التفاهم اللغوي ليتفاوت أمره من لغة إلى لغة .

والعامل التعليمي يؤدي إلى انقسامات اجتماعية لغوية في داخل المنطقة الواحدة . وبوجه عام فإن هذا الانقسام يمس — بصورة أولية — هذه المستويات من اللغة التي تسمح بالتحولات الواسعة (المفردات والنحو) في حين أنه يؤثر تأثيرا صغيرا نسبيا — وإن بدا ذلك مثيرا — على الجانبين الفونولوجي والصرفي . وهذا يرجع إلى أنه في العادة ما يتقاسم كل المتكلمين باللغة — في منطقة واحدة — النماذج الصوتية والصرفية الأساسية . وحتى حين تحدث خلافات في هذا الخصوص فإنها نادرا ما تعوق التفاهم ، على الرغم من ظهورها وبروزها. وذلك مثل ما يبدو من بعض أهالي نيويورك من ذوي الطبقات الدنيا من تغيير الـ th إلى t أو d ، وغيرها من التغييرات التي يتجنبها الرجل المثقف المنتمي إلى نفس المنطقة الجغرافية . ومثل هذا ينطبق على بعض اللندنيين من ذوي اللهجات الخاصة cockney الذين ينطقون lidy بدلا من lady وغيره مما يأنف الرجل

المثقف اللندني عن استعماله .

أما اللغة الطبقية التي تعني أن كلام طبقة اجتماعية يختلف تماماً أو تقريباً عن طبقة اجتماعية أخرى في نفس المنطقة فهذا شيء نادر الحدوث ، وإن كان يحدث أحياناً وبخاصة في المناطق المختلفة . وإن سكنى أصحاب الطبقات المختلفة – عادة – في دائرة واحدة ، ومنطقة سكنية واحدة ، وحتمية التفاهم والاتصال بينهم هو العامل الأساسي في أن أبناء الطبقات الاجتماعية يمكنهم أن يتفاهموا بعضهم مع بعض بلهجاتهم الخاصة .

وأي مكان يوجد فيه مستوى رسمي نموذجي وطني ، تميل فيه عادة لغة القسم المتعلم من السكان إلى الاقتراب منه ، أو مطابقته (مرة ثانية مع بعض الاستثناءات الظاهرة) ، وهذا يعطي لغة القسم المتعلم من السكان ميزة العمومية في المنطقة ما دامت لغة الطبقة الدنيا تستسلم بصورة سهلة للاتجاهات اللهجية المحلية .

وإن عالم اللغة الجغرافي لابد أن يأخذ في اعتباره المستويين الاجتماعي والثقافي للكلام ، وبخاصة حينما يصبحان مهمين من وجهة نظر الاتصال والتفاهم . وفي نفس الوقت ، وفي حالة اللغات ذوات المجموعات المتكلمة الكبيرة ، والتي تملك مستوى عالياً من الحضارة ، وقدراً رفيعاً من الثقافة ، قد يبدو مفيداً للباحث أن يوجه اهتمامه ، ويشحذ انتباهه ، خاصة بالنسبة للمستوى القومي الذي يتمتع بامتيازات عدة . فهو أولا يتطابق مع اللغة الرسمية والكتابية ، وهو ثانياً يتمتع باتساع منطقة نفوذه ، ولا يتحدد بمنطقة محلية ، وهو ثالثاً يحمل في طياته كثيراً من الخصائص اللهجية حتى بالنسبة للمتكلمين باللهجات المحلية أو الطبقية أكثر من معظم سائر التنوعات المحلية واللهجات الطبقية في المنطقة . وإنه لتوجد في أقطار كثيرة أماكن تتقاسم لغوياً بين الطبقية والمحلية ، مثل إيطاليا . ولكن لو أنك تكلمت هناك باللغة النموذجية القومية ، فإنك سوف تفهم بوجه عام ، وإن لم يأتك الرد دائماً بنفس الطريقة . وأكثر من هذا فإن هناك الآن اتجاهاً

حديثاً للغة نحو التوحيد والتجميع خارج المستوى المحـلي أو الطبقي ، وذلك بمساعدة الراديو والتليفزيون والأفلام الناطقة التي تنال لغتها إعجاباً وقبولا . وبخاصة بين الأجيال الناشئة .

وإن بعض اللغويين يؤمنون بأن « اللغة هي ما يتحدثه الناس وليس كما يظن بعضهم هي ماينبغي أن يتحدثه الناس » . وهذا من وجهة نظرهم يشمل اللهجات المحلية والعامية والصيغ غير النموذجية بوجه عام ، ويجعلها كلها على قـدم المساواة مع اللغة النموذجية . وأي إنسان يختلف مع وجهة النظر المتطرفة هذه يتهم بالأرستقراطية وتقييم الأشياء بناء على ذوقه الخاص .

إنه من الممكن قبول القول بأن الصيغ العامية واللهجية وغير النموذجية كلها صيغ حية ومستعملة . ومن الممكن أيضاً قبول القول بأن كثيراً من هذه الصيغ كان في الماضي داخلا ضمن اللغة النموذجية ، ومنظوراً إليه نظرة احترام وتقدير وإن التقليل من قيمة أي من هذه الصيغ ، والنظر إليها على أنها أقل من الناحية الأدبية والجمالية ليعد شيئاً فردياً ، كما أنه يعد تفضيلا ذاتياً . ومع هذا فإنـه يجب أن يظل واضحاً أن بقاء مثل هذه الصيغ اللهجية غير النموذجية من الكلام يؤدي إلى تعطيل تيار التفاهم ، الذي يعد — قبل كل شيء — الهدف الأساسي للغة . وإن الالتزام اللغوي لايختلف عن أي نوع آخر من أنواع الالتـزام الاجتماعي . فإذا كان مرغوباً أن تملك نظاماً موحداً للمرور حتى لايصـاب السائقون في مناطق غير مناطقهم بالاضطراب ، ولا يقعوا في حوادث تصادم فإن من المرغوب فيه على قدم المساواة في المناطق المتحدة سياسياً أن توجد بعض المقاييس التي تؤدي إلى الوحدة اللغوية ، وتقلل من سوء التفاهم ، ونقص وسائل الاتصال . وهؤلاء اللغويون الذين ينادون بمبدأ « دع لغتك وشأنها » ، واستعمل

أي صيغة لغوية تعجبك ـ إنما يسيئون إلى اللغة ، ويقضون على أهم أغراضها. وهؤلاء يعترفون ضمنياً بخطئهم في هذا الرأي حين يبالغون في كتاباتهم في الحرص على أن يتجنبوا المحلية والعامية والابتذال ، وحتى الأساليب الدارجة ، ويتوخوا لغة صحيحة أنيقة قد تنحرف بهم نحو التكلف والتقعر .

القسم السابع

علم اللغة الجغرافي

(منهج البحث)

٤٣ ـ التعداد السكاني
وإحصاءات القراءة والكتابة

من الموضوعات الأساسية لعالم اللغة الجغرافي بيان عدد المتكلمين بكل لغة من اللغات وتوزيعها الجغرافي ، ولحد ماوصفها . ومن هنا فإن عالم اللغة الجغرافي يمكن أن يسير خطوة إلى الأمام فيربط اللغات بالعوامل الاقتصادية والسياسية وغيرها ، ويكوّن تقديرات لمدى الأهمية الفعلية لكل لغة واستعمالاتها التي يمكن أن توضع فيها .

ومعنى هذا أن الأداة الأساسية والهامة في يد عالم اللغة الجغرافي هي الإحصاءات السكانية واللغوية . وإن الإحصاءات السكانية للدول جميعها غالباً ما تكون في متناول الأيدي وإن كان بعضها لايوثق به كثيراً . وإن الدول التي ضربت في الحضارة الحديثة بسهم وافر لفترة زمنية معقولة عادة ماتنشر تعدادات دورية دقيقة للسكان ، وتعدلها من فترة إلى فترة على حسب ما يحدث من تغيرات . وعلى أي الحالات فإن هذه الإحصاءات السكانية المعروفة لنا تسمح لنا بأن نقدر التقدم أو التأخر الرقمي للغة معينة . ونحن ــ على سبيل المثال ــ نستطيع أن نحصي الأعداد السكانية لكل الأقطار التي تتحدث اللغة الأسبانية كلغة رسمية وطنية ، وأن نقول إن هذه الأعداد تمثل ــ بوجه التقريب ــ عدد المتكلمين باللغة الأسبانية في جميع أنحاء العالم .

أما ما تعجز عن إيضاحه الإحصاءات السكانية فهو بيان الفروق اللغوية الدقيقة ، وإعطاء أحكام تمس بعض القضايا الثانوية ، مثل عامل التعدد اللغوي الذي كثيراً ما يلون صور الكلام الوطنية ، ومثل اللغات المساعدة والثانوية والثالثية في البلد ، ولغات الأقليات التي عادة ما تشير إلى ثنائية اللغة ولكن — أحيانا — تمثل عملية طرح أو إسقاط واجبة الإجراء من إحصاءات اللغة الوطنية.

وإن مثل هذه المعلومات القيمة التي يهتم بها عالم اللغة الجغرافي قد تقدم له في صورة تقديرات تقريبية مع إحصاءات السكان . وهذا يسمح لنا بأن نعرف — على سبيل المثال — أنه يوجد في بريطانيا عدد معين من المتكلمين باللغة الويلزية ، وأن نسبة معينة منهم ثنائية اللغة (يتكلمون اللغتين الإنجليزية والويلزية) ونسبة أخرى صغيرة تتحدث باللغة الويلزية فقط . وفي معظم البلاد لا تمثل هذه المعلومات أكثر من تقديرات أو تخمينات تعليمية .

ويحتاج عالم اللغة الجغرافي إلى مزيد من الدقة إذا هو أراد أن تكون في متناول يده صورة لأحوال اللغات المستعملة في العالم . وإن الوسائل المحسنة التي تستعمل الآن في عمل التعدادات السكانية ، بالإضافة إلى الدقة التي تلتزمها كثير من البلاد الآن في إحصاءاتها السكانية لتجعل عالم اللغة الجغرافي يطمع من القائمين على مسائل التعداد أن يضيفوا مباحث تتناول اللغات التي يتكلمها الأفراد ويفهمونها .

ويأتي بعد ذلك في الأهمية بالنسبة للأرقام السكانية نفسها إحصاءات الأمية والتعلم . وهنا — مرة أخرى — فإن الإحصاءات المتقدمة لنا إجمالية جداً بالإضافة إلى ماتتصف به من جزافية وتخمين . ولكن ربما يخفف من ذلك أن مثل هذه الأرقام من حسن الحظ دائمة التغير والتحول نحو الأفضل بطريقة تثير الانتباه غالباً . ومع هذا فإننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الدقة .

وإن نسبة معرفة القراءة والكتابة تعد مدخلا لكثير من الأشياء . إنها توضح كم من السكان الموجودين في دولة ما يمكن أن يوصل إليهم عن طريق اللغة

المكتوبة ، وإلى أي مدى يمكن تعليم لغة ثانية أو ثالثة لجزء كبير من السكان . وهي أيضاً مفتاح لمعرفة القوة الإنتاجية للأمة سواء من الناحية المادية أو العقلية. وفي العالم الحديث اليوم من النادر — إن لم يكن من المستحيل — أن نجد شعباً تشيع فيه الأمية يحقق درجة من الإنتاجية ، أو مستوى عالياً من الحياة .

وإن الحملات التي توجهها الدول الآن لمحو الأمية يجب أن تقترن بما يمكن أن يسمى بالتقارير المنقحة التي تنشر دورياً ، وتؤسس على إحصاءات دقيقة .

وهناك دليل هام يبين درجة التعلم القومي ، والإنتاج الثقافي يتمثل فيما تخرجه المطبعة من صحف ومجلات وكتب وغيرها من المواد المطبوعة . وإن إحصاء لمثل هذه الوسائط اللغوية المكتوبة لكل قطر على حدة ربما يسمح بإضافات ملحوظة إلى فهمنا للصورة اللغوية الجغرافية . وما دام الراديو والتلفزيـــون والأفلام الناطقة تقوم بدور هام في الاتصال بعد أن شاع استعمالها لدرجة جعلتها تطغى على الوسائل اللغوية المكتوبة ، [1] فإن المعلومات عن محطات الراديو والتلفزيون ، وعن أجهزة الراديو والتليفزيون بالنسبة لتعداد السكان ، ونسبة المترددين على الأفلام الناطقة — كل هذا يكمل الصورة لدى عالم اللغة الجغرافي.

وإذا كانت أرقام إحصائية كهذه قد تساعد — بالإضافة إلى هذا — على الكشف عن تأخر المستوى اللغوي الذي تقدم فيه هذه النشاطات الموجودة في كل منطقة ، فإن هذا — في ذاته — يعد فائدة وميزة أخرى

---

(١) إن الزائر للمدن الصينية غالبا ما يعجب لدوي أصوات الراديو في كل الأماكن العامة ، وهو ربما يعزو ذلك إلى الرغبة في إذاعة الدعاية السياسية . وعلى الرغم من أن هذا قد يكون — جزئيا — صحيحا فإن هناك عاملا آخر هو انتشار الأمية ، وقلة الاستعداد لقراءة الرموز المكتوبة التي التي تجعل النشرات الإذاعية شيئا ضروريا .

٤٤ — التقارير التعليمية

إن السؤال الذي يسأل دائما هو: كم من الناس في بلد معين قد درسوا لغة ثانية لدرجة الإتقان. والإجابة تأتي دائما بشكل واحد في صورة تقدير جزافي أو تخمين عشوائي. ولهذا فإن من اهتمامات علم اللغة الجغرافي أن يعرف — بدرجة ما من الدقة على الأقل —ليس فقط اللغات الأجنبية التي تدرس في كل قطر من أقطار الأرض، ولكن أيضا النسب المئوية من السكان، ومدى الجدية في التعلم، ودرجة الاستمرار، ومقدار الإتقان.

وهنا نجد الأرقام التي بين أيدينا مضللة. ولربما كان صحيحا أن نقول إن نسبة ٢٠٪ من طلبة مدارسنا الثانوية وكلياتنا قد درسوا أو يدرسون لغة أجنبية، أوأن نتحدث عن خيبة الأمل حين نعرف عدد اللغات الأساسية التي تدرس عندنا، أو أن نحاول وضع أرقام وبيانات بناء على إحصاءات المدارس الدقيقة لعدد المترددين عليها من دارسي اللغات الأجنبية. ولكن هذا النوع من البيانات لا يكشف عن الفروق بين مستويات التعليم في البلاد المختلفة، ولا بين أوجه المفارقة بين بلادنا وهذه البلاد، التي تتسم برامج تعليم اللغات الأجنبية فيها بالطول والصعوبة. كذلك يعجز مثل هذا النوع من البيانات عن أن يأخذ في اعتباره الأرقام المتعلقة بالتعليم الخاص مثل مدارس Berlitz للغات، وتلك المتعلقة بالدروس الخصوصية في المنزل، أو بالتعليم عن طريق التسجيلات، أو غير ذلك من الطرق. وهنا مرة ثانية يكون تضمين تعداد السكان بعض الأسئلة الخاصة بالقدرات اللغوية ذا فائدة عظيمة. وحتى إذا كانت الدقة المطلقة مستحيلة التحقيق فإنه يمكن على الأقل أخذ نماذج وافية للمجموع العام للسكان، وعينات تساعد على التنبؤ بالنتائج، وهو ما يعرف بطريقة Gallup poll . وربما كان مهماً كذلك لعالم اللغة الجغرافي أن يعرف — إن وجد — الهدف أو الأهداف التي يرمي اليها أي برنامج لغوي

تعليمي بالنسبة للدارسين ، بالإضافة إلى الهدف الأساسي ، وهو التأهيل للحصول على درجة دراسية .

وحتى بدون حاجة إلى الدخول في تفصيلات كثيرة فإن ذلك سيمكننا من الحكم بقدر كبير من الثقة أيّ اللغات أكثر تدريساً في مختلف أنحاء العالم ، وما نتاج أمثال هذه الدراسات .

ونحن في هذا الباب مدينون لدرجة كبيرة في كثير من الإحصاءات والبيانات لجمعية اللغات الحديثة Modern Language Association التي أمدتنا بإحصاءات شاملة ، وبيانات تتصل بأعمالها الخاصة بالدعاية لتعلم اللغات الأجنبية . ولكن مصادر هذه الجمعية محدودة ، ويجب أن تدعم بعمل حكومي رسمي من هذا النوع الذي يوجد دائما حينما نكون في حالة حرب ، وتصبح أمثال هذه المعلومات ذات أهمية استراتيجية .

إنه ميدان واحد للتخصص بالنسبة لعالم اللغة الجغرافي يمكن أن يكون واضحا أمامنا جيدا : وهو ميدان الإحصاءات المتعلقة باللغة ، وجمع الحقائق اللغوية ، وتصنيفها ، وتهذيبها ، من الناحية الجغرافية ، مع استخدام المناهج الإحصائية الدقيقة .

٤٥ — دراسات للمناطق ولغاتها

لقد تم حتى الآن القيام بقدر لابأس به من الدراسات التي تشمل المناطق ولغاتها ، وإن كان معظم هذه الدراسات قد تعرض للمناطق اللغوية كل على حدة . دون أن يتناول العالم بأسره . وعلى هذا فدراسة المنطقة اللغوية ليست أفضل مثال لعلم اللغة الجغرافي الوليد . إذ في هذه الدراسة تختار منطقة معينة من الكرة الأرضية ، وتدرس تفصيلاً ، مع ربط لغات هذه المنطقة بالعوامل الأخرى التي تؤثر فيها مثل الجغرافيا والتاريخ والسياسة والإنتاج والاقتصاد والنشاط الثقافي ، وحتى الفن والموسيقا والأدب .. وما ينبثق عن هذا يشكل

وعياً عاماً لغوياً جغرافياً يتعلق بمنطقة معينة . ولكنه ما يزال في حاجة إلى نوع من التوازن ، واهتمام ببيان الحصة التي يملكها كل مكان على حدة . ومع ذلك فهذه الدراسة أفضل بكثير — حتى الآن — من دراسة لغة ما أو القيام بأي دراسة لغوية في فراغ .

وبينما تكون — غالبا — مناهج الدراسة الشاملة للغات موضع اهتمام كبير للقوات العسكرية فإن دراسات المناطق ولغاتها تترك غالبا للمعاهد الخاصة .

ويعتقد — وهو اعتقاد سليم إلى حد كبير — أن اهتمام الحكومات بدراسة المكان ولغته يزداد في البلاد التي يهمها أن تحدث تغييرات سياسية في أماكن من العالم . وهذا يجب أن يحركنا لنضاعف جهودنا مرة أخرى بقصد حماية أنفسنا من الآخرين ، إن لم يكن لغرض آخر . وعلى كل حال فدراسة المكان واللغة لاينبغي أن تأخذ صورة تفصيلية بالنسبة لرجل الحرب أوالسياسة ، ولكن يجب أن تتجه نحو المصالح التجارية والاقتصادية ، ونحو الروابط الثقافية .

القسم الثامن

تاريخ موجز لعلم اللغة

٤٦ – العصور القديمة والوسطى

لقد كان القدماء – حتى في عصور التوراة – على وعي باللغة ومشكلاتها، كما هو ثابت من الفصل الخاص ببرج بابل الوارد في سفر التكوين . وهناك نجد الكاتب المجهول يعكس أمنيته على الماضي حين تخيل أن البشرية كانت في وقت من أوقات سعادتها القديمة – تتفاهم بلغة واحدة وكلام واحد.

ولكن الإنسان نتيجة لكبريائه الحمقاء ، وتحديه للإله فقد هذه القدرة الذهبية التي كانت تمكنه من الفهم الكامل . والمشاركة مع غيره في العمل .

وهذا ما توقف واختفى داخل حالة وصفت بأنها مؤسفة ، وهي تعدد اللغات . ويعد ذا أهمية خاصة للغوي هذا الاعتراف بالدور الهام الذي تلعبه اللغة ، والتفاهم اللغوي في العلاقات الاجتماعية .

ومن الأمثلة القديمة للاهتمامات اللغوية البدائية استخدام المترجمين في بلاط الفراعنة ، والنقوش القديمة المكتوبة بلغتين أو ثلاث المحفورة على الحجارة في المناطق التي كانت تستخدم أكثر من لغة ، وحتى كذلك معجم الأنواع المزدوج اللغة الموضوع باللغتين السومارية والأكادية .

وأما الاهتمام المقصود باللغة ومشاكلها فيبدأ مع فلاسفة اليونان القدماء والنحاة السنسكريتيين . وفي حين ناقش الأولون أصل اللغة وطبيعتها حاول الآخرون أن يقننوا لغتهم ، ويضعوا لها القواعد الخاصة بها . وإن المنهج الذي

وضعه Panini للنحو السنسكريتي (٣٠٠ ق م ، ولكنه يحوي إشارات إلى أعمال سابقة) لَيعد غاية في الدقة والإيجاز ، ولكننا لا ندري ما إذا كان هذا العمل في مجموعه يعد وصفياً descriptive ، أو معياريا prescriptive .

وتعد المناقشات التي أثارها الفلاسفة الإغريق ذات أهمية خاصة ، لأنها مهدت الطريق لمناقشات أخرى تالية . هل اللغة شيء فوق الطبيعة تلقاها الإنسان من ربه ؟ هل هناك علاقة فطرية بين الدال والمدلول ؟ هل اللغة تتوقف على العرف والاتفاق بين المتكلمين على أنهم سوف يستعملون رمزاً لغوياً معيناً في مقابل قيمة دلالية معينة شائعة ومتماثلة — قليلا أو كثيرا — بين أطراف التفاهم ؟ من وجهة نظر القرن العشرين ، واستناداً إلى ما ساقه دي سوسير من تفسيرات واضحة لانتردد الآن في أن نعطي رأينا ، ولكن في عهد أفلاطون وكراتيلس كان ما يزال هناك قدر من الشك والنقاش .

والذي يبدو أن النحاة اليونانيين قد شقوا في النهاية طريقهم مستقلين عن الهنود ، وتوصلوا إلى وضع نظام نحوي يناسب لغتهم وغيرها من اللغات الشبيهة بها في التركيب ؛ اللغات التي لها أنواع نحوية متميزة تعبر عن الجنس والعدد والحالة والشخص والزمن والصيغة الفعلية ، وتعد تراكيبها جزءا لا يتجزأ منها ، ويمكن التعرف عليها بملاحظة الصيغ ، أو بملاحظة المعاني والوظائف؛ اللغات التي تقع كلماتها في مواقع متميزة بحيث يمكن ببساطة أن توصف بأنها اسم أو صفة أو فعل .. الخ، وليس عن طريق الإشارة إلى سلوك الكلمات في الجملة فقط ، ولكن أيضا عن طريق الإشارة إلى طرق تركيبها ، وطرق تشكيل نهاياتها ، وتغييراتها الداخلية التي يختص كل منها بنوع معين من أنواع الكلام .
وقد كان هذا هو بداية النحو العالمي الذي استمر مسيطرا على الحقل اللغوي حتى القرن الثامن عشر وما بعده .

وهناك عدة أشياء يجب لفت النظر إليها خاصة بالقواعد النحوية التي وضعها الإغريق . منها أن الوصف الدقيق الذي انتبهوا إليه لم يتم بين يوم وليلة ، وإنما

استغرق قروناً حتى تم وضعه . وقد بني على بعض فروض وهمية ، ومقدمات خاطئة عند التصنيف . وربما كان هذا التصريح مثيراً للعجب ، لأن قيمة النحو اليوناني بالنسبة للغويين المحدثين تعد شيئاً لايحتاج إلى بينة . ولعل السبب الوحيد الذي أدى إلى تخلف النحو الإغريقي وعدم إحكام قواعده أن النحاة الإغريق كانوا مرتبطين بأسس ومبادىء منطقية وفلسفية كثيراً ما اعترضت طريقهم نحو الملاحظة العلمية ، وقادتهم إلى استعمال المنهج الاستدلالي لا الاستقرائي .

وبمجرد أن وضعت التركيبات والأنواع النحوية قُدر لها أن تشيع وتبقى وتستمر . لقد توارثها الخلف عن السلف ، وأصبحت تطبق ليس فقط على المجموعة الرومانسية ، ولكن أيضاً على لغات من مجموعات أخرى مثل العبرية والعربية . ومن حسن الحظ أن اللغات السامية لاتختلف كثيراً جداً في تركيبها عن اللغات الهندية الأوربية . وبذا أمكن لهذا النقل أن يتم بشيء من السهولة واليسر

وكثيراً ما أُخذ على الآراء النحوية القديمة أنها كانت معيارية أكثر منها وصفية ، بمعنى أن النحاة الأقدمين تناولوا التركيب اللغوي كما ينبغي أن يكون لا كما هو كائن بالفعل . وقد نسي هؤلاء الناقدون أن القواعد النحوية — مثل نظم الكتابة — كانت في البداية انعكاسات دقيقة لحالة موجودة بالفعل ، ولكن أوضاع اللغة تتغير دون أن تجاريها القواعد النحوية والنظم الكتابية مما يؤدي في النهاية إلى تحكيم بقايا من مرحلة قديمة منتهية من مراحل اللغة . وهناك دلائل كثيرة — وبخاصة من اللغة اللاتينية — على أن تغير اللغة قد صاحبه جمود في القواعد النحوية . وهناك أيضاً دلائل كثيرة على أن أكثر الناس تعليماً وثقافة كانوا على وعي تام بالتغييرات اللغوية التي حدثت (١) أو التي تحدث للغتهم ،

---

(١) يكفي أن نقتبس المثالين الآتيين وهما : ١ — تصريح القديس Jerome بأن « اللغة اللاتينية نفسها تتغير يوميا سواء من مكان إلى مكان ، أو من وقت لوقت » .
إشارة القديس Augustine إلى أنه « أفضل أن ينالنا توبيخ النحاة من أن يعجز عن فهمنا عامة الناس » .

ومع هذا كان هناك اتجاه نحو اعتبار النماذج القديمة بمثابة المثل اللغوية ، والنظر إلى النماذج الحديثة التي طرأت على أساليب الكلام على أنها انحراف وابتذال يجب مقاومته والتقريع عليه .

وفي نفس الوقت ربما كان صحيحاً القول بأنا نبالغ في فهم المغزى والمناسبة التي توجه منها مثل هذه اللائمات ، فهي قد قيلت لتطبق فقط على اللغة المكتوبة وعلى الأداء الأدبي البلاغي ، لا على الكلام اليومي العادي .

وقد أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى تفسخ للمستويات المعيارية مصحوب بتغيرات واسعة في اللغة المتكلمة . وقد اعترف بهذه التغيرات أخيراً حينما أخذت اللغات الرومانسية الجديدة أشكالا مكتوبة في وقت ازداد فيه الإحساس اللغوي . وبينما كان هناك فيما سبق خط فاصل بين اللاتينية «الصواب» والأخرى « الخطأ » أصبحت اللاتينية نفسها الآن — بعد أن صارت لغة شبه متكلفة وإن كانت ما تزال لغة حية يستعملها الدارسون ورجال الدين — توازن باللغات المحلية ، واللهجات المستعملة بين الفلاحين وطرق التعبير الرومانية ، أو المبتذلة التي انبثقت عن الطبقات الوسطى . ولكن خطوات الاعتراف بهذه الألسنة الجديدة ومساواتها بغيرها كانت بطيئة . ولم يتم حتى حوالي عام ١٠٠٠ م ظهور نحو لغوي مزدوج للغتين اللا تينية والأنجلوسكسونية. وقد كان تقعيد القواعد التي ترتبط باللغات الرومانسية أبطأ من هذا لدرجة أن دانتي كان ما يزال يصف لغته عام ١٣٠٥ بأنها لاتينية من غير قواعد نحوية .

وخلال كل هذه الفترات التي ندرسها ، وذلك من فجر التاريخ حتى فجر النهضة كانت اللغات في استعمال كتابي وكلامي ثابت . ومع هذا يمكن أن ندعي وجود إدراك للتغيرات اللغوية حينئذاك ، وإن كنا لا نملك دليلا مباشراً لهذا الإدراك ، فقد كانت الإشارات المباشرة لإختلافات كهذه ، وللصعوبات المتولدة عنها — من جانب آخر — الى حد ما ، طفيفة . وفي أعمال تقابل أعمالنا الأدبية الحديثة (مثل الإلياذة والأوديسة على سبيل المثال) كانت

الشخصيات ذوات الثقافات اللغوية المختلفة تتحادث بحرية ، وبغير ما حاجة ظاهرة إلى تدخل مترجم . وهذا التقليل من العامل اللغوي — الذي يتضمن لامبالاة أخطر حتى من الجهل — وجد في صورة مماثلة في العصر الحديث . وذلك في الأفلام المبكرة لهوليوود . ولم يأت التصويب والنظرة الواقعية إلا في فترة متأخرة ، نتيجة لنضج التفكير .

وإن الوعي اللغوي — بمعناه الاصطلاحي الحديث — المؤسس على الملاحظة والتحليل والتركيب والتعميم لما يفتقده المرء في مثل تلك الدراسات . وكثير من النتائج الأساسية الصحيحة التي توصل إليها النحاة الأقدمون كانت من آثار الصدفة أكثر منها من آثار المنهج . وبين عامي ٤٠٠ و ١٠٠٠ م كان هناك قدر قليل دال على وعي لغوي ، ربما اعترف به اللغوي الحديث كشيء جديد بالتقدير بالإضافة إلى ما تم من ترجمات للكتاب المقدس ، وأدعية الحجاج . وإن كان كلاهما يغلب عليه الطابع النفعي .

وفوق كل هذا فإن هناك قليلاً من الشواهد في عصر ما قبل النهضة تدل على الاهتداء إلى تصنيف اللغات ، واكتشاف قراباتها والعلائق بينها . وقد كان اليونانيون — الذين كانوا على وعي فقط بلغتهم — يجمعون كل المتكلمين باللغات الأخرى ، ويحكمون عليهم بصفات محتقرة كالعجمة أو البربرية أو التخليط . ولم يترك الرومانيون — الذين كانوا يظهرون احتراماً للغة أجنبية واحدة فقط وهي اليونانية — لم يتركوا لنا إشارات ذات قيمة تتعلق بلغات مثل الـ Goulish والـ Iberian ، والـ Etruscan ، والـ Punic . وقد وقع Varro النحوي الروماني الوحيد الذي خاطر فتحدث بطريق التخمين عن وجود علاقة بين اليونانية واللاتينية ، وقع في نتائج خاطئة .

الصورة إذن من الجانب اللغوي التاريخي ليست مشجعة تماماً . أما بالنسبة لعلماء اللغة الوصفيين فقد كان وصفهم أفضل قليلا بالنظر إلى دراساتهم الوصفية

للغات السنسكريتية واليونانية واللاتينية التي كانت دقيقة إلى حد كبير ، ولو أنها كانت تعالج لغات كانت قد وصلت حينئذ إلى درجة من العقم والجمود .

٤٧ ــ من النهضة العلمية حتى عام ١٨٠٠

نقطة البدء في نظرنا هي وصف دانتي للغة الإيطالية المثالية في كتاب أصدره عام ١٣٠٥ بعنوان De Vulgari Eloquentia ، وقد قرن بدراسة صائبة عن توالد اللغات ، وعن أصل اللغات الإيطالية والفرنسية والبروفنسالية ، والعلاقة بينها ، وبتصنيف دقيق في جملته للهجات الإيطالية . ثم أخذت النهضة تشق طريقها ، ولكن ببطء ، وبطريقة غائمة نحو الآراء اللغوية الحديثة .

وقد كان الاسهام الأساسي الذي قدمته العصور الوسطى لعلم اللغة هو محاولة تقديم نحو عالمي صالح للتطبيق ــ مع إدخال تعديلات مناسبة ــ على كل اللغات . وقد كان هذا ــ من أحد الوجوه ــ إحياء لفكرة قديمة سيطرت على عقول الأوائل ، وهي اعتبار لغاتهم فقط هي اللغات الوحيدة التي تستحق الدراسة والتوسع لتصبح لغات عالمية . والتغير الذي قدمه علم اللغة الوسيط هو أنه اعترف بلغات أخرى بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية ، حتى ولو كانت تلك اللغات تحتل مكانة ثانوية . وظل هذا التصور للنحو العالمي يحتل عالم اللغة فترة طويلة بعد اكتشاف لغات أخرى تختلف جذرياً في التركيب عن اللغات ــ الكلاسيكية ، وإن كان اكتشاف هذه اللغات قد بدأ يلقي ظلالاً من الشك على قيمته . ولربما كنا على صواب إذا قلنا إن النحو العالمي ما يزال بروحه ــ إلى حد ما ــ يسيطر على عقلية اللغويين المعاصرين ، لأن من بين الأهداف التي يهتم بالوصول إليها علم اللغة الوصفي ــ كما صرح بذلك دي سوسير نفسه ــ تحقيق مبادىء قابلة للتطبيق عالمياً على كل اللغات (ولاحظ كذلك محاولة Whorf لعمل نحو جديد عالمي مبني على أساس علمي بحت) . والفروق الأساسية بين النظرة الوسيطة والنظرة الحديثة تكمن في العناية بالعناصر اللغوية المختلفة ،

والاهتمام بنوع معين من اللغات دون الأنواع الأخرى . ولكن علماء اللغة الوسيطين يمكن أن يلتمس لهم العذر فيما وقعوا فيه من أخطاء منهجية ، على ضوء ما نعرفه عنهم من جهل بجميع اللغات التي لا تتصل بالمجموعة الهندية الأوربية ، أو بمجموعة شبيهة من الناحية التركيبية ، مثل المجموعة السامية التي تتضمن ضمن ما تتضمن اللغتين العربية والعبرية ، وهما لغتان كانتا معروفتين إلى حد معقول لدى علماء أوربا في العصر الوسيط .

ولكن باتساع المجال الأوربي أولا نتيجة للحروب الصليبية ، وثانياً بسبب الرحلات والاكتشافات والريادات الجغرافية ، أخذت النافذة تتسع لتطل على لغات أخرى جديدة غريبة ، شرقية قصية ، وإفريقية ، وهندية أمريكية ، وهي لغات لايصلح لها تطبيق المعايير النحوية القديمة الشائعة إلا بالإكراه ، كما يكره وتد مربّع ليدخل في ثقب مستدير .

وإنه لمن الصعب أن نحدد بالدقة متى بدأ الشعور — خلال عصر النهضة — يتسرب إلى عقول العلماء بأن هذه اللغات المكتشفة حديثاً لا تتفق قواعدها وأسسها مع نظرية النحو العالمي ، على الأقل بالطريقة التي وصلتنا . وعلى كل حال فقد بدأت محاولات كثيرة لوضع نحو وصفي لبعض اللغات الحديثة والقديمة على السواء . وبدأت تظهر مناقشات وخلافات كان يشوهها في الغالب جهل العلماء بالحقائق المتعلقة بتصنيف اللغات وقراباتها اللغوية . وبدأت كذلك مناقشات تتعلق بمستوى الصواب اللغوي ، وبمشكلة انقسام اللغة إلى لهجات ، ومشكلة اللهجات الطبقية .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن نقول إن البحث والدرس وإن ظلا يعانيان من اضطراب المنهج وخطأ المقدمات فقد حققا في هذه الفترة تقدماً ملموساً سار في عدة اتجاهات . لقد كان عقل عصر النهضة عقلا فاحصاً . لقد أراد أن يعيش التجربة ويقيم الدليل ، ويعرف كل شيء ، ويبعد — بقدر الإمكان — عن عقلية العصر الوسيط التي كانت تتسم بالغيبية المطلقة ، وتخلع صفة الأزلية

على الأشياء المؤثرة في الحياة ، وترى أن ما يقع في هذا العالم إنما يقع بمحض الصدفة .

وقد حمل هذا الاتجاه – الذي امتد حتى نهاية القرن الثامن عشر – ثماراً كثيرة ، وإن لم تكن جميعها ذات قيمة كبيرة . وبمجيء عام ١٨٠٠ كانت كثير من الأسس اللغوية قد وضعت ، وإن ظل هناك عيب واضح في البحث ، وهو عدم التزامه منهجاً سليماً مستقراً يعطي ضمانات علمية دقيقة . وقد تم عملياً وصف كل اللغات المعروفة تقريباً بطريقة أو بأخرى . وإن أكره بعضها ليخضع للقالب الهندي الأوربي . وتم تقدم كبير في موضوع تصنيف اللغات ، وإن وجدت بعض الآراء الخاطئة التي كانت تحتاج إلى تقويم ، وبعض الاتجاهات غير العلمية التي أقيمت على التخمين والافتراض ، أو على الجهد الفردي الذي يطرق بدون خبرة مجال اللغة . وقد جمعت في تلك الفترة شواهد كتابية كثيرة يمكن ، أن تخدم الدراسة التاريخية اللغوية ، وتساعد في رصد أطوار اللغات . وبعض النظريات الحديثة ، مثل الصواب والخطأ في اللغة ، ومثل الانقسامات اللهجية ، ومثل المستوى الأدبي للغة قد طرحت على بساط البحث والمناقشة . وفوق كل هذا فقد ارتفع الوعي اللغوي ، ووجدت اهتمامات لغوية كثيرة . وكل ما بقي في حاجة إلى معالجة هو اختفاء المنهج العلمي المستقر .

٤٨ – القرن التاسع عشر

حتى من قبل نهاية القرن الثامن عشر كان السير وليم جونز William Jones قد قدم لعالم الدراسات اللغوية آراءه عن العلاقة القوية بين السنسكريتية والفارسية القديمة ، وبين اللاتينية واليونانية والجرمانية والكلتية . وقد كانت هذه الدراسة بمثابة الدليل أو الريادة للمنهج المقارن الذي أخذ يحتل عالم الدراسات اللغوية طوال المائة العام التالية أو أكثر .

ولم يكن جونز نفسه هو الذي وضع منهج البحث ، وإن كان هو الذي اقترحه . ولكن تبعه مباشرة علماء مثل شليجل Schlegel ، ورسك Rask ، وبوب Bopp ، وجريم Grimm ، وفرنر Verner . وقد كان المنهج — في أساسه — بسيطا . احصل على أقدم الأشكال الثابتة ، وعلى أقدم الكلمات لكل فرع من فروع اللغات الهندية الأوربية ، ثم ضعها بعضها بجانب بعض ، وصف ما بينها من مشابهات واختلافات ثم حاول أن تركب — عن طريق استخلاص الأشياء المشتركة الغالبة — الصيغة المحتملة للغة الأم . ولم يكن بالطبع يقدر لهذا المنهج أن يقبل ، إلا بعد إثبات العلاقة بين اللاتينية واليونانية ، والسنسكريتية والسلافية القديمة ، والكلتية القديمة . . . إلخ ، وانتمائها جميعا لعائلة واحدة ، وتفرعها من أصل واحد ، أو لغة أم مشتركة . ولا بد لنا أن نعترف بفضل الريادة ، وتقديم الأسس الدقيقة المقبولة لهذه النظرية للسير وليم جونز ، على الرغم من اعترافنا بأن معظم الشواهد والتطبيقات قد تمت على يد كتاب متأخرين .وقد امتدت آفاق علم اللغة المقارن فيما بعد لتشمل فروعاً مستقلة للغات الهندية الأوربية (على سبيل المثال اللغات الرومانسية المتفرعة عن أصل لاتيني مشترك) ، وحتى لتشمل مجموعات من اللغات لاتبدو لها صلة بالمجموعة الهندية الأوربية ، وإن كانت تبدو مرتبطة بعضها مع بعض ، مثل الأكادية ، والعبرية ، والعربية ، والآرامية ، وغيرها من المجموعة السامية .

وكان نتاج هذه الدراسة علم اللغة المقارن ، ، أو كما كان يسمى في ذلك الوقت : الفلولوجي المقارن (أطلق عليه هذا الوصف لأن أقدم النماذج والكلمات والصيغ والتركيبات الثابتة قد انحدرت كلها من وثائق لغوية مكتوبة) .

وفي خلال هذا القرن لم يظهر إلا قليل جدا مما عرف فيما بعد باسم علم اللغة الوصفي ، فقد كان هناك من يزعم في ذلك الوقت — بطريقة ضمنية — أن الاهتمامات التاريخية لها الشأن الأعظم . وقد مهدت الدراسات اللغوية المقارنة السبيل إلى استبعاد البقية الباقية من الاعتقاد التقليدي الذي كان سائدا ، وهو الذي يزعم أن كل اللغات قد انحدرت من أصل لغوي مشترك . وعلى

هذا فإن فكرة وضع أسس تقبل التطبيق على كل اللغات قد فشلت في أن تفرض نفسها . حتى هذه الفترة لم يكن قد قدر لعلم اللغة الجغرافي أن يعرف. وحتى نهاية هذا القرن ، وربما بعد ذلك أيضا ، كان هنالك اعتقاد سائد بأن اللغات التي تستحق الدراسة من أجل ما تحققه من فائدة عملية ، هي تلك اللغات العظمى التي حملت الحضارة الأوربية ، والتي صارت كذلك لغات استعمارية عظمى . ولم يكن محض صدفة أن اللغات الصناعية التي حوول تركيبها خلال هذه الفترة بما فيها الإسبرانتو لم تعط تمثيلاً متساوياً للغات ذات القيمة العالمية ، فقد حصرت نفسها في اللغات ذات الأصل الجرماني ، أو اللاتيني أو الروماني أو اليوناني ، مع إشارات سريعة إلى اللغات السلافية (١)

وقد عكر من صفو الوحدة المتآلفة للفكر اللغوي في القرن التاسع عشر الخلاف الحاد الذي ثار بين مؤيدي نظرية الاطراد الملتزم للتغييرات الصوتية (النحويون المحدثون Neo grammarians) ، ومؤيدي النظرية القائلة بأن التغير اللغوي شيء يرجع إلى الهوى الشخصي في العادة (اللغويون المحدثون Neo linguists) . وقد تبلور هذا الخلاف عن حل وسط يقول إنه يوجد اطراد في التغير الصوتي ، بشرط ألا تتدخل عوامل أخرى مثل القياس والاقتراض اللهجي أو الثقافي في طريق ما يسمى بالقوانين الصوتية Sound Laws . وعلى الرغم من الصورة الكريهة التي ظهر فيها هذا الجدل ، فقد كان النتاج ذا قيمة كبيرة ، حيث تركز الاهتمام على الصيغ اللهجية ، وعلى أنواع من الكلام لم يكن ينظر اليها حتى تلك اللحظة إلا على أنها لغات تافهة لا تستحق الدراسة. وحيث أن اللهجات لم تكن — من جميع جوانبها — مسجلة في خلال تطورها التاريخي ، فقد أدى هذا إلى توجيه الاهتمام إلى اللغات الحية

(١) لاحظ — على أي حال — محاولة Monsignor Schleyer تأليف لغة سماها Vola puk للتيسير على المتكلمين باللغة الصينية . وقد راعى في هذه اللغة تقليل استعمال الرمز r في النظام الصوتي لهذه اللغة ، لأن الصينيين لا يمكنهم نطقه .

ولهجاتها المتشعبة . ونتج عن هذا اهتمام بدراسة الجوانب المختلفة لهذه اللغات الحديثة عن طريق الملاحظة المباشرة ، مما أدى إلى وجود فرع هام من فروع علم اللغة ، وهو علم اللغة الوصفي الذي يعطي اهتماما كبيرا للغات المتكلمة ، ويقلل من الاهتمام بالشواهد المكتوبة . كما أن الأسس اللغوية القابلة للتطبيق على حركة اللغات قد بدأت تتطور .

وحتى الآن — وعلى الرغم من ظهور أول أطلس لغوي في العشرالسنوات الأولى للقرن العشرين — فإن الأسس الدقيقة لعلم اللغة الوصفي باعتباره فرعاً مستقلاً من فروع علم اللغة كان يجب أن تنتظر حتى يظهر كتاب دي سوسير الذي نشر عام ١٩١٦ بعد موته تحت عنوان Course in General Linguistics. قد رسم هذا الكتاب بوضوح ودقة الحدود الفاصلة بين فرعي علم اللغة .

٤٩ — القرن العشرون

إن القرون — كبدايات أونهايات زمنية — لا تتطابق دائماً مع نقط التحول في التاريخ . ومن الناحية العملية ، وفي كل الاتجاهات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية ، فإن القرن التاسع عشر يمتد إلى ما بعد عام ١٩٠٠ حتى نشوب الحرب العالمية الأولى التي غيرت وجه التاريخ ، ولم يصبح العالم بعدها كما كان قبلها . وقد استمر علم اللغة التاريخي بالطبع بعد نشر كتاب دي سوسير وما يزال مستمراً حتى الآن ، ولكن تلاه في الوجود ، وتبعه في كل خطـوة يخطوها شريكه الناشيء ذو السمعة المدوية ، وهو علم اللغة الوصفي . ومنذ تلك اللحظة أخذ ميزان القوى يختل متحولا من البحث المقارن في تاريخ — وكذلك ماقبل تاريخ — اللغات الهندية الأوربية إلى وصف اللغات المستقلة ، بغـض النظر عن كونها منتمية إلى المجموعة الهندية الأوربية أولا . ومن أجل هذا كانت بعض اللغات المدروسة مجهولة ، وإن كانت تصور سلسلة العمليات المتعاقبـة الموجودة في كل اللغات .

وفي أمريكا بوجه خاص اتجهت الدراسات الوصفية نحو اللغات المجهولة من المجموعة الهندية الأمريكية ، مع اهتمام كبير بالنزول إلى حقل التجربة مساو لاهتمام الباحثين الأوربيين في مجال اللهجات ، وتطوير منهج عملي لدراسة اللغات غير المكتوبة التي لاتعرف ظروفها التاريخية . ورواد هذا الحقل علماء مثل بوس Boas ، وسابير Sapir ، وبلومفيلد Bloomfield . وقد استمر عملهم حتى اليوم بجهود تلاميذهم ، وإخلاص مريديهم . أما امتداد هذا الفرع الوصفي على أيدي الأوربيين فقد أخذ شكلا نظرياً ، وإلى حد ما فلسفياً على يد Jespersen الذي حاول أن يضع الأسس التي تحكم تقدم اللغة . كأن تتطور من مرحلة التركيب إلى مرحلة التحليل . وفي تشيكوسلوفاكيا طورت مدرسة براغ اللغوية منهجها التركيبي شبه المتناسق الأجزاء . وفي كوبنهاجن عملت مدرستها اللغوية على محاولة التعبير عن اللغة والتطور اللغوي بسلسلة من المعادلات شبه الرياضية . وقد ركزت المدرسة السوفيتية برياسة N.Y. Marr على اللغة باعتبارها مرتبطة بالطبقة الاجتماعية ، ومظهراً من مظاهرها .

وإن علم اللغة التاريخي — على الرغم من انتزاعه من فوق عرشه الذي كان يحتله خلال القرن التاسع عشر — لم يمت أو يتوقف خلال القرن العشرين . وقد بذلت محاولات كثيرة في الأعوام الأخيرة في أوربا وأمريكا كليهما . وقد تناول البحث مجموعات لغوية مختلفة ، وظهر في أوربا علماء مهتمون بالدراسات الهندية الأوربية مثل Meillet ، و Hrozný ، و Kuriłowicz ، و Pokorny ، و Benveniste ، وآخرون مهتمون بالدراسات الرومانية مثل Rohlfs ، و Menéndez-Pidal ، و Bourciez ، و Brunot و Von Wartburg ، و Entwistle ، و Cintra ، و Devoto ، و Paiva Boleo ، و Monteverdi ، و Migliorini ، وغيرهم ممن حملوا رسالة من سبقوهم إلى أعلى مستوى . وفي أمريكا ظهرت أعمال بالغة القيمة لعلماء مثل Conway ، و Whatmough ، و Sturtevant و Kent ، و Bolling ، و Buck . وفي الأعوام الأخيرة بذلت محاولات

لربط المنهج التاريخي بالمنهج الوصفي على يد علماء مثـــل Martinet ، و Hoenigswald ، وكذلك محاولات لإعادة كتابة التاريخ اللغوي على أساس من المقارنة الإحصائية لأوجه الخلاف والشبه بين المفردات Glotto chronological وحتى مجالات الدراسة المبنيّة على فكرة الأصل الواحد monogenesis لم يصبها الإهمال .

وبينما نجد الأبحاث التاريخية ما تزال هي السائدة في أوربا نجد الدراســـة الوصفية سائدة في أمريكا . أما علم اللغة الجغرافي فإنه ما يزال في دور التكون أو التبرعم . ولا يوجد الآن سوى قدر ضئيل من الشك حول الاعتراف الكامل في المستقبل القريب باعتباره فرعاً ثالثاً من فروع علم اللغة ، وذلك حينمـــا تظهر فائدته العملية ، ويتضح استحقاقه لأن يحيا حياة منفصلة عن طريق الشواهد الكثيرة التي يقدمها ، وبسبب الاهتمام الدولي به رضمياً .

٥٠ ـ نظرة إلى الأمام

إن التنبؤات البعيدة المدى تكون دائماً محفوفة بالمخاطر ، لأن الأحـــداث كثيراً ما تنحرف بوقائع التاريخ إلى قنوات جديدة وغير متوقعة ، وعلم اللغة ليس استثناء من هذه القاعدة . وإن أمثال التنبؤات التي قدمت هنا قد عرضت مع إيماننا بأن العوامل غير المنظورة دائماً ما تتسلط على أحداث المستقبل .

وعلى ضوء الاتجاهات المعاصرة يبدو ممكناً أن نتنبأ بمستقبل زاهر لدراسة اللغات في الولايات المتحدة ، إحدى البلاد القليلة التي كانت هذه الدراسة بها حتى وقت غير طويل نوعاً من المخاطرة . وما دامت اللغة تشكل موضوع علم اللغة ، فإن هذا يعني أيضاً تقدماً ملحوظاً في دراسة اللغات ، كما هو الحال دائماً في الأقطار الأخرى التي لم تعرف علم اللغة كعلم مستقل .

وفي الوقت الحاضر ما يزال علم اللغة الوصفي في أول الطريق . وحينما

يستخدم الناس كلمة علم اللغة من غير إضافة صفة كاشفة ، فإنهم يعنون غالباً علم اللغة الوصفي أو التركيبي . وإن علم اللغة الوصفي ليشكل ، بل ويجب أن يشكل الأساس للدراسات اللغوية ، وإن كانت هناك خطورة إعطائه أهمية أكثر من اللازم . وإن الإسهام الكبير الذي قدمه علم اللغة الوصفي ليتمثل أساساً في النواحي الصوتية والفونيمية التي تعد أكثر فروع اللغة موضوعية ، وأقربها إلى المناهج العلمية ، والمقاييس الدقيقة . أما في مجال الصرف والنحو فهناك قدر كبير من الشك حول ما إذا كان في مقدور المنهج الوصفي ومصطلحاته تقديم مزايا أكبر من تلك التي قدمها سابقه المنهج التاريخي . وحينما نأتي إلى مجال المفردات نجد علماء اللغة الوصفيين يخلون الطريق لزملائهم التاريخيين ، وهو ما ينطبق كذلك على مجال الدراسة الاشتقاقية . أما فيما يخص علم المعنى فإن المفردات تذهب لتنضم للمورفيمات وللنحو لتشكل جميعاً الدستور الذي يميز الاستعمالات الصحيحة من الخاطئة .

وربما كانت غلبة الدراسة النظرية — من ناحية — والتعصب لفرع واحد من فروع العلم أثناء دراسة المشاكل اللغوية — من ناحية أخرى — هما التهديد الصريح لعنصر الانسجام في عالم الدراسات اللغوية ، مما يوشك أن يعوق تقدم هذه الدراسات . ومن وجهة النظر الوصفية البحتة فإن علماء اللغة الوصفيين على حق في اعتبارهم كل اللغة واللغات على قدر واحد من المساواة . ولكن هناك ثلاث وجهات نظر أخرى ، لا بد من أخذها في الاعتبار ، وكلها مبنية على الحقيقة والواقع ، وهي قائمة على أساس العوامل التاريخية والجغرافية والاجتماعية . فمن وجهة نظر عالم اللغة التاريخي لا يمكن وضع اللغات كلها على قدم المساواة . فإن بعضها تحيط به أحداث تاريخية أهم من بعضها الآخر . ومن وجهة نظر علم اللغة الجغرافي يجب أن نأخذ في الاعتبار تفاوت اللغات من ناحية الأهمية العملية ، وكذلك تفاوت أنماطها . (١)

---

(١) لا يحتاج عالم اللغة الجغرافي — على سبيل المثال — إلى الاعتذار عن توجيه قدر كبير من اهتمامه—

ومن وجهة النظر الاجتماعية ــ كما هو من وجهة نظر الشخص العادي يوجد ــ في مقابل أنماط غير المثقفين في كل لغة ــ نمط يتمتع بالمكانة والهيبة دون الأنماط اللغوية الأخرى ، وهو مايمكن أن يسمى بالنمط اللغوي للمثقفين. ونتيجة لذلك يظهر نفوذ بعض الأنماط اللغوية دون بعض حين يفاضل بينها في مجال الوظيفة والاختيار والمركز الاجتماعي . إن الشخص لا يمكن أن يغمض عينيه عن هذه الحقائق على أساس نظرية المساواة لأن هذه النظرية قد قامت على نظام مختلف .

وبالإضافة إلى هذا فإن علماء اللغة الوصفيين يجب أن يدركوا أن التعقيدات غير الضرورية التي يخضعون لها علمهم لا تساعد على انتشار منهجهم ، أو جعله مرغوباً فيه . وكثيراً ما سمعنا شكاوى من دارسي علم اللغة أنهم لا يفهمون أي شيء منه. ولا يمكن نسبة كل هذه الشكاوى إلى التقصير في الإعداد، أو إلى نقص الاستعداد الذكائي . وإن هناك عبئاً ثقيلا ملقى على كواهل أولئك الذين يريدون نشر أي علم وجعله قريباً إلى عامة المثقفين ليكسب أنصاراً وأتباعاً جدداً ، وهذا عن طريق استخدام مصطلحات متفق عليها ، ومناهج مناسبة ، والكف عن الاشتغال بالمسائل التافهة .

ومن ناحية أخرى فإن حقل الدراسات اللغوية الوصفية المثمرة ما يزال بكراً حتى الآن . فما زالت هناك أعمال كثيرة تنتظر من يتقدم لإنجازها ، وبخاصة في مجال الدراسة الوصفية للغات ، كل على حدة ، وفي مجال تنقية الوسائل المستعملة في البحث . وإنه عالم اللغة الوصفي ذلك الذي يهتم بالوسائل الآلية ، والعون الميكانيكي من أجل تعليم اللغات ودراستها ، وهذا يفتح أمامه مجالات واسعة مثمرة للبحث .

=الفرنسية والصينية والروسية أكثر من الـ Ojibwa و الـ Tibetan والـ Fula مثلا.
كذلك فهو يستعمل حقه حينما يصف المجموعة الهندية الأوروبية بأنها ذات أهمية عملية أكثر من لغات المواطنين الأستراليين الأصليين .

وحتى الوقت الحاضر لا توجد إلا مناطق ضئيلة جداً هي التي وضع لها أطلس لغوي . ومن الملاحظ مثلاً أننا ما زلنا في حاجة إلى أطلس لغوي شامل العالم المتكلم باللغة الأسبانية ، في البلاد المتكلمة باللغة الفرنسية ، دون ارتباط بفرنسا مثل كويبك ، وهايتي ، والمستعمرات الفرنسية البلجيكية السابقة في إفريقيا . فهذا يتطلب جهوداً جبارة من علم اللغة الوصفي .

كذلك فإن تهذيب الأطالس الموجودة حالياً وتنقيحها في حاجة إلى جهد كبير . وهذا النوع من العمل الذي سيقوم به علماء اللغة الوصفيون بمناهج بحثهم الحديثة سوف يكون مساعداً عظيماً للدراسة اللغوية التاريخية والجغرافية على السواء .

وإن علم اللغة التاريخي — أكثر من الفرعين الآخرين — ليغري به إلى حد كبير عنصر الهواية لا المهنة . فإن ما نستخلصه من ماضي اللغة وتطورها التاريخي لايمكن استخدامه في المجال التطبيقي العملي لتعلم اللغة وتعليمها ، ولا هو — على الجانب الآخر — يمكن أن يدر ربحاً مادياً على الباحث . كل مايمكن أن يقال هو أن الدروس المستفادة من الماضي ربما أفادت في فهم ما يحدث الآن، أو ما سيحدث في المستقبل. ولكن هذا في حد ذاته يمكن أن يكون ذا قيمة عملية.

وإن عالم اللغة التاريخي يجب أن يتعلم أن يكبت خياله ، ويعتمد أكثر على الشواهد والحقائق . وهنا فإن لديه أشياء كثيرة يمكن أن يتعلمها من زميله عالم اللغة الوصفي . وإن فرع العلم الذي يبحثه إنما هو بالتأكيد جزء من الدراسات التاريخية العامة ، ولهذا ينبغي أن يعرضه كما هو . وهنالك احتمال لتضييق نطاق المنهج التاريخي الذي يستدعي تقدير الشاهد الممكن الحصول عليه تقديراً مناسباً وتقديم الدليل الإضافي . وحيث إن علم اللغة التاريخي — رغم أنه أقل الفروع عملية — ربما يكون أكثر فروع علم اللغة جاذبية وأقواها نداء في مخيلة الرجل العادي ، فإنه لن يكون مهدداً في المستقبل بالاختفاء أو الزوال . ومن ناحية فقده — من الناحية الظاهرية على الأقل — للجوانب المعوقة لعلم اللغة الوصفي ،

فإنه يوجه نداءه وإغراءه للخيال العادي ، كما يستدل على ذلك من الحقيقة أن هناك قليلاً من المجلات الشائعة ما يخلو من جزء يتناول قوة الكلمة واشتقاقاتها .

إن المشاكل التي ما تزال تنتظر الحل على يد علم اللغة التاريخي لا تدخل تحت حصر . وهذا يصدق حتى على تلك المناطق التي تمت عليها دراسات واسعة في الماضي مثل الهندية الأوربية والسامية . وإن العلاقات الاشتقاقية وتطور اللغات — وبخاصة تلك التي يندر الحصول على مادة لغوية مكتوبة لها ، (أو حتى تلك التي تشتمل على مادة لغوية مكتوبة كثيرة) — ومشكلة وحدة الأصل ، ومشكلة ترجمة وتفسير اللغات القديمة التي لم تحظ حتى الآن بعناية الدارسين كلها تقع أمام عين باحث اللغة التاريخي وتناديه بأن يبذل عناية أكبر .

وهناك مهمة أخرى تحتاج بوجه خاص إلى مزيد من العناية العلمية ، وهي مفردات اللغات الكبيرة ، للوصول إلى النسبة المئوية المقترضة ، وطبيعتها ، ومصادرها ، وليس هذا لإشباع حب الاستطلاع عند عالم اللغة مطلقاً ، ولكن عند عالم اللغة التاريخي . وإن الصلات بين علم اللغة التاريخي والتاريخ لفي حاجة إلى دعم قوي . كذلك فإن التطور اللغوي في حاجة إلى أن يوضع تاريخياً في مكانه الحقيقي .

أما ميدان علم اللغة الجغرافي فهو أكثر الميادين خصباً ، لأنه أقل الفروع حظاً من عناية الباحثين ، ونصيباً من العمل المنظم . وإن مباحث علم اللغة الجغرافي قد حكم عليها علماء اللغة المتخصصون بأنها فرع خادم للفرعين الآخرين بدلا من أن يعالجوها بطريقة أساسية مستقلة . ومن الناحية المادية فإن علم اللغة الجغرافي يقدم الوعود بأن يكون أكثر الفروع الثلاثة عطاء وهبة ولكنه إلى جانب ذلك يدعو أكثر من الفروع الأخرى إلى مزيد من العناية التي يجب أن يتفق عليها بين الجهات الرسمية ، من حكومية وصناعية ، تلك الجهات التي عجزت حتى الآن عن أن تتصور مدى أهمية هذا العلم في حل كثير من

المشاكل التي يعتبرونها أساسية . وهذا هو المجال الذي يمكن فيه لعلم اللغة أن يتقدم ويحقق كثيراً من نتائجه العملية . وكل اللغويين الذين يستحقون الإشارة إلى أسمائهم لابد وأن يكونوا قد وصلوا الآن إلى نتيجة محققة ، هي أن العلوم لاتحيا في فراغ ، وأنه بينما يمكنك أن تخلق العلماء الباحثين لذات العلم ، الذين لايأبهون للجانب العملي أو التطبيقي ، فإن التطبيق العملي للعلوم يحيا في كل ميدان ، ولا يصح أن يمتهن أو يحتقر .

ومن وقت لآخر تعلو نداءات لإعادة توحيد علم اللغة ، وعبور الفجوة ، التي أخذت تتطور وتتسع بالتدريج بين علم اللغة التاريخي والوصفي . وقد بذلت محاولات عدة لإدخال المناهج الوصفية ومصطلحات علم اللغة الوصفي على علم اللغة التاريخي[1] .

وإنه مما لاشك فيه أنه لا بد أن يخلق نوع من الانسجام والتعاون بين فروع علم اللغة . كذلك مما لاشك فيه أنه لا بد أن توجد هدنة لوقف المعارك الفكرية الناشئة عن إصرار أتباع كل فرع على عرض المشاكل المتعلقة بالآخرين من خلال منظارهم هم .

وعلى كل حال فليس هناك فائدة يمكن أن تتحقق — في رأي صاحب هذا الكتاب — عن طريق إدماج الفروع في فرع واحد ، له منهج واحد ، واصطلاحات واحدة ، بعد أن أثبت دي سوسير أنها فروع متعددة ، وميادين منفصلة . وإن كل فرع من فروع علم اللغة سواء الوصفي أو التاريخي أو الجغرافي له مشاكله الخاصة ، وموضوعاته الخاصة ، ومنهجه الخاص ، واسمه الخاص . وقد انبثقت جميعها بعد تاريخ طويل من الأخذ والرد والخطأ والصواب . وهي الآن قد بدأت تستقر وتأخذ شكلا مناسباً لكل فرع .

---

(١) انظر على وجه الخصوص : H.M. Hoenigswald في كتابه : Language Change and — Linguistic Reconstruction مطبعة جامعة شيكاغو ١٩٦٠ .

وإن المحاولات التي بذلت لاتباع المناهج الوصفية لمعالجة مشاكل تاريخية صرفة قد أدت إلى تعقيد الحلول ، وقادت إلى موقف احتاجت معه إلى عشر صفحات لتشرح ما هو مبين من قبل ، في صفحة واحدة . وأي محاولة للرجوع بعلم اللغة الوصفي إلى نقطة وجوده في القرن التاسع عشر بمناهجه وحالته ، لن تكلل بالنجاح . كذلك لن تكلل بالنجاح أي محاولة للتقليل من قيمة علم اللغة الجغرافي ، أو القول بأنه لاحاجة إلى اعتباره علماً منفصلا . وإن الفشل في تحقيق نتائج هامة لعلم اللغة الجغرافي على يد العلماء التاريخيين أولا ، والعلماء الوصفيين ثانياً ، ليعطي دليلا واضحاً على ضرورة معالجة علم اللغة الجغرافي معالجة خاصة على يد خبراء متخصصين .

ومن ناحية أخرى فإن الجانب الجغرافي من علم اللغة هو الذي أثار — خلال الحرب العالمية الثانية — اهتمام الحكومة ، وأدى إلى إنشاء مكتب تحليل الوسائط Media Analysis Bureau ووضع المناهج الدراسية العملية لتعليم اللغات لأفراد القوات المسلحة . وقد كانت الحكومة مهتمة بالناحية العملية لا النظرية أو التاريخية للغة . لقد كانت تريد أن تعرف أي اللغات تستعمل في العالم ، ومن وكم يتكلم بها ، وكيف تستعمل ، وكانت تريد أن تجهز تحت يديها أكبر عدد ممكن من الناس الذين يمكنهم أن يتكلموا ويفهموا اللغات ، وعدداً أصغر من الخبراء الذين يمكنهم أن يتعرفوا عليها . وكل هذا لم يكن لاتاريخياً ولا وصفياً ، وإنما جغرافياً .

وإن الفروع الثلاثة المتآخية سوف تحقق أحسن النتائج إذا سمح لها أن تسير جنباً إلى جنب كفروع منفصلة ، لكن كشركاء متسارين تتقاسم اكتشافاتها ، وتطبق على بعضها مايمكن تطبيقه من مناهج بعضها الآخر ومصطلحاته وآرائه . وأي شيء وراء هذا سوف ينتهي إلى نوع من القسر وتضييع الجهد وعدم الكفاءة.

ملاحــــق

الملحق رقم ١

الأبجدية الصوتية الدولية — The International Phonetic Alphabet

CONSONANTS صوامت	Bi-labial شفوي ثنائي	Labio-dental شفوي أسناني	Dental and Alveolar أسناني ولثوي	Retroflex التواء خلفي	Palato-alveolar لثوي مغور	Alveolo-palatal غاري لثوي	Palatal غاري	Velar طبقي	Uvular لهوي	Pharyngeal حلقي	Glottal حنجري
Plosive انفجاري	p b		t d	ʈ ɖ			c ɟ	k g	q ɢ		ʔ
Nasal أنفي	m	ɱ	n	ɳ			ɲ	ŋ	ɴ		
Lateral Fricative جانبي احتكاكي			ɬ ɮ								
Lateral Non-Fricative جانبي غير احتكاكي			l	ɭ			ʎ				
Rolled مكرر			r						ʀ		
Flapped لمسي			ɾ	ɽ					ʀ̆		
Fricative احتكاكي	ɸ β	f v	θ ð s z ɹ	ʂ ʐ	ʃ ʒ	ɕ ʑ	ç ʝ	x ɣ	χ ʁ	ħ ʕ	h ɦ
Semi-vowels أنصاف الحركات	w ɥ	ʋ	ɹ				j (ɥ)	(w)	ʁ		
Vowels علل							Front أمامي	Central وسطي / Back خلفي			
Close ضيق	(y ʉ u)						i y	ɨ ʉ / ɯ u			
Half-close نصف ضيق	(ø o)						e ø	ɘ / ɤ o			
Half open نصف واسع	(œ ɔ)						ɛ œ æ	ɜ / ʌ ɔ			
Open واسع	(ɒ)						a	ɐ / ɑ ɒ			

الملحق رقـــم ٢

من هو عالم اللغة ؟ (١)

عالم اللغة أو اللغوي هو المتخصص في علم اللغة ، وهي الدراسة العلمية المنظمة لتراكيب اللغات ووظائفها . وعالم اللغة بهذا المعنى الفني يجب أن يميز عن عالم اللغة بالمعنى الدارج . وهو من يجيد عدة لغات . وقد أعطى Webster المعنيين في معجمه New International Dictionary وعالم اللغة لا بد أن يكون مؤهلا عن طريق الخبرة والتدريب للقيام بعمليات مثل :

١ — إعداد وصف شامل للأصوات والصيغ والمفردات لأي لغــة (بما في ذلك اللغات غير المكتوبة ، والتي لم يسبق وصفها) . .

٢ — دراسة مقارنة للغتين أو أكثر بقصد الوصول إلى ما بينها من علائق .

---

(١) منقول من Linguistic Reporter الذي يصدره مركز الدراسات اللغوية التطبيقية — جمعية اللغات الحديثة الأمريكية — واشنطون — إبريل ١٩٦٣ .
وكان هذا التقرير قد أعد في مارس ١٩٦٢ بإشراف مركز الدراسات اللغوية التطبيقية ، بطلب من عدة هيئات حكومية تحتاج أحيانا إلى تعيين موظفين لغويين . وعلى الرغم من أن التقرير لم تصادق عليه أي منظمة متخصصة في الحقل اللغوي فقد أعيد نشره في مجلة Language ، وهي مجلة الجمعية الأمريكية اللغوية ، في المجلد ٣٨ رقم ٤ ، أكتوبر - ديسمبر ١٩٦٢ ، صفحات ٤٦٣ - ٤٦٤ .

٣ — معرفة طبيعة التنوعات اللهجية ، وحدود كل داخل اللغة الواحدة .

٤ — دراسة تاريخ الأصوات والصيغ والمفردات لأي لغة .

٥ — تطوير المنهج العام لعلم اللغة .

وبالإضافة إلى نشاطات كهذه ، فإن عالم اللغة المؤهل لابد أن يكون قادرا على أن يستفيد بمباحث علم اللغة في حل المشكلات اللغوية العملية ، عن طريق القيام بعمليات كالآتية — مع الاستعانة غالبا بخبراء في علوم أخرى:

أ — القيام بتحليلات متقابلة للغتين لبيان أوجه التشابه والاختلاف بينهما بقصد الوصول إلى مادة تعليمية هدفها تيسير تعليم إحدى اللغتين لمن يتكلمون باللغة الأخرى .

ب — إعداد كتب تعليمية لتدريس اللغة ، قائمة على أساس من التحليل اللغوي .

جـ — إعداد اختبارات للمتخصصين في دراسة اللغة ، أو للكشف عن مدى اللياقة لأنواع معينين من متعلمي اللغة .

د — تحليل النظام الكتابي للغة بقصد كشف مدى التطابق بينه وبين نطق الكلمة ، أو قواعد اللغة . وكذلك القدرة على تركيب نظام كتابي للغات غير المكتوبة .

هـ — إعداد المادة الخاصة بمحو الأمية في لغة معينة .

و — تحليل اللغة ، وإعداد البرامج للترجمة الآلية من لغة إلى أخرى .

ز — استخلاص السياسة الرسمية والتعليمية نحو اللغة ، وتقييم هذه السياسة .

وفي الأعوام الأخيرة زادت أعباء عالم اللغة الذي أصبح يدخل في اختصاصه موضوعات ترتبط بعلوم أخرى مثل الأنثروبولوجيا (التي ارتبط بها علم اللغة منذ مدة طويلة) ، وعلم النفس ، والرياضة ، والمنطق ، وعيوب النطق ، وعلم الاجتماع .

وقد ظهرت علوم لغوية مركبة مثل علم اللغة النفسي Psycholinguistics وعلم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics ، وعلم اللغة الرياضي Mathematical Linguistics . وأصبحت هذه العلوم محل تقدير واعتراف . كما أصبح هناك خبراء متخصصون — قلة ولكنهم يزيدون — في كل منها .

ثقافة عالم اللغة :

إن اللغوي الامريكي عادة ما يبدأ تخصصه كطالب نظامي يدرس مناهج معينة في قسم الدراسات العليا بأحد المراكز الكبرى الجامعية للدراسات اللغوية التي تزيد على العشر . وطريقة الحصول على الدكتوراه في علم اللغة تختلف — إلى حد ما — من جامعة إلى جامعة ، وإن كانت كل الجامعات تتطلب دراسة تمهيدية لعلم اللغة ، والقيام بأبحاث صوتية وفونيمية ، ودراسات تاريخية ، ثم دراسة لغة معينة . ومعظم هذه الجامعات يتطلب دراسة في الصرف والنحو والمناهج ، ومقارنات تتعلق باللغات الهندية الأوربية ، ولغة على الأقل — من غير العائلة الهندية الأوربية . ورسالة الدكتوراه عادة ما تكون دراسة تحقق المطالب من رقم ١ إلى رقم ٤ السابق ذكرها . وهناك نوع آخر شائع من الرسائل ، هو ذلك الذي يقوم بدراسة نحوية وصفية للغة هندية أمريكيــة مع تقديم النصوص والمفردات .

والأغلبية العظمى لعلماء اللغة الأمريكيين — بالإضافة إلى حضــورهم برنامجاً للدراسة العليا في إحدى الجامعات الكبرى — لا بد أن يحضروا فترة دراسية أو أكثر في المعهد اللغوي Linguistic Institute ، الذي تتبناه كل صيف الجمعية اللغوية في أمريكا Linguistic Society of America ، أكبر المنظمات المتخصصة في هــذا الحقل . وهــذا المعهد الصيفي — الــذي أخذ يعقد منذ عام ١٩٤٨ في جامعة أو أخرى — تتجمع فيه أعداد كبيرة من

المشتغلين بالحقل اللغوي من كل أنحاء أمريكا ، وعادة ما يحضره علماء بارزون من خارجها كذلك . وبعض اللغويين الأمريكيين قد تلقوا معظم تمرينهم خارج معاهد العلم المنتظمة مثل المنظمات التبشيريه ، أوعن طريق برامج لغوية خاصة ، أوحتى عن طريق دراستهم الذاتية . ولكن هذا النوع من الدراسة بدأ يقل .

مجالات علم اللغة :

يوجد عدد قليل — ولكن مهم وذو نفوذ — من اللغويين يعملون أساتذة في أقسام علم اللغة في الجامعات . ويوجد عدد أكبر منهم يدرس في أقسام أخرى مثل اللغات الحديثة ، والأنثروبولوجيا ، وأحيانا في أقسام علم النفس أو الكلام (Speech) .

وفي الأعوام الأخيرة زاد عدد علماء اللغة الذين يعملون في مراكز التعليم الخاصة باللغات الآسيوية والإفريقية ، إما كأعضاء في هيئة التدريس ، أوفي معامل البحث ، بالإضافة إلى اشتغالهم بإعداد كتب مدرسية ومعاجم . وهناك أعمال قليلة تمت — بتأييد حكومي عادة — بالنسبة لمشاريع للبحث ترتبط بهندسة الاتصال .

وعدد من الوكالات الحكومية مثل « معهد الخدمة الخارجية » The Foreign Service Institute ، التابع لإدارة الدولة The Department of State يستعين بعلماء اللغة ليشرفوا على برامج تدريب اللغة . ووكالات أخرى تتبع إدارة الداخلية The Department of Interior تستعين بعلماء اللغة ليقوموا بدراسات في اللغات الهندية الأمريكية ، أو ليعلّموا في ميادين متخصصة ، كتلك التي تتعلق بأسماء الأماكن ، بغرض رسم خرائط ، أو لأغراض أخرى .

وعلماء اللغة يعملون كذلك في مراكز الترجمة الآلية ، في أماكن متعددة في أمريكا ، وبخاصة في برامج جامعية بإشراف الحكومة ، وفي مؤسسات خاصة .

ومجموعة كبيرة من علماء اللغة الأمريكيين يشتغلون إما بتعليم الإنجليزية كلغة أجنبية في أمريكا ، أو في الخارج ، أو في إعداد كتب مدرسية لتعليم اللغة الإنجليزية ، أوفي رسم الخطط لتعليم اللغة الإنجليزية . وبعضهم شغلوا مراكز في وكالة المعلومات الأمريكية U.S. Information Agency ، أو في وكالات حكومية أخرى ، وآخرون يعملون في حكومات أجنبية ، أو جامعات أمريكية ، أو منظمات أخرى خاصة .

وعدد آخر لا بأس به من اللغويين يعملون مع المنظمات التبشيرية المرتبطة بالأعمال اللغوية ، مثل ترجمة الكتاب المقدس ، أو يشتركون في مشروعات محو الأمية ، أو وضع أبجديات للغات غير المكتوبة .

الملحق رقم ٣

اقتراحات قليلة

علم اللغة الوصفي :

تنحصر وظيفة علم اللغة التاريخي في أن يتتبع تطور اللغة واللغات من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى ، ويصف المراحل المتداخلة والعمليات المرتبطة بها ، وأن يكشف — إذا كان ممكنا — عن المراحل غير المعروفة التي مرت بها اللغة أو اللغات . ومن الواضح أنه لاتوجد أي علاقة بين هذا وبين إجراءات تعلم لغة متكاملة حديثة . إننا يمكننا أن نتوصل إلى قدر كبير من المعلومات التاريخية والفلولوجية عن كيفية سير اللغة حتى وصلت إلى صورتها الحاضرة ، وما نزال — في نفس الوقت — عاجزين عن أن نتكلمها أو نفهمها .
وأقصى ما يمكن أن تقدمه لنا الدراسة التاريخية مجرد المساعدة في التعرف على المادة المكتوبة للغة المدروسة .

أما وظيفة عالم اللغة الجغرافي فهي أن يقدم لغات العالم في صورة مرئية كاملة ، وفي إطار من قيمتها الاقتصادية والسياسية الحاضرة ، وأن يصف أهميتها النسبية وفوائدها في المجالات المختلفة . ومرة أخرى نجد علم اللغة الجغرافي لا يقدم لنا سوى مساعدة ضئيلة في جانب تعلم نطق اللغة نفسها أو فهمها . فيما عدا المعلومات اللغوية الجغرافية المذيلة بنماذج وأمثلة عملية .

أما وظيفة علم اللغة الوصفي فهي أساساً وضع الأسس والمعايير التي تقبل التطبيق على مادة اللغة كلها . وكذلك وصف اللغات كل على حدة بدقة .

ومن الممكن أن نستخلص من هذه الدراسات الوصفية أسساً مفيدة ، ومناهج تساعد في تعليم اللغة وتعلمها إذا أريد توجيه الأعمال الوصفية للنفع بدقة وذكاء . ولكن مهمة عالم اللغة تنتهي بمجرد أن يقدم لنا بكل دقة أعماله الوصفية . وفيما وراء ذلك ، فإما أن يحول عالم اللغة الوصفي نفسه إلى معلم لغة (وهو غالباً غير مؤهل لذلك) ، أو أن يترك الميدان لمعلم اللغة المؤهل .

وإن مؤهلات معلم اللغة لمتعددة ومتنوعة . فلا بد أولا أن يكون على علم باللغة التي يدرّسها ، ويمكنه أن يتكلمها ويفهمها كلغته الوطنية ، أو أقل قليلا . كذلك يجب أن يكون على قدر من المعرفة بلغة المتعلمين تمكنه من أن يقارن اللغتين لنفسه إن لم يكن لتلامذته ، وأن يصل إلى أوجه الخلاف الأساسية بينهما ومناطق الصعوبة فيهما. وهو إلى جانب هذا لا بد أن يكون ذا أذن مدربة سريعة وصبر لاينفد أثناء الشرح ، وقدرة على وضع التمارين والتدريبات الكثيرة .

وكل هذا يعني أن عالم اللغة — تاريخياً كان أو وصفياً أو جغرافياً — ليس بطبيعته ذا موهبة لتعليم اللغات المتكلمة ، وإن كان يوجد بينهم من يحمل هذه الموهبة . إن معلم اللغة ليس في حاجة إلى أن يكون عالم لغة بأي معنى من المعاني الثلاثة ، وعالم اللغة ليس في حاجة كذلك إلى أن يكون معلم لغة .

ولكن معلم اللغة لا بد أن يكون مؤهلاً لتلقي إرشادات عالم اللغة، وراغباً في تطبيقها على تدريس اللغة . ومهما كانت المعلومات التي يقدمها له عالم اللغة فهي مفيدة في وظيفته . ومن عالم اللغة التاريخي يتحصل معلم اللغة على معلومات ودراسات تتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ الأدب والثقافة للمنطقة التي يدرس لغتها وبنظامها الكتابي . وعالم اللغة الجغرافي يمكن أن يدله على جوانب الأهمية في لغته ، وسبب هذه الأهمية ، وما أقسامها وصلاتها ، وما الأسباب التي تدعو إلى دراستها . وعالم اللغة الوصفي يمكن أن يقدم له معلومات ذات قيمة عظمى

تمس واقع اللغة المتكلمة مساساً مباشراً ، سواء في وضعها المستقل ، أو مع مقارنتها بلغة المتعلمين .

وهذا لا يمكن عمله إلا في حالة ما إذا قدمت المعلومات بصورة واضحة ، وبلغة ظاهرة يمكن أن يفهمها معلم اللغة بسهولة . وأي إستعمال للمصطلحات الفنية الخاصة سوف يفوت هذا الغرض . وهذه المعلومات لا بد أن تكون متعلقة بالأمور الهامة لا التافهة ، فلا تحوي إلا النقاط الرئيسية الخاصة بالتركيب الصرفي والفونيمي للغة موضوع الدراسة ، ونقاط الخلاف الأساسية مع لغة المتعلمين. ومن ناحية أخرى فإن النقاط ذات الأهمية الخاصة لا يصح أن تغفل وهي كثيراً ما تغفل نتيجة الرغبة في جعل اللغتين قابلتين للصب في قالب نحوي عالمي مثالي ، أو للرغبة في وضعهما على نفس المستوى اللغوي الجغرافي نتيجة لفهم خاطئ لمعنى المثلية أو التعادلية equalitarianism . وفي حالة اللغة المنقسمة اجتماعياً أو ثقافياً فإن المعلومات التي يجب أن يقدمها عالم اللغة الجغرافي هي تلك المتعلقة باللغة المشتركة التي يتكلمها المتعلمون من الناس ، لأن هذا المستوى من اللغة هو في العادة موضوع تدريس معلمي اللغة ، وموضوع دراسة التلاميذ ، فيما عدا حالات خاصة .

وأهم من كل هذا أن يكون التحليل دقيقاً ، وليس مؤسساً على ملاحظات عابرة أو تعميمات سريعة . إن اللغات ظواهر معقدة جداً ، وهي بعيدة كل البعد عن أن تملك التقنين المبالغ في تيسيره ، كما يحاول بعض اللغويين الوصفيين أحياناً . وليس كافياً بأي حال من الأحوال أن تجمع أفراداً قليلين من أبناء اللغة الذين يتشابهون في لهجتهم لكي تصل في النهاية إلى وضع نحو وصفي للغة كبيرة ذات حضارة معاصرة . وإذا نحن فعلنا ذلك فإننا سنصل في النهاية إلى نحو وصفي لبعض اللهجات الفردية أو اللهجات العامة ، ولكننا لن نصل لشيء يرضي حاجة معلم اللغة .

وإذا توافرت الظروف الملائمة يمكن أن يتحقق تعاون مثالي بين عالم اللغة

ومعلم اللغة،ولكن إذا سمح اللغوي لدراسته أن تعكس آراء نظرية قد يمكن أو لا يمكن تبريرها في واقع اللغة العام، وفي معناها الواسع ، وفي فلسفة بنائها ولم تكن تقبل التطبيق إلا جزئياً على مواقف معينة ، أو نوع من المادة اللغوية في متناول اليد — فإن ذلك يسبب اضطراباً ومتاعب جمة .

وهناك نقد حقيقي يوجه إلى الدراسة الوصفية للغة ، وهو خاص بكثرة مصطلحاتها وتعددها بشكل ملحوظ . وهناك تفسير لهذا — ولكنه لا يعد تبريراً — يتمثل في محاولة علماء اللغة الشبان المتحمسين أن يسدوا حاجات هذا العلم الوليد على وجه السرعة . ومجاراة كل هذه المصطلحات الجديدة التي يستعملها علماء اللغة الوصفيون ، والتي قد تصل إلى بضع مصطلحات للظاهرة الواحدة تحتم السعي لوضع — ليس فقط قائمة بالمصطلحات أو معجماً لغوياً — ولكن دائرة معارف كاملة . وقد بذلت محاولات سابقة لتأليف معاجم لمصطلحات علم اللغة مثل معجم Marouzeau ، أو المعجم الذي وضعه مؤلف هذا الكتاب ولكن هذه المعاجم أصبحت — بسرعة فائقة — متخلفة في أقل من عشر سنوات. وليس هذا بسبب تغيير في الفرع التاريخي أو الجغرافي ، ولكن بسبب تغيير في الفرع الوصفي وحده . وهناك محاولة أخرى تمت أخيراً ، ليس بقصد تعريف المصطلحات ، ولكن — ببساطة — بقصد اقتباسها في سياقها الذي استعملها فيه الكاتب الذي وضعها . ولكن حتى هذه المحاولة ما تزال في حاجة إلى متابعة دائمة حتى اللحظة الحاضرة ، بالإضافة إلى أنه يعيبها عدم غنائها من الناحية التعريفية . وهناك نداء ملح يستصرخ علماء اللغة الوصفيين أن يتفقوا على مصطلحات لعلمهم تتسم بالثبات والعمومية ، لكي يصبح تناول المادة أمراً سهلا، وبخاصة للدارسين المبتدئين . ومما هو جدير بالذكر أن مؤلف هذا الكتاب قد لاحظ وجود خلاف في المصطلحات يصل إلى حد ٧٥٪ بين عملين مكتوبين على يدي عالمين لغويين وصفيين مشهورين ، كثيراً ما كانا يتقابلان وجهاً لوجه وعلى الرغم من تناولهما نفس الظواهر والعمليات اللغوية .

وكثيراً مايكتنف الغموض كتابات اللغويين في هذا الميدان . وهذا يرجع جزئياً إلى الكثرة الكثيرة من المصطلحات العلمية ، وجزئياً إلى الطبيعة الثقيلة التي يتميز بها الفكر العلمي الأكاديمي . وإن الشعار « لا تعرّف في كلمات ثلاث بسيطة ، وفي عبارة قصيرة ، ما يمكن أن تعرفه في عشر كلمات طويلة غير عادية » — يبدو هو المتحكم في بعض المؤلفين . وفي هذا الخصوص فإن عالم اللغة الوصفي لا يعد وحده مذنباً في المجال التطبيقي ، بل يشاركه علماء آخرون في حقول كثيرة ، مثل علم النفس ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع ، والتربية ، والإدارة . وما دام هذا الطابع أمراً فردياً فإنه من الصعب مواجهته أو معالجته بدواء عام شامل .

وهناك اتجاه ظهر لبعض الوقت في علم اللغة الوصفي ، وهو الميل نحو الإبهام والغموض . وإن النزول بعلم اللغة الوصفي إلى مستوى القضايا والنظريات الرياضية الذي بدأه Hjelmslev فيما سمي بالتحليل شبه الرياضي للغة glossematics [1] لا يحقق أي منفعة لا لعلم اللغة ولا للرياضة . إن موضوع علم اللغة هو اللغة ، وإذا عجز علم اللغة عن أن يجعل نفسه واضحاً ومفيداً في أبحاثه وموضوعاته التي يتناولها من غير الاستعانة بعلم لا توجد بينهما علاقة واضحة — فقد فشل في أداء مهمته . ومثل هذا يقال عن المبالغة في استعمال أبحاث الفلسفة أو علم النفس أو ما وراء علم اللغة ، المبنية على مجرد مزاعم غير ثابتة. إن علم اللغة يجب أن يكون واقعياً ، لا باحثاً فيما وراء الطبيعة .

وهناك اتجاه لغوي آخر نحو معالجة الجزئيات الدقيقة ، ووصف نقاط ذات

---

(١) شرح المؤلف هذا المصطلح في معجمه Glossary of Linguistic Terminology بأنه تحليل شبه رياضي للغة مؤسس على التوزيع والعلاقات المتبادلة بين الجلوسيمات glossemes . وذكر أن هذا المصطلح قد وضعه Hjelmslev ومدرسة كوبنهاجن . ثم شرح المصطلح glosseme بقوله : إنه « أصغر وحدة ذات معنى » ، أو أنه « أصغر وحدة يمكن أن يصل إليها التحليل « اللغوي » ، أو « الوحدة التي لا تقبل التقسيم » أو « كل ما يحمل معنى » (ص ١٠٦) . (المترجم) .

أهمية ضئيلة ، أو منفعة قليلة ، في تفصيلات واسعة . وبينما هو ممكن – على وجه العموم – أن تضع نظاماً عاماً للتنغيم ودرجة الصوت والمفصل في لغة معينة فإنه ليس من الممكن أن تعالجها في بساطة بالغة ، وبشكل يسمح بالقول بأنه: « بو-ند ني الإنجليزية الأمريكية أربع درجات للصوت، وهي تستعمل بشكل كذا وكذا » ، لأنه توجد خلافات كثيرة بين المتكلمين الأفراد . وإن التفرقة بين housekeeper light و lighthouse keepr ربما يثير الدهشة ، ولكنه في نفس الوقت لا يقدم إلا معلومات ضئيلة صادقة . فاللغة تعتمد إلى حد كبير على السياق لتحقيق التفاهم ، وهي تتضرر كثيراً بذكر التفصيلات والخصائص الدقيقة التي نادراً ما يلاحظها السامع .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن هنالك نفورا من تطبيق بعض الحقائق التي توصل إليها علماء اللغة الوصفيون والمقارنون على المشاكل العملية كتعليم اللغة . وإليكم أمثلة قليلة لذلك :

١ – الأهمية الزائدة عن الحد التي أعطيت للتقسيم المقطعي ((تقطيع الكلمة إلى أجزائها المقطعية ، كجزء مما يسميه اللغويون الوصفيون المفصل Juncture) في معظم اللغات الغربية غير الإنجليزية . وإنه مما لا يمكن تأكيده بدرجة كافية أن أسرع طريق وأفعله لاكتساب طريقة نطق ابن اللغة في أي لغة مثل الإيطالية أو الأسبانية أو الفرنسية أو حتى الألمانية أو الروسية هو أن تقطع الكلمة إلى مقاطعها الحقيقية تبعاً للنماذج المقطعية للغة (وهذا لا يتطابق دائما مع قواعد اللغة المكتوبة لتقسيم الكلمات حينما تقع فيأواخر الأسطر)، وأن تنطق كل مقطع على حدة،وبطريقة متميزة، ثم بعد ذلك وضع المقاطع بعضها بجانب بعض ونطقها بنفس السرعة التي تنطق بها في الكلام العادي .

٢ – التماثل أو التقارب بمحض الصدفة ، أو حتى التطابق الكامل لمخرج الصوت Point of articulation – وربما مع تعديلات بسيطة –

بين فونيمات تمثلها لغتان مختلفتان برموز كتابية مختلفة مثل الأصوات الإنجليزية الانفجارية اللثوية ، ومثل الراء المكررة في الإيطالية والأسبانية (تتلقى أذن الإيطالي الجملة الإنجليزية get out of her على أنها gherare hir) . ويوجد غالبا تماثل في الصفة والمخرج بين الحركة الإنجليزية القصيرة i التي في it ،و git — مع إطالة خفيفة — وبين الصوت الروماني الضيق «e» الموجود في الكلمة الإيطالية vedere ، أو الأسبانية ver .

٣ — ما هو ثابت من أن لغة ما غالبا ما تنتج — استثناء أو مصادفة أو تحت ظروف طارئة — ما يعد فونيما أصليا أو عنقودا فونيميا phoneme cluster مقررا في لغة أخرى . اللغة الإنجليزية ليس عندها تقابل فونيمي بين الصوت الساكن المفرد والمضعف مثل الذي يظهر في الإيطالية واليابانية والمجرية ولغات أخرى . ولكن حينما ينطق المتكلم الإنجليزية كلمة wonderful كما لو كانت wunnerful : أو يصيح مفتش القطار في صوت جهوري Allab-board يوجد الساكن المضعف بدون المفصل الموجود في مثل unnamed . والإنجليزية لا تسمح بوجود العنقود الصوتي الأولي mch- (الروسية mchat') ، ولكن كلمتين إنجليزيتين مثل : cream cheese مع حذف crea سوف يمكن المتعلم من التدريب الكافي الذي يحتاجه .

وان عدم وضوح الرؤية، بالإضافة إلى روح الديمقراطية الزائفة لبيدوان المسئولين عن اعتقاد بعض علماء اللغة الوصفيين أن كل اللغات تعد على قدم المساواة . ولربما كان ذلك صحيحاً من الناحية التجريدية . ولكن عالم اللغة الجغرافي الذي يتناول الحقائق لا التجريدات يعلم أنه لا احتمال في المستقبل المرئي لوضع لغة Menomini أو Ojibwa مثلا على قدم المساواة مع الإنجليزية أو الروسية ، فيما عدا في جانب واحد هو الناحية الوصفية . أما من

الناحية التاريخية أو الجغرافية فلا وجه للمقارنة مطلقا .

ويوجه نفس النقد إلى الاعتقاد الخاطىء أن أي طراز داخل اللغة يعد حسنا كأي طرازآخر ، مع ما يستتبعه ذلك من النصيحة القائلة « اترك لغتك وشأنها » ودع المقادير تجري في أعنتها . وقد ظهر ذلك بشكل واضح في الجدل الملتهب الذي ثار بعد ظهور Webster's Third International Dictionary الذي وضع طبقا للأسس الوصفية التي تغفل وجود فروق بين الاستعمال الجيد والصيغة النموذجية والصيغة الرديئة والعامية وحتى المبتذلة .

إن الطبقية موجودة بين أشكال اللغة تماما كما هي موجودة بين اللغات . إن بعض اللغات تطاوعك أكثر من الأخرى ، وتخدمك بصورة أفضل كوسيلة للاتصال الذي يعد أهم وظائف اللغة . ومع ذلك فلندرس بكل وسيلة ممكنة لهجات سكان الجبال ، أوقطاع الطريق ، سواء من وجهة النظر الوصفية الخالصة ، أو لتحقيق أغراض خاصة . ولكن دعنا لا نعرض لدعوى أن كل أشكال اللغة من جميع النواحي تعادل اللغة المشتركة التي يتحدث بها كل المواطنين ، مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة .

وينبع من نفس الخطأ الأيديولوجي ما يقال عن « المتكلم الوطني » ، والاعتقاد بأنه لا يخطىء ، وأن الصواب والخطأ أحكام تطلق على اللغة حين يستعملها الأجانب . ومن جهات كثيرة جدا — بعضها ذوقي ذاتي محض ، وبعضها قائم على أساس من تيسير الاتصال — توجد حالات وحالات كثيرة تكون لهجة الأجنبي المثقف فيها أفضل من لهجة الوطني الأمي السمجة . وإن الأمريكيين الذين لايجدون صعوبة في فهم Charles Boyer سوف يجدون صعوبة في فهم بعض المواطنين في مناطق أمريكية معينة . ولا يعني هذا أننا لا ينبغي أن نجاهد في تعلم وتعليم اللغة بطريقة نطق تقرب من النطق الوطني ما أمكن . ولكنه يعني ببساطة أن المرة الوحيدة التي يعتبر فيها نطق المتكلم الوطني الخالص نطقاً بدائياً إنما ترتبط بأعمال المراقبة والتجسس .

وبعض اللغويين الوصفيين يجدون صعبا على أنفسهم أن يخفوا نفاد صبرهم بالنسبة للصورة المكتوبة للغة . بل إن منهم أكثر من هذا من يزعمون أنه لا توجد لغة مكتوبة ؛ وإنما يوجد تقابل بين الكلام — الذي يعد اللغة الحقيقية — وبين الكتابة . وإلى جانب الحقيقة أن اللغة المكتوبة تعد — عادة — جليلة الشأن بالنسبة لعالم اللغة التاريخي في دراسته الفلولوجية ، فإن عالم اللغة الجغرافي يمكن كذلك أن يشير إلى الدور الكبير الذي لعبته اللغة المكتوبة في كل اللغات الحضارية ، وإلى أن الحكومات في جميع أنحاء العالم قد وجدت أمرا ضروريا أن تحاول القضاء على الأمية بين أبنائها . وإذا كانت الكتابة ينظر اليها على أنها فقط رمز الكلام، فيجب ألا ننسى أن الكلام في ذاته يعد فقط رمزا للفكر، من غير النظر إلى مرتبته العليا أو السفلى . وان انتقال الدلالة — التي هي الهدف الأساسي للغة — يمكن أن يتأثر بالكتابة تماما كما يتأثر بالكلام ، كما هو ثابت من النظم الكتابية التي تعبر عن الفكرة بالصورة المكتوبة مباشرة متخطية اللغة المكتوبة .

والمعاناة التي لايمكن إخفاؤها بسهولة، التي يشكو منها كثير من علماء اللغة الوصفيين ضد زملائهم التاريخيين — الذين يعد عملهم متعلقا بتواريخ أقدم منهم — وضد زملائهم الجغرافيين الذين يتناولون أمورا أكثر تعلقا بالتطبيقات العملية لعلم اللغة في الحاضر والمستقبل لتعد أمورا ذاتيه ، ومن المؤمل أن تختفي بمرور الوقت بناء على ما هو باد من إمكانية وجود توازن بين فروع علم اللغة الثلاثة في المستقبل القريب . وإن بعض علماء اللغة الوصفيين — في الواقع — ما يزالون في حاجة إلى أن نذكرهم أن اللغات كانت تتكلم وتتعلم وتدرس وتناقش مدة طويلة قبل وجود Boas و. Bloomfield وأن هناك مناهج أخرى للدرس اللغوي غير مناهجهم يمكن أن يتوصل إليها . وربما كانت في بعض الأحيان أرجح من مناهجهم . إن العلم ليعد علماً فقط حينما يظل محتفظا بعقليته المتفتحة ، وحينما يسمح بالمناقشة الحرة.وإلا فإنه ينتكس إلى مجرد قضايا أو أحكام تحكمية لا تستند إلى دليل أو برهان .

علم اللغة التاريخي :

لقد أسلم - من سوء الحظ - علم اللغة التاريخي نفسه منذ البداية إلى شطحات الخيال . وقد كان من السمات الواضحة لعلماء اللغة التاريخيين محاولتهم ربط التطور اللغوي بحادثة تاريخية أو أخرى . ، وإعطاؤهم صفة السببية والتأثير لظواهر ربما حدثت تلقائيا ، أو بمحض الصدفة .

والآن فإن الاتجاه المعاكس الذي يحاول فصل التطور اللغوي نهائياً عن حياة الناس متكلمي اللغة يعد هو الآخر اتجاهاً غير مرغوب فيه ، إذ لابد في كل الأمثلة من وجود علاقة التأثير أو السببية ، بغض النظر عن نوعية هذا السبب أو المؤثر . وليست المشكلة في محاولة البحث عن الأسباب التي أدت إلى التغير ، اللغوي ، وإنما في محاولة استخلاص الأسباب ، ووضع اليد عليها قبل استيفاء الأمثلة والشواهد . وأسوأ من هذا الآن ذلك الاتجاه البادي من بعض اللغويين التاريخيين والمتمثل في محاولة تصفية الشواهد لتناسب أغراضهم ، مع استبعاد الجزء الذي لا يماشي آراءهم المسبقة . وإعطاء اهتمام زائد لجزء آخر يماشي أحكامهم التي وضعوها قبل بدء البحث .

وإلى هذا الاتجاه المتطرف الذي اتسم به تاريخيو القرن التاسع عشر يرجع قدر كبير من رد الفعل في الاتجاه المقابل الذي تم على يد المدرسة اللغوية الحديثة لعلم اللغة الوصفي التركيبي ، التي تعاون أفرادها في إرساء دعائم البحث الميكانيكي المنهجي الذي اعتمد أساساً على الملاحظة المباشرة . ولكن هذه المناهج أيضاً من الممكن أن يتسرب إليها سوء الفهم ، وخطأ المعالجة ، كما تحدثنا من قبل .

ومنذ اللحظة التي بدأ فيها البحث اللغوي يعتمد — وذلك مستهل القرن التاسع عشر — على المادة المسجلة والنقوش بدأ اللغويون يتجهون نحو الملاحظة ذات الطبيعة الشاملة . واهتم اللغويون كذلك بموضوع تطور اللغات ، وبخاصة

في مجال الأصوات (لم تكن نظرية الفونيم قــد ظهرت بعد) ، ولم يصدروا أحكامهم بطريقة عشوائية ، ولكن تبعاً للنموذج المطرد . ومن أمثلة ذلك نماذج التقابلات الصوتية لفروع المجموعة الهندية الأوروبية التي تعد قطعية ومطردة . وهي تزعم القطعية والاطراد بنفس الدرجة في أي فرع من فروع هذه المجموعة تعرض لنفس الدراسة المقارنة . ويبدو من الحقائق المؤكدة القول بأنه إذا بدأ نوع من الكلمات في اللاتينية أو الإغريقية أو السنسكريتية أو السلافية بحرف P ، فإن المجموعة الجرمانية تتخذ في مقابله حرف f ، والمجمـــوعة الأرمينية حرف h ، وربما أسقطته المجموعة الكلتية إذا وقع في أول الكلمة. ويبدو حقيقة مؤكدة بنفس الدرجة أن يقال إنه إذا احتوت كلمة لاتينية على العنقود الصوتي (— ct —) فإن فرعه الفرنسي أو البرتغالي يحوله إلى (— it —) والأسباني إلى (— ch —) ، والإيطالي إلى (— tt —) ، والروماني إلى (— pt —) . وهناك في الحقيقة بعض الاستثناءات . ولكنها يمكن أن يعلل لها بطريقة أو بأخرى . وقد قاد هذا بعض اللغويين التاريخيين إلى أن يضعوا نظرية « القانون الصوتي » Sound law ، ويصلوا بها إلى حد القول بأنه في منطقة معينة ، وفي فترة معينة ، حين يظهر ابتكار أو تحديد . فإنه يؤثر على كل الكلمات المشتملة على الصوت محل الدراسة بدون استثناء . ومعنى هـــذا أن القوانين الصوتية قد أعطيت صفة الحتمية والإلزام تماماً كما أعطيت نظريات نيوتن من قبل . ولكن عمومية هذه النظريات قد دحضت فيما بعد على يـــد Einstein وآخرين .

وقد خلق هذا الاتجاه العنيد الصلب اتجاهاً لغوياً مضاداً ، ولكن من تبنوه ومضوا في طريقه إلى نهايته كانوا قلة . وكان رأي هذه القلة نفي أي نفوذ أو سلطان للقوانين الصوتية ، وادعاء « تحكم الفرد » باعتبارة العامل الأساسي في التغيير اللغوي . وقد توصل بعضهم في النهاية إلى رأي وسط عن طريق تعديل « القانون الصوتي » ليشمل الاستثناءات المحتملة التي تأتي نتيجة الاقتراض — الخارجي أو اللهجي أو الثقافي . أو من تأثير القياس . أو غير ذلك . بل إنـــه

يجب أن يكون مفهوماً أن القياس ليس كالاقتراض . الاقتراض حقيقـــي ، وقابل للإثبات بوجه عام . أما القياس فبخلاف ذلك إلا في حالات قليلة معينة .

ويمكن – على سبيل الاتساع – أن يعرف القياس بأنه محاكاة لغة لصيغة لغوية في لغة أخرى تخرج بالصيغة الأولى عن مسارها العادي ، وتسقطها من دائرة نفوذ القانون الصوتي الذي كان يمكن في العادة أن تخضع له . أما أن هذا يحدث كثيراً فهو أمر لايحتاج إلى إثبات ، وأما عن كيفية حدوثه أو سببه ، أو تحديد الظروف التي يخضع لها فهذا في الغالب أمر مشكل . وإن التطور الخاضع للقانون الصوتي يحتم في الكلمة اللاتينية Frīgidum مثلا أن تكون في الفرنسية Frid ، وفي الإيطالية Friddo . ولكن ما نجده في الفرنسية بدلاً من ذلك هو Froid ، وفي الإيطالية Freddo ، وهو ماكان يعد من الناحية الفونولوجية أمراً طبيعياً لو أن الكلمة اللاتينية كانت Frĭgidum بحركة قصيرة في المقطع الأول . ولتعليل هذا الشذوذ ، من الممكن أن يقال إن Frīgidum كانت كثيراً ماتقترن في الكلام العادي بكلمة rigidum (بارد ومتيبس وصفا للجثة) وبذا لحقها التغيير لتتوافق معها . وهذا تعليل مقبول في الظاهر ، وإن لم يكن من السهل إثباته . إن العمليات القياسية التي تفترض كأساس للتطـــــورات الفونولوجية الشاذة تتراوح على طول الطريق من المستوى المقبول في الظاهر بل حتى الممكن إثباته ، إلى المستوى المشكوك فيه أو غير المنطقي .

وعلى أي حال فمن الممكن أن يقال إنه بينما يمد القياس المعتقدين في قوة القانون الصوتي بخط دفاعي هائل ، لأنه يمكنهم من إزالة الاستثناءات مـــن طريقهم – فإن له في نفس الوقت عيوبه الخاصة به . إنه ينتهي بوضع قوانين صوتية إضافية أضيق وأضيق في مجال التطبيق حتى إنها في النهاية – في حالات كثيرة – تتطابق مع تحكم الفرد الذي ينادي به اللغويون الأكثر تفكـــراً ، المعارضون للقانون الصوتي . وربما كان أقرب إلى القبول أن تحدد الاتجاهات الصوتية التي تخضع لها معظم صيغ اللغات الموصوفة ، دون أن يدّعى لها قوة

القوانين الصارمة ، مع الأخذ في الاعتبار إمكانية الشذوذ أو الانحراف الناتج عن تعدد الأسباب ، ومن بينها القياس . ودعنا نعترف بأنه في كل تأثير يوجد مؤثر بدون شك ، ولكن دعنا في نفس الوقت نعترف بأنه ليس من السهل دائماً تحديد المؤثر .

وقد قاد الاعتراف الراسخ بالقياس على أنه قوة مؤثرة في التغير اللغوي إلى عدد من الانحرافات في التطبيق . من ذلك مثلا عرض الأقيسة الغامضة ، أو المشكوك فيها كحقيقة ثابتة في الكتب الدراسية وغيرها . ولا يوجد أي خطأ في تقديم الافتراضات ، ولكنها يجب أن تؤخذ بحذر على أنها افتراضات إلى أن يقوم الدليل على صحتها .

وإن طريقة بعضهم في استخلاص نتائج شاملة من شواهد غير كافية تبدو من وقت لآخر في أعمال اللغويين التاريخيين . فهناك مثلا نظرية الطبقات السفلى والطبقات العليا السلالية ، التي تنسب التغيرات التي تحدث أثناء تطور لغة معينة ولتكن اللاتينية إلى الفرنسية ، إما إلى عادات كلتية سابقة في نطق الأصوات ، أو إلى نفوذ متأخر للغزاة الجرمانيين . وإنه وإن كان من السهل جداً إثبات هذا النفوذ فيما يمس المفردات (الفرنسية تحتوي على كلمات كثيرة موروثة أصلا عن الغاليين وغيرهم ، ومقدمة إليها بوجه خاص على أيدي الفرنكيين ، في حين أن الأسبانية تحتوي على كلمات عربية وأيبيرية لاتظهر في لغات رومانسية أخرى) ، فإن الدليل على أن هذا النفوذ يمتد إلى النماذج الصوتية للغة أمـــر مشكوك فيه ، ولذا فهو موضع نزاع . ومع هذا فإننا نجد لغويين ذوي شهرة عالية يوسعون مجال نفوذ الطبقة السفلى ليشمل التطور الفونولوجي ، وينظرون إلى ذلك على أنه حقيقة ثابتة ، ويستخلصون منه عديداً من النتائج البعيدة التصديق ، نتائج ليست ذات طبيعة لغوية فحسب ، بل وحتى طبيعة تاريخية .

ومن الأمور المشكوك فيها كذلك نظرية المناطق الجانبية lateral areas التي تطورت بمرور الوقت على أيدي لغويين مشهورين أمثال Meillet و

Bertoni . وهنا يفترض أن القسم المركزي للمنطقة اللغوية يقوم بدور مصدر الإشعاع للابتكار أو الابتداع ، وأن الأجزاء النائية من المنطقة عادة ما تنجو من هذا النفوذ ، وبالتالي فهي تكشف عن ملامح محافظة مشتركة في مناطق تفصلها مسافات بعيدة . فحيث نجد – على سبيل المثال – اللغتين الكلتية والهندية الإيرانية تتفقان في ملامح مشتركة لا تظهر في المناطق المتداخلة الهندية الأوربية . فإن هذا يعزى إلى النزعة المحافظة للمناطق الجانبية . وحينما نجد اللغتين الـ Hispanic ، والـ Rumanian تظهران ملامح قليلة متماثلة ربما تكون قد حدثت بمحض الصدفة فإننا ننسى الجزء الأعظم من الظواهر الأخرى موضع الاختلاف ، ونصدر مع ذلك حكماً بترابطهما شبه الغامض . وقد أقام اللغويون الرومانيون علاقة بين الإيطالية الجنوبية الوسطى . والرومانية ، ليس على أساس سوى اشتراكهما في إسقاط الحرف اللاتيني النهائي (— S —) ، (ويضاف إلى هذا نطق أصوات صامتة واقعة بين علتين ، ولكن الأدلة على ذلك ضعيفة). أما كل الملامح الأخرى التي ترشح انضمام الإيطالية للغات الرومانسية الغربية ، بينما تبعد الرومانية عن كليهما فإنه يتغافل عنها . وهذه الطريقة تتجاهل أغلبية الشواهد ، وتركز على خاصة أو خصائص تخدم نظرية مسبقة ، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى خلق إحساس بأن علم اللغة التاريخي – على عكس علم اللغة الوصفي – يتصف إلى حد ما بأنه علم مليء بالأوهام .

وهناك مثال آخر لهذه العقلية حديث الوقوع ، وهو الاعتقاد في إمكانية إعادة تركيب التاريخ اللغوي على أسس لغوية تاريخية Glottochronology والاعتقاد في العمليات الإحصائية المعجمية Lexicostatistics التي سبق وصفها بوضوح ،[1] والمبنية على شواهد غير كافية يلتقطها الباحث بسرعة . وشيء آخر يدخل فيما وراء علم اللغة metalinguistics ، وقد غلفه في الظلام عالم ذكي – ولكنه لغوياً غير مؤهل تأهيلا كافياً – وهو B.L. Whorf .

(١) انظر البحث رقم ٣٦ (المترجم) .

ومن أهم ماينادي به أن نمط اللغة المتكلمة يؤثر في عقلية المتكلمين بها ، وفي سلوكهم ، بل ويرغمهم على التفكير والتصرف في اتجاهات معينة . وفي رأينا أن هذا ربما يحدث جزئياً بمجرد أن تستقر اللغة ، ولكن يجب ألا ننسى أن اللغة هي التي تطوّر أساساً لتناسب عقلية المتكلمين ونشاطاتهم ، وليس العكس .

إن علم اللغة التاريخي يمكن أن يكون موضوعاً شائقاً للدراسة ، ويحقق في نفس الوقت مستوى علمياً رفيعاً . وهو يجب - على كل حال - أن يعدل منهجه الأساسي تعديلا ليس بالكبير ، طبقاً لما تقتضيه ضرورة تطبيق هذا المنهج ولتحقيق التواؤم مع القواعد المبنية على الشواهد الكافية . وكل المادة المناسبة يجب أن تجمع وتفحص بدقة وتقدم للدراسة . ولا يصح إهمال أي منها أو إسقاطه ، لأنه يناسب نظرية أخرى للبحث . وحينما تكون الشواهد الموضوعة تحت اليد متعارضة ، أو غير كافية لتكوين حكم قطعي - كما يحدث في كثير من الأحيان - فإنه يجب اللجوء إلى الافتراض الذي تسمح به المادة ، ويظل الفرض محلا للتحقيق والفحص إلى وقت متأخر ، حين تظهر شواهد جديدة يمكن الاعتماد عليها .

علم اللغة الجغرافي :

كثيراً ماترتفع الأصوات بالشكوى من عجزنا عن أن نحشد ونعبىء العدد الذي نحتاج إليه من المتكلمين الأجانب ، وفشلنا في أن نجذبهم إلى حقل عملنا ، ونحولهم إلى وسطنا بطريقة نافعة (حوالي ٢٠ مليوناً منهم) لأغراض محلية ، أو تعليمية لغوية . وفي حين يعد هذا النقد على حق من بعض النواحي ، فإننا يجب أن نأخذ في الاعتبار أنه ليس كل المتكلمين الأجانب (بل ليس معظمهم أو قدر كبير منهم) مؤهلين لمساعدتنا في هذا الميدان ، وتقديم تعليمات كهذه إلينا أو حتى لإعطائنا معلومات قيمة أو دقيقة تتعلق بمنطقتهم الخاصة ولغتهم . وفي حين أن هؤلاء الناس قد يمكن اتخاذهم رواة لغويين في ظروف مناسبة ،

ومع استخدام الفحوص والاختبارات المطلوبة ، فإننا يجب أن نكون حذرين من حشد معلومات خاطئة لغوية أو غيرها تحت اسم تجميع المعلومات .

وهناك نقد هام يتعلق بعلم اللغة الجغرافي ، ويمس جانباً منه ، وهو أن موضوع دراسته ومباحثه تتغير باستمرار ، وتتعرض لأنواع كثيرة من الضغوط والتغييرات . ولكن نفس النقد يمكن أن يوجه أيضاً إلى فروع علم اللغة الأخرى ربما فيما عدا الملامح الأساسية الكبرى في علم اللغة الوصفي . وحتى هـذه الملامح ما تزال تتعرض للتعديلات الكثيرة الدائمة . إن طبيعة اللغة تجعلها في حركة دائمة ، ولذا فدراستها متحركة كذلك لا جامدة . وعلى كل حال فمن الممكن تماماً أن نركز على الجوانب الأكثر موضوعية واتصالاً بالحقائق في علم اللغة الجغرافي ، بالإضافة إلى صقل منهج بحثه ، وإجراءات دراسته ، لإخضاعها لمتطلبات العلم ، وشروطه الأساسية .

وإن المشكلة الحقيقية لعلم اللغة الجغرافي هي أنه لم يلق إلى الآن التأييـد والعناية الكافيين . فحتى الآن تجد اهتمامات علمي اللغة الوصفي والتاريخـي تنصب — إلى حد كبير — على تخصصاتهما لدرجة أنهما يعرضان الجانب اللغوي الجغرافي لعلم اللغة على أنه شيء له علاقة ضئيلة بهما . والحكومات والجهات المعنية التي كان يجب أن تعطيه اهتماماتها المباشرة قد فشلت حتى الآن في إبداء اهتمامها المطلوب .

وقد يحسن أن يعاد القول إنه في خلال الحرب العالمية أنشأ « مكتب المعلومات الحربيـة » (O.W.I.) Office of War Information قسماً خاصاً أسماه « مكتب تحليل الوسائط » كانت وظيفته الرئيسية جمع الحقائق والمعلومات عن اللغات المتكلمة في كل أنحاء العالم ، وفهرستها لأعمال استراتيجية مباشرة . وقد كانت هذه الدراسة مقرونة بإحصاءات عن الأمية ، وبيانات عن قرابات اللغات ، وبالطبع عن تعداد السكان . وحتى من قبل نهاية الحرب كان هذا المكتب قد حل ، وكانت معلوماته المجموعة قد تشتتت . ولم يبـق

هنا وهناك إلا باحث لغوي أو آخر ، كان على صلة بهذا المكتب حفظ أو طبع بعض هذه المادة المجموعة (١) .

أما الأعمال الحرة التي تضع عادة برامج خاطفة في اللغات لأغراض وقتية أو قليلة الأهمية (مثل كيف تقول Have a Cake بلغات متعددة ، أوالتأكد من أن اسم إنتاج جديد لا يرتبط بكلمات أخرى مسيئة أو مثيرة للضحك في أي من الأقطار التي سيباع فيها) فقد أخذت شكلاً جادا فقط حينما أصبحت في حاجة إلى متخصصين في اللغات والمناطق ، تلبية لحاجتها ومتطلباتها الخاصة . (وعلى سبيل المثال فإن Standard Oil قد أعدت برنامجا في العربية والأسبانية والإندونيسية بطريقة مختصرة للفنيين الذين خصصوا للخدمة في مناطق لها فيها آبار بترول) . ولكن معظم هذه النشاطات كان يتسم بطابع الارتجال والتنوع .

إن ما يحتاج إليه في الحقيقة هو معهد لعلم اللغة الجغرافي يحظى بتأييد الجهات الحكومية والحرة على السواء بقصد الإشراف على البحث العلمي وتجميع الحقائق ، وجمع المعلومات التي توضع تحت طلبهما كليهما ، وطلب اللغويين كذلك ، وبقصد تدريب الخبراء في المناطق واللغات — وحتى في علم اللغة الصرف — التي تتعلق بمناطق لا يقع الطلب كثيرا عليها ، وليس لها فائدة تجارية مباشرة ، كما هو الحال بالنسبة للمناطق واللغات التي تدرس في مناهج المدارس الثانوية العادية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وإنه لمن غير المعقول أن نتوقع من شخص موهوب في هذه النواحي أن يتخصص في لغة أو منطقة يوجد في طلبها أمل ضعيف ، أو مشكوك فيه ، في حين أنه يعلم أنه لو تخصص في الفرنسية أو الأسبانية أو الألمانية مثلا فهو

(١) أنظر Duncan MacDougald, Jr. في كتابه المطبوع في فلادلفيا عام ١٩٤٤ بعنوان :
The Language and Press of Africa

يستطيع على أسوأ الفروض أن يحصل على وظيفة مدرس في أي مدرسة ثانوية محلية .

وإن معهد علم اللغة الجغرافي يجب أن يكون معداً ماليا ، ليس فقط لتدريب اختصاصيين على لغات ومناطق يقل الطلب عليها ، ولكن أيضا ليجد لهم عملا مجزياً حين ينتهون من دراستهم ، أو حتى الاحتفاظ بمرتباتهم على قدم المساواة مع مرتبات الباحثين ، إذا لم يكن هنالك عمل فوري يمكن إلحاقهم به .

وحتى الآن فإن القوات المسلحة . ومكتب الخدمات الخارجية فقط هما اللذان حققا بعض القرب للمعهد اللغوي الجغرافي الذي نتصوره في مخيلتنا . ولكن برنامج القوات المسلحة يقوم على التخصص في لغة واحدة . ولا يعطي ضمانات بالتوظيف في أعمال فيما عدا ما يتعلق باحتياجات القوات المسلحة ، وهي احتياجات بطبيعتها متغيرة ومتقلبة ولا يمكن الاعتماد عليها .

ونتيجة لهذا ظهرت برامج خاطفة متتابعة . تعد قليلة القيمة بالنسبة للمنظمات ذات الأعمال الحرة ، وكبيرة القيمة بالنسبة للحكومة . وبذلت جهود سريعة لمواجهة الاحتياجات التي تثور من وقت لآخر ، دون اتباع خطة بعيدة المدى أو رسم مخطط لعدة سنوات مقدماً كما يجب أن يكون .

والآن تبدو الحاجة ملحة إلى أعداد كبيرة من علماء اللغة الجغرافيين ، يعمل بعضهم كخبراء عالميين فيما يخص الصورة العامة للغات العالم ، ويعمل بعض آخر كاختصاصيين في الإحصاءات والأرقام الخاصة باللغة ، وبعض ثالث للتخصص في بعض المناطق واللغات . ومثل هذه التخصصات لا يمكن أن ترتجل ارتجالا ، وإنما هي تتطلب إعدادا طويلا مجهدا ، وتدريباً شاقا ، بل إنها تحتاج إلى تأييد وعون للمتخصصين بعد إنهائهم تدريبهم من أي شخص يمكن أن يستفيد من مجهوداتهم .

وإن إحدى ثمرات معهد علم اللــغة الجغرافي ســوف تتضح في جمع المعلومات التي لا شك ستكون محل ثقة الجميع ، وتحت طلبهم ، مع تعداد أو إحصاء لغوي شبيه بذلك الإحصاء الذي تم أثناء الحرب في مجال محدود وبصورة ناقصة على يد مكتب تحليل الوسائط التابع لمكتب المعلومات الحربية .

قائمـــــــة ..

بمصطلحات الكتاب

augmentatives	صيغ الزيادة ١٥٤
auxiliary language	لغة مساعدة (او بديلة) ١٩١
auxiliary language	لغة مساعدة (او صناعية او دولية او مركبة او عالمية) ١٩٣
back - formation	اقتطاع عجزى ١٥٥
back vowel	علة خلفية ٧٩
base from	صيغة اساسية (بالنسبة للألومورفات) ١٠٧ ، ١٢٧
basic language	لغة اساسية ١٩٣
bilingualism	ثنائية اللغة ٦٤ ، ١٩٢
blending	مزج (او تداخل) — (وانظر contamination) ١٥٧
borrowing	اقتراض ١٥٦ ، ٢٣٤
bound morpheme	مورفيم متصل ٥٤ ، ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٥٤
bow - waw	نظرية تفسر نشأة اللغة ٣٨
canonical form	نموذج مقبول ٩٦
central vowel	علة وسطى (او مركزية) — (وانظر middle vowel) ٧٩
centrifugal	اتجاه طرد يمركزى ٧١
centripetal	اتجاه جذبيمركزى ٧١
centum	مجموعة اللغات الهندية الأوربية التى لم تتحول اصواتها الوقفية الطبقية الى غارية او لثوية ١٦٩ ، ١٧٣
checked position	موضع مقيد (بالنسبة للعلة) ٩٧
class language	لغة طبقة ٦٤ ، ٧٠ ، ١٩٥
close juncture	مفصل ضيق ٩٥
close vowel	علة ضيقة ٧٩
closed syllable	مقطع مقفول ٩٦
cognates	كلمات ذات اصل واحد ١٥٨
coinage	وضع ١٥٥
colloqual language	لغة دارجة (عامية) ٧٠
colloqualism	عامية ١٣٨
calonial language	لغة استعمارية (لغة الاستعمار) ٦٤ ، ١٨٧
colonizing language	لغة الاستعمار ١٨٧
common ancestor	اصل مشترك ١٦٩
comparative linguistics	علم اللغة المقارن ٣٦ ، ٥٨ ، ٥٩
comparative philology	فقه اللغة المقارن ٢٣٣
complemeutary distribution	توزيع تكاملى ٤٩ ، ٥٢ ، ٩٠
component	كلمة فى تركيب اكبر (وانظر constituent) ١٠٩

diphthongization diphthongize	راجــع diphthong
dispersion	تبدد وانحلال ١٩١
dissimilation	مخالفة ١٢٨ ، ١٤٧
double consonant	ساكن مضعف ١٤٦
doublets	كلمات مشتقة من كلمة واحدة ١٥٨
endocentric structure	جملة ناقصة ١٠٨
enhancement	ارتفاع المعنى (وانظر amelioration) ١٥٨
epenthesis	زيادة الساكن ١٤٨
epigraphy	علم النقوش ١٤١
etymology	علم الاشتقاق ٤٤ ، ٥٥
exocentric structure	جملة تامة ١٠٨
experimental phonetics	علم الأصوات التجريبي ٤٧
extra high pitch	درجة عالية جدا ٩٤
falling diphthong	علة مزدوجة هابطة ٨١
field conditions	ظروف بيئية ١٢١
flap	صوت ترددي (وانظر trill) ٨٦
focal area	منطقة مركزية ١٩٥
folk etymology	اشتقاق جمعي (وانظر popular etymology) ١٥٩
formant	مورفيم حر (وانظر free morpheme) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٥٤
form - class	مجموعة الكلمات التي لها نفس الحق في الاستعمال ١٠٨
frequency of sound waves	تردد الموجات الصوتية ٩٢
free morpheme	مورفيم حر (وانظر formant) ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٤
free position	مركز حر (بالنسبة للعلة) ٩٧
free variations	تنوعات حرة ٥٠ ، ٩٧
fricative	صوت احتكاكي (وانظر spirant) ٤٦ ، ٨٣
front vowel	علة امامية ٧٩
function word	كلمة وظيفية (كلمة مساعدة) ١٠١
functional change	تغيير وظيفي ١٥٦
functional tone	نغمة اساسية ٩٢
gemination	تضعيف (الصوت) ١٤٥
genemmic phonetics	علم الاصوات بعد الانتاجي ٤٧
genetic classification	تصنيف اللغات على أساس القرابة ٥٦
genetic phonetics	علم الأصوات الانتاجي ٤٧

قائمـــــة

اللهجات واللغات والعائلات اللغوية [1]

---

(١) لم ندخل فى الترتيب الهجائى كلمات « لغة » أو « لهجة » أو « مجموعة » كما لم ندخل أداة التعريف .

رقم الايداع ٣٩١٨ لسنة ١٩٨٣

مطابع سجل العرب